انشطار مغفرة

رواية

مجد حبيب

الطبعة الأولى ٢٠٢٢

ديـوان العـرب للنشـر والتـوزيع

عنـــوان الكتاب: انشطار مغفرة

اســـم المؤلف: مجد حبيب

التصنيف الأدبي: رواية

رقم الإيـــداع: 25915 / 2022

الترقيـم الدولي: 7 - 271 - 998 - 977 – 978

التدقيـق اللغوي: د. محمـد وجيـه

تـصميم الغلاف: محمـــد وجيـــه

التنسيق الداخلي: محمد وجـيـــه

رقـــم الطـبـعة: الطبعة الأولـى

المديـــر العام: د. فادية محمد هندومة

دار ديوان العرب للنشر والتوزيع - مصر – بورسعيد

تليفون: 00201211132879 – 00201030502390

بريد الدار: mohamedhamdy217217@gmail.com

انشطار مغفرة

رواية

مجد حبيب

ديوان العرب للنشر والتوزيع

إهداء

الفصل الأول

نافذة الأمس

-1-

توسطتْ الشمسُ كبدَ السماء، وما لبثتْ تتوارى كلّ حين خلف السحب المتناثرة التي فاتها اللحاق بموكب الغيم الذي تكاثف الليلة الماضية، وغصتْ بهِ السماء، فأغدقَ الأرضَ بوابلٍ غير منقطعٍ من الغيث الوافر.

كان ذلك في بداية شهر أيلول من سنة 2008م، وقد بدتْ شوارع دمشق مكتظةً أكثر من أيّ وقت آخر، بينما الغيوم ترشحُ رذاذاً خفيفاً يشوب الجو نفحةَ بردٍ سرعان ما تزول بحرارة الأنفاس اللاهثة المتواثبة، وخصوصاً شارع "المزّة" الرئيسي حيث تقع كلية الآداب والعلوم الإنسانية.

إنّ بداية العام الدراسي هو من أهمّ عوامل الازدحام والحيوية في دمشق في تلك الفترة، فكليّة الآداب من أكثر الكليات ازدحاماً، وذلك لاحتوائها طلاباً من كافة المحافظات السورية ومن خارج القطر، حتى يخالها المرء مدينة تضم بين أسوارها الحصينة عينات مختلفة من كل أنحاء الوطن العربي.

فلا يتوارد إلى مسامعك إلا الأصوات العالية والصيحات واختلاط القهقهات فيما بينها، وأكثر ما يسرّ ناظريك رؤية جموع الفتيات وهنّ يتأبطن أذرع بعضهنّ بفرحٍ تشوبه روائح طفولة لم تغادرهنّ بعد.

بالإضافة إلى تعالي هدير السيارات المختلط بأصوات الباعة المتجمهرين أمام الباب الرئيسي للجامعة، وقد اصطفّت الأكشاك التي تحتوي أكثرها على الأوراق بأنواعها اللازمة للتسجيل في الكليات، والطوابع المالية والمصنفات، حتى يبدو الجوّ خانقاً بعض الشيء، ولكن رغم هذه الجلبة فإنّ المشهد لا يخلو من الجمال الفريد الذي يبدعهُ التلوّن والاختلاف والإشعاع المنبعث من صميم أرواحٍ متفائلة مندفعة بكلّ عزمٍ إلى الأمام تبذلُ جهداً فائقاً لتسموَ.

ويبقى عبقُ الياسمين والقرنفل منتشراً في الأثير لافظاً تلقائياً الدخان والغبار، وكل شائبة من شوائب التلوث، وقد انبعثتْ ذبذبات الألفة والمحبة من تدافع الطلبة نحو كلياتهم في لوحةٍ ترسمُ صورةً واضحة المعالم لجيلٍ آتٍ مصمم على الانعتاق من كل ما علق به من الموروثات الخاطئة والمعتقدات البالية، محطمٍ بقبضته ما تراكمَ من رجعيةٍ وجهل، وقد حمل كل فرد نسائم بلدته في ملامحه ولهجتهِ وطيبته.

فما أجملَ التنوع والاختلاف كتنوع الأزهار في الربيع وهو يضفي إشراقات من الجمال فريدة! وما أقبحَ التصبّغَ بصبغة واحدة تخلو من

البهجة والأمل كأثواب الحداد القاتمة في رتلٍ يقف خاشعاً في رهبة الموت المسيطر!.

كانت ريم عبد الحق تمكث في المدرج تترقب ساعة يدها كل حينٍ بنفاذ صبرٍ حتى تنتهي محاضرة الدكتور عبد القيّم المملّة، التي تستحضر النعاس إليها فتوشك أن تستسلم للكرى وتغفو، لقد كان اختيارها لفرع اللغة الانكليزية اختياراً غير صائب وغير محبب لنفسها، فهو لا يلائم فكرها، ولا ينسجم مع أهوائها وتطلعاتها، وقد قررتْ الدراسة في الجامعة رغماً عنها، لتُرضي رغبة والديها لا أكثر.

تأففتْ ريم بضجر، وقالت لصديقتها نهال التي تجلس على يمينها:

_ أيظنُّ الدكتور عبد القيّم نفسه ظريفاً ليسهبَ في شرحه هكذا!، أشعرُ كأنّ همّاً ثقيلاً يجثمُ هنا بين أضلاعي.

وأشارتْ بيدها إلى صدرها، فانفجرتْ نهال ضاحكةً، لكنها أوقفتْ ضحكتها صاغرةً بوضعِ يدها على فمها خجلاً من الدكتور الذي رمقها بنظرة غيظ، بيدَ أنه تجاهل تصرفها وتابع شروحه.

همستْ نهال بحذر كي لا تلفت انتباه الدكتور مجدداً، فيودي بها الأمر إلى الطرد من القاعة.

_ وبمَ كنتِ ترغبين يا ريم؟

رفعتْ ريم إحدى حاجبيها بضجرٍ وأجابتْ:

_ لم أرغبْ بشيء أبداً هنا، كلّ ما كنت أبتغيه هو الحصول على الثانوية العامة والعمل، ومن ثم الزواج بشاب ثري جداً يحقق لي كل ما حُرمتُ منه.

نظرتْ إليها نهال وقد ارتفع حاجبيها وتقوسا بدهشة قائلة:

_ أنتِ مخطئة يا ريم، إنّ الشهادة الجامعية، وتحصيل العلم يرتقي بالمرءِ حتى في العمل، بغض النظر عن المعنويات العالية والوصول إلى النضج العقلي، وبالنسبة للزواج فهو من وجهة نظري ليس بطموح أوليّ للأنثى، إنه قرارٌ نتخذهُ بعد أن نلتقي بمن يخفق له القلب، ويوافق تفكيره تفكيرنا وليس كما تنظرين له أنتِ على أنه مصباح سحريّ لتلبية رغباتنا.

تبرّمتْ ريم من كلمات نهال، لكن ملامحها سرعان ما انبسطتْ لدى سماعها الدكتور يُنهي محاضرته، فأخذتْ تلملم أوراق محاضراتها المبعثرة، والتي لم تفقه منها شيئاً بفكرٍ شاردٍ غير مكترثة لكلام نهال التي ترّشه رشّاً عليها، وترجوها مرافقتها إلى السوق بإلحاح، لكن ريم قالتْ معتذرة:

_ آسفة يا نهال، فليس لديّ الوقت الكافي، أريدُ الوصول إلى الشركة وأخاف أن أتأخر عن عملي، ربما في وقت لاحقٍ.

امتعضتْ نهال وتمتمتْ:

_ كما تشائين.

أنهتْ ريم توضيب المحاضرات، ودسّتْ هاتفها في حقيبتها الجلدية الكبيرة، مع مجموعة الأوراق، وسارعتْ بالخروج وهي تفكر بصاحب الشركة ذي الطبع الحاد، والنظرات الثاقبة المخيفة، كنظرات ذئبٍ جائعٍ، وقد بدأ هاجسٌ أسودٌ يحوم في رأسها؛ ألا وهو إمكانية أن يستعيض عنها بشخصٍ آخر إنْ تأخرتْ عن موعد العمل.

أحسّتْ بضيقٍ كبيرٍ من فرط خفقان قلبها خوفاً واضطراباً، فهي لن تسمحَ بخسارة عملها مهما كلفها الأمر.

تدافعتْ إلى الشارع تريد اجتيازه إلى الرصيف المقابل وسط صخب أفكارها دون انتباه، وبلمح البصر لم تشعر إلا وجسدها تطاير كورقة انتزعتها رياح هوجاءٌ إثر صدمة عنيفة، وما هي إلا لحظات حتى فقدتْ أيّ شعور وإحساس بكل ما حولها.

لقد حدث كل شيء بسرعة فائقة، وقد اسودّ بياض نهارها وانطفأ بريق عينيها، ولم تعِ ما حدث إلا بعد أنْ استفاقتْ لتجدَ نفسها في المستشفى إثر صدمةٍ مباغتة من سيارةٍ لم ترها، عندما حاولتْ اجتياز الشارع، هكذا أخبرتها الممرضة التي كانت تضمد جروحها وتعطيها الحقنة المسكنة ولم تزد على هذا حرفاً واحداً.

أحسّتْ بالألم في كافة أنحاء جسدها، لكن هذا الألم لم يُبعدْ شبح الخوف عنها الذي استبدّ بها استبداداً جائراً، فقفزتْ صارخة وقد تذكرتْ عملها وثورة صاحب الشركة:

_ يا للمصيبة لقد خسرتُ عملي!

ودوى في أرجاء الغرفة صوت بكائها، حيث قبعتْ في سريرها تبكي كالأطفال غير آبهة بمن حولها.

تقدّم منها شابٌّ يحاول إخفاء ما ارتسمَ على معالمه من ذعرٍ قائلاً بصوت يغلبه الارتجاف:

_ الحمد لله على سلامتك يا آنسة، إنها مجرّد رضوض وستزول بإذن الله.

لم تلتفتْ إليه ريم أو تعره بالاً، بل واصلتْ حفلة بكائها المرير وهي تنتحب، فسحبَ الشاب كرسياً حتى دانا سريرها، وقال بلهجة غاضبة تنم عن نفاد الصبر:

_ توقفي عن البكاء أيتها الآنسة، فلستِ بطفلة صغيرة ليعلو نحيبكِ هكذا، أمورك جيدة والحمد لله.

وكأنّ كلماته لطمةٌ مفاجئةٌ أوقفتها قليلاً عن آلامها، فاسترقتْ إليه النظر وما إن وقع طرفها عليه حتى هدّأ من روعها جماله المبهر، لقد كان وسيماً إلى أبعد حدود الوسامة، بوجهه البيضوي الأسمر، وعينيه الخضراوين كأوراق الزيتون، لكنها استبدلتْ إعجابها وانبهار أنفاسها بعبوسٍ، وردّتْ بوجه واجم:

_ وما شأنكَ أنتَ؟

لم تتدخل في شؤوني؟

ابتسمَ بلطفٍ بعد زوال تكدّر ملامحه وقال:

_ أنا عزام توفيق خرّيج كلية التجارة والاقتصاد وأنتِ؟

لم تجبه وقد اندلعتْ ألسنة غيظٍ ممزوج بحزنٍ، والتزمتْ الصمت، فقد شردتْ بتفكيرها إلى شركة النقل، وحام في فضاء رأسها سؤال واحدٌ فقط:

"هل استعاضوا عني بشخصٍ آخر؟"

وفجأة دبّ الذعر في أوصالها محاولة القيام من سريرها، فلم تقوَ على النهوض، فصرختْ بعصبية وقد احتقن وجهها الأبيض، وضربتْ براحتيها على ركبتيها:

_ أين الطبيب؟

أريده حالاً .

فبادرها عزام قائلاً بسخرية:

_ لا يليق بفتاة جميلة مثلكِ أن تسلّمَ نُضجَ أنوثتها لمشاغبة الأطفال هكذا، أليس كذلك؟

استوقدتْ نظراتُها غضباً، واشتعلتْ براكين غيظٍ عارمٍ في جوفها، فصاحتْ به:

_ اخرجْ من هنا هيا.

دخلتْ الممرضة هرولةً على إثر صراخها يتبعها الطبيب، وسألتها بقلق:

_ ماذا يجري هنا؟

هل تتألمين لهذه الدرجة؟

قالتْ ريم وإمارات الغضب ماثلة على قسماتها، وقد أوشكتْ عيناها على الانهمار:

– أخرجوا هذا الشخص البليد من هنا هيا، إنه يولي نفسه حاكماً عليَّ وعلى تصرفاتي، هل لي أن أعرف بأية صفة يجلس قربَ سريري؟

أجاب الطبيبُ بحرجٍ وهو يجول ببصره بينها وبين عزام:

_ اهدئي قليلاً، إنّه الشاب الذي صدمكِ بسيارته، وهو ينتظر هنا ريثما تأتي الشرطة لتأخذ أقوالكما بصدد الحادثة.

استدارتْ إليه كالملسوعة، وثارتْ ثائرتها مجدداً لتقول:

_ أنتَ مَنْ صدمني إذن؟

يا لكَ من وقح! كيف تتجرأ على الكلام معي بعد كل ما فعلته بي؟

سوف أسجنكَ ولن أترككَ تنجو بفعلتكَ، لقد دمرتَ لي حياتي لن أسامحكَ أبداً.

وغطّتْ وجهها بكلتا يديها لتبدأ حفلة أخرى من النشيج والنحيب.

أومأ عزام للطبيب والممرضة كي يذهبا، ووقف مقترباً منها وقد بدتْ لهجته أكثر لطفٍ:

_ توقفي عن البكاء أرجوكِ، فأنا لم أكنْ مسرعاً، ولو كنتُ كذلك لكنتِ الآن في عداد الأموات، أنتِ من اجتزتِ الشارع بسرعةٍ دون التفات، ولم أركِ إلا وقد اصطدمتِ بالسيارة، فإنْ كان يسرّكِ سجني فأنا موافقٌ، فقط

وفّري هذه اللآلىء المنثورة عبثاً على وجنتيكِ، فالدموع لا تطفئ الحزنَ بل تزيده اتقاداً.

تشنجتْ يداها على خديها، واعتبرتْ ما يقوله سخريةً، فاندفع لسانها ينصبُّ عليه بلا رحمة، لتصفه بأقبح الأوصاف، بينما لا يبدو عليه التأثر لسبابها وشتائمها، إنما اكتفى بتأملها بكل هدوء وكأنه لم يسمعْ أيّ شتيمة أو سباباً قذفته به، فسألها:

_ أخبريني كيف دمرتُ حياتكِ، وأنا أراكِ أمامي على أحسنِ حالٍ ولم يصبكِ أيّ مكروه؟

إنها مجرد رضوض طفيفة ستشفين منها لربما اليوم أو غداً هذا ما أكده الطبيب.

اشتدّ حنقها وسطَ سيلِ دموعها من أسلوبه الهادئ وصرختْ:

_ بسببكَ أنتَ خسرتُ عملي، وبالتأكيد هذا لا يعنيكَ في شيء، وما همّكَ أنتَ إنْ نام والدي في البيت أم لم ينم؟.

حملقَ بها عزام مذهولاً، وقالَ محدثاً نفسه:

_ "هلْ يُعقل أن تكون مجنونة؟ فما علاقتي أنا بنومِ والدها في البيت أو خارجه؟".

استتلتْ ريم:

_ وما همّكَ إنْ بقيتُ شهوراً أبحثُ عن عملٍ آخر؟ بالتأكيد هذا كله بالنسبة إليكَ سخفٌ و تفاهةٌ.

وعادتْ إليها موجة البكاء، لا بل أخذتْ هذه المرة تضربُ بكفيها على ركبتيها كطفلةٍ وتهمهم:

_ كيف سأمشي الآن؟ وماذا بوسعي أن أعمل وأنا بهذه الحالة؟ ماذا سأقول لأمي؟

تأثر عزام بالغ الأثر من منظرها رغم رغبته الشديدة للضحكِ من تصرفاتها الطفوليّة فقال لها مواسياً:

_ لا تهتمي يا آنسة بشأن العمل، فالعمل موجود، سأُعيّنكِ في شركة والدي.

وفجأةً كأنه ضغطَ زراً أوقفَ به مناحتها وعويلها في أقلّ من لحظة، التفتتْ إليه وهي تجفف وجنتيها المبتلّة، وقد برقَ نور أملٍ أمام ناظريها وسألته:

_ هل تعني ما تقوله؟ لديكم شركة؟

هل حقاً ستؤمّن لي عملاً في شركة والدكَ؟

أم تراكَ تقول هذا كي لا أُقدّم بلاغاً ضدكَ للشرطة؟

تسمّرَ عزام منصتاً لها وقد فتحتْ عليه جبهة أسئلةٍ كدفقِ المطرِ:

_ ما هي الشركة؟ وأين تقع؟ هل أنتم أثرياء؟

قطع حبل ثرثرتها الطفولي مبتسماً وهو يغمز بعينه:

_ قدّمي بلاغاً كما تشائين، وبلاغكِ لن يمنعني عن توظيفكِ، هذا وعدٌ.

وراحَ يتأمل وجهها الأبيض الخالي من أيّة مساحيق، وحمرة خديها الطبيعية وعينيها اللوزيتين المائلتين للخضرة، إنها جميلة جداً لكنها عشوائية وثرثارة، ورغم ذلك فجمالها يزداد توهجاً من عمق حركاتها الطفولية، هذا ما كان يدور في خُلدِ عزام تلك الأثناء، فقال بغتةً:

_ لم تخبريني عن اسمكِ.

أجابتْ بعد أنْ أخذتْ نفساً عميقاً، وأزاحتْ خصلاتْ شعرها الأشقر المنسدلة على وجنتيها:

_ ريم عبد الحق طالبة في قسم اللغة الانكليزية.

_ طالبة!

رفعتْ حاجبيها مستهجنة من تعجبه وردتْ عليه بسخرية:

_ نعم طالبة، وهل يبدو على هيئتي أنني نادلة في أحد المطاعم حتى تفاجأتَ هكذا؟

_ لا عفواً، ولكن طالبة وتريدين العمل بهذا الإلحاح؟ كيف ستوفقين بين دراستكِ وعملكِ؟.

_ لا عليكَ أنت من ذلك، فأنا لا أرى مشكلة بذلك أيها السيد، إنّ الفقراء أمثالنا ليس بمقدورهم تحصيل العلم إنْ لم يعملوا، ولا أجدُ غرابةً في عمل الطالب والدراسة بآنٍ واحدٍ، ليس كل البشر مثلكم أثرياء، إنّ أغلبية الطلبة يعملون ويدرسون، لأنهم لا يجدون مَنْ ينفق على دراستهم، وبالنسبة لي والدي رجل فقير يعمل أجيراً ليؤمنَ لنا لقمة العيش، وكذلك

أمي تعمل على ماكينة خياطة، ولا سبيل أمامهما ليتحملا مصاريف زائدةً فوق طاقتهما، فقررتُ العمل لأكمل تعليمي الجامعي الذي يعدّ لهما حلماً جميلاً.

_ ريم.

نظرتْ إليه وقد شعرتْ بجمال وروعة اسمها لأول مرة من شفتيه ولم تردّ على ندائه فأردف مستفهماً:

_ هل البيت ملكٌ لأبيكِ؟

_ البيت!

وأطلقتْ ضحكة سخرية مغلّفة بالحزن قائلة:

_ تقصد الغرفة؟ إنها إيجارٌ وليستْ ملكاً لنا، لكنه إيجار قديم بسعر زهيد.

وضع يدهُ على جبهته ليُخفي تأثره، فأجفلته بصياحها وهي تنهره:

_ لا تحاولْ أن تحزن علينا أرجوك، فأنا لا أتكلم لأُثير شفقتك، قد تقول في سرّك بأنّي أسردُ لكَ حالتنا لتعطف علينا، لكن تأكد أيّها السيد أنّ ضيق وشظف عيشنا لا يحزنني البتّة، بلْ أنا سعيدة بأسرتي الصغيرة، الفقر ليس سبباً للحزن، وقد نكون أسعد حالاً منكم أنتم أصحاب الشركات والسيارات، فأوقفْ تأهّبكَ للبكاء علينا، المهم الآن أن تأخذني إلى بيتي، وتفي بوعدكَ بتوظيفي في شركتكم، وسأصدقكَ رغماً عني ودليل ذلك أنني لن أُقدّم دعوى ضدكَ.

توقفتْ عن الكلام بغتة تفتشُ عن حقيبتها، فأدركَ عزام ما يجول في بالها، وخشيَ أن تعود للضوضاء والصخب، فناولها الحقيبة المعلقة بزاوية الكرسي الذي يجلس عليه.

شكرته بإيماءة من رأسها، واستلّتْ هاتفها المحمول من داخلها لتتصلَ بأمها، لكنها لم تخبرها شيئاً مما حدث معها، وحدثتها بلهجة مازحة حتى لا تُثير ريبتها، أغلقتْ الخط لترمق عزاماً الذي بدا أكثر هدوءاً واطمئناناً.

وما هي إلا دقائق حتى جاء عنصران من الشرطة لتدوين معلومات عن الحادثة، أخذتْ ريم تتكلم معهما بجديّة وثقة، وأخبرتهما أنها وحدها المسؤولة عن تلك الحادثة، وأنّها اندفعتْ إلى الشارع المزدحم دون وعي وانتباه، وقالتْ بأنّ السيّد عزام بريءٌ لا ذنب له فيما حصل.

وما إن دوّنا أقوالهما وذهبا حتى استدارتْ شطر عزام قائلة بضحكة عذبة:

_ لقد نجوتَ أيّها السيد من حبل المشنقة.

فانفجر عزام ضاحكاً حتى أدمعتْ عيناه، وقال بعد أن هدأتْ موجة الضحك التي أسالتْ عينيه:

_ حبل المشنقة! ولماذا يا آنستي المشاغبة؟ هل قتلتكِ رمياً بالرصاص عن عمد، وتراني أتحدثُ الآن مع جثتكِ ؟ كم أنتِ طفلة!

مدّتْ ريم سبابتها محذرةً مع تقطيبةٍ من حاجبيها زادتها جمالاً:

_ لا تقلْ طفلة أحذركَ، لأنني أكملتُ العشرين من عمري الشهر الماضي.

وأشاحتْ بوجهها بانفعال مصطنع، لكنه تعمّد استفزازها أكثر فأردفَ:

_ وهذا إثباتٌ قويٌ على أنّكِ طفلةٌ لم تتجاوز السابعة.

وغرقَ بضحكه مرةً أخرى، فصارتْ ريم تختلس النظرات إليه وهو يضحك وتهمس في سرها:

_" سبحان الله الذي أبدعَ وتفننَ في نسج ملامحه بمنتهى الروعة والجمال!".

كان وجهه كالنهارِ أو أشدّ سطوعاً، وهو يقتحم حلكة ليلٍ طويل فيضيئه بأنوار البهاء.

ظلّ عزام ملازماً لها أكثر من ثلاث ساعات، ودفع أجور المستشفى وثمن الأدوية، وحاول أن يحملها إلى الخارج حيث يركن سيارته، فدفعته بقوة صارخةً في وجهه:

_ ماذا تفعل؟

هل جُننتَ لأسمح لكَ أن تحملني يا هذا؟

احترمْ نفسكَ قليلاً.

اعتذرَ عزام منها، وقد انتبه لنفسه فاستأذنها بإمساكِ يدها خوفاً عليها من دوارٍ قد يصيبها بعد تعرضها لتلك الحادثة.

لكن عينيها بدأتْ تخوناها، فتسترق النظر إليه، لقد كان لطيفاً لدرجة أنه تسللّ إلى قلبها دون إرادة منها، لكنها سرعان ما نفضتْ من رأسها تلك الأفكار كارهةً، فمن هي بالنسبة إليه؟

إنه لمن العار أن تجرؤ على التفكير به، هو غني وهي فقيرة، هو في برج عالٍ علو السماء عن الأرض، وهي في كوخ وضيع أخفض من وادٍ سحيق، فكيف لها أن تنجذبَ لشاب مثله جاد عليه الزمن بكل أصناف النعم من جمال وثراء ولطف!

تنهدتْ ريم وسارتْ معه إلى حيث يركن سيارته وقد صدمتها تلك السيارة التي لم ترَ أفخم منها في حياتها، فجمدتْ خطواتها، وأخذ عزام يشدّها لتدلفَ إلى المقعد المجاور لمقعده، لكنها تسمّرتْ مكانها، وبصرها جامد، فما كان منه إلّا أن صرخَ متبرماً:

_ ريم ما بكِ؟

هل يؤلمكِ شيء حتى تشنج جسدكِ هكذا؟

رفعتْ حاجبيها علامة النفي فاستتلى:

_ اصعدي إذن لأوصلكِ إلى البيت.

نظرتْ إليه ساهمةً وأجابت:

_ لا شكراً، سأستقلّ سيارة أجرة.

زفرَ زفرةً عالية، وتعالى صوته بنبرة غاضبة فاقداً معها صبره:

_ ما هذا الجنون! هيا اصعدي وإلّا حملتُكِ غصباً عنكِ.

صعدتْ إلى السيارة حتى لا ينفذَ وعيده، والتزمت صمتاً أدهشه فقال لها بلهجة مازحة:

_ لا أصدقُ أنّكِ تجيدين فنَّ الصمت.

ردّتْ عليه بفتور:

_ ماذا تقصد؟

تابع ضاحكاً:

_ إنّ الانطباع الأول الذي كوّنته عنكِ هو الثرثرة، فأنتِ ثرثارة من الطراز الأول، ترشّين الكلام كوابل رصاص دون أخطاء أو عثرات، لهذا يصعب التصديق بأنّك قادرة على الصمت.

لم تضحكْ أو تعقّب على كلماته، بل قررتْ التزام حدودها مع ثري مثله، فمثلها لا يحقّ لها حتى المزاح معه، واكتفتْ بإرشاده إلى الطرقات المؤدية إلى الحيّ الذي تقطنه، وبعد دقائق أشارتْ إليه بالوقوف وعلى ملامحها تعبيرٌ جامدٌ لا يتبدل:

_ قفْ هنا أرجوك.

انصاع لطلبها، فنزلتْ من السيارة، لكنّه نزل بسرعة ليساعدها ويمسكها، فنفضتْ يده بعنفٍ وقالتْ له بتحدٍ:

_ سيّد عزام لا يحقّ لك إمساكي متى شئتَ، في هذا الحي المتواضع أسكنُ مع والديّ، ولا أريد لأحدٍ أن يتكلم عنّي بسوء أفهمتْ؟

أجاب بهدوء:

_ نعم معك حق، اعذريني، لكنّي لنْ أتركك وحدك، أريد أن أوصلك إلى بيتكِ ليطمئنَ قلبي عليكِ، وسأشربُ القهوة مع والديكِ إن لم يكن لديكِ اعتراضٌ.

_ نعم لديّ اعتراضٌ، فأنا لا أريدكَ أن تدخل بيتنا.

_ ولكن لماذا؟

قالها بانفعال وقد غزته مشاعر الحيرة من تصرفاتها الغريبة.

ردّتْ بلهجة أقلّ حدّة وهي تُطرق أرضاً:

_ قلتُ لكَ لا أريد لأحد أن يتكلم عني بسوء.

قال مستسلماً:

_ كما تشائين يا ريم، لكنّك لم تعطني رقم جوالكِ كي أخبركِ عن موعد مجيئكِ إلى الشركة لاستلام العمل.

ابتسمتْ ابتسامة خفيفة تخفي وراءها حزناً مجهولاً و قالتْ:

_ لا داعي يا سيد عزام، سأتدبر الأمر بنفسي.

ومشتْ بخطىً متسارعة وسط ذهوله واستغرابه، وهمّ أن يلحق بها، ويركض في أثرها لكنّه أرغم نفسه على عدم الإقدام على ذلك خشية عليها وخوفاً من أن يسبب لها مشكلةً، فعاد إلى سيارته محزوناً لأنه جهلَ سبب تراجعها عن قرار العمل، وسبب ذلك الحزن الذي استبدّ بها رغم حماسها الشديد للعمل لديه في البداية.

أخذ يقود سيارته متجهماً، وبلا شعور أو إدراك وجد نفسه أمام منزله، فوجئ من ذلك فقد كان عليه الذهاب إلى الشركة، وإنهاء بعض الأعمال المهمّة المتراكمة.

تنهدَ بضيق، ونزل من السيارة صافعاً بابها وراءه بحنق.

دخل بيته فاستقبلته والدته السيدة علياء بدهشة متسائلة بصوت مضطربٍ:

_ هل أنتَ على ما يُرام يا حبيبي؟

ما بكَ متجهمٌ هكذا؟

ردّ بضيق:

_ لا شيء يا أمي لا شيء.

لم تقتنع علياء بجوابه، واقتربتْ منه تعاود أسئلتها:

_ أتُخفي عن أمك شيئاً؟

أراكَ على غير عادتكَ يا حبيبي، هل اختلفتَ مع شيرين؟

زفر عزام وقد أرهقته بأسئلتها، ونادى على الخادمة طالباً فنجاناً من القهوة، ليعود و ينظر إلى أمه قائلاً:

_ هل سبق لي واختلفتُ مع شيرين لأي سبب يا أمي؟

إنّي متوتر لأنني كدتُ اليومَ أن أقتلَ فتاة بسيارتي.

ندتْ شهقة ذعر من صدر علياء، وضربتْ بكفها على وجهها صارخة:

_ تقتلُ فتاة؟ يا للمصيبة! كيف وأين؟

وأخذ يسرد على مسامع والدته كلّ ما حدث وكان، وما إن انتهى حتى تنهدتْ أمه بعمق وارتياح هامسةً:

_ الحمدُ لله يا حبيبي أنها لم تصب بأذى، ولكن لمَ أنتَ حزين هكذا وقد مرَّ الأمر على خير؟

أطلق زفرة وأعقبها بالقول وقد اكتأبتْ طلعته، وبدا عليه الضيق الشديد:

_ إنّي حزين لأنها أطلعتني عمّا يعانونه من ضيق الحال وشظف العيش وقد نويتُ مساعدتها، لكنها غيّرتْ رأيها بعد إلحاحها على العمل بدون سبب واضح.

اقتربتْ علياء من ولدها، ومسحتْ براحتها على رأسه مهدئةً له:

_ لا تقلق يا قرّة عيني، فأنا واثقة بأنها ستأتي إليكَ لاحقاً طلباً للعمل.

قال عزام وقد زاد عبوساً:

_ كيف ذلك يا أمي وهي لا تعرفُ عني شيئاً إلا اسمي وأنا كذلك؟

ونهض بتكاسلٍ تاركاً والدته قلقة عليه، وقبل صعوده الدرج المؤدي إلى غرفته بادرته أمه:

_ ستأتي اليوم شيرين وعائلتها على العشاء يا عزام، لقد أخبرتني والدتها صباحاً بذلك.

لم يلتفتْ لما قالته أمّه، ودخل غرفته موصداً الباب خلفه، وبعد دقائق لحقته الخادمة بفنجان القهوة، لكنه قال لها من الداخل:

_ اشربيه أنتِ يا وداد.

-2-

عائلة السيد أحمد توفيق من العائلات الدمشقية العريقة، التي امتهنت منذ أمد بعيد الصناعة والتجارة، وتفرغ أحمد منذ يفاعته لتجارة الأقمشة والألبسة التي تنتجها مصانع والده وجدّه، فأصبح في سنوات قليلة من الأثرياء الموسرين.

تزوج من علياء الحسيني بعد قصة حب كبيرة دامتْ أكثر من سنتين، وأنجبَ منها عزاماً الذي ارتسمَ على محيّاه كل جمال والدته وحسنها، رغم اعتراض عائلة أحمد على هذا الزواج بشدّة، إلّا أنّه هدّد عائلته بالانتحار إنْ لم يزوجوه بها، لقد كانت علياء الحسيني مثلاً يُضرب بالجمال الآخّاذ والحُسن المشعّ ببشرتها المائلة إلى السُمرة وعينيها الخضراوين الواسعتين وفمها المكتنز وقوامها الرشيق، لكن وبعد سنةٍ وإثر تدخّل أهل أحمد في حياة الزوجين، نشبتْ نيرانُ الخلافات والنزاعات وقد نجحوا في إبعاد أحمد وعلياء عن بعضهما، وأرغموه على طلاقها، لكن أحمد قتله الهمّ والغمّ لفراقها وفراق ولده، فتركَ عالمه واختفى لشهورٍ عديدةٍ دون أن يقتفوا أثره، وهذا ما أجبرهم على الرضوخ لابن عم علياء لؤي الحسيني؛ الذي كان صديقاً حميماً لولدهم أحمد، وعملوا بمساعدته على البحث المضني والشاق عنه، حتى استطاعوا الوصول إلى أحمد الذي كان يسكنُ غرفةً صغيرةً استأجرها في حيّ فقيرٍ، وأعادوه إلى المنزل بعد أن قطعوا له وعداً بإعادة زوجته وولده الصغير.

وعاد أحمد وعلياء ليعيشا تحت سقفٍ واحدٍ، وقد امتلأا سعادةً وحبّاً، وأنجبا بعد سنة ابنتهما عفراء، لتنعمَ العائلة بفائض سعادة ومحبةٍ ليس لها مثيل، وقد وضعوا حدوداً لكلّ الناس، وحرّموا عليهم التدخل في أيّ أمرٍ من أمورهم، وكلّ شأنٍ من شؤونهم، ولم يغيّر الزمنُ حبّ أحمد لعلياء، ففي كل يومٍ يتجدّد عشقه وهيامه لها كأول مرة يلتقيها.

***

دخلتْ ريم إلى الزقاق حيث تقع الغرفة التي تقطنها مع والديها، شاردة اللبّ، جامدة النظر، حتى أنّها لم تنتبه لشهقات أمّها المذعورة من مرأى الكدمات على ذراعيها، وأعلى جبهتها حين ولجتْ البيت، وانهالتْ أمّها تسألها بخوفٍ عن سبب الكدمات، انتزعتْ ريم حذائها من قدميها، واستلقتْ على الأريكة، فلحقتها صارخةً في وجهها:

_ أنا أتكلم معكِ يا ريم، ماذا حدث معكِ هيّا أجبيني؟

قالتْ ريم وهي تغتصبُ ابتسامةً على وجهها الداكن المتجهم:

_ لقد صدمتني سيارةٌ.

_ يا للمصيبة! صدمتكِ سيارةٌ! أين ومتى؟

_ قطعتُ الشارع دون أن أنتبه، فصدمتني سيارة، ولم أشعر بنفسي إلّا في المستشفى، لا تقلقي يا أمي الحمد لله أنا بخير.

قالتْ أمّها بحزنٍ بالغٍ:

_ أيّ خير هذا؟

يكاد قلبي ينفجر، وأنتِ تتكلمين ببرودٍ وسخريةٍ.

أخذتْ ملامح ريم تصبحُ أكثر جديّة و قالتْ:

_ أنا لا أسخرُ منكِ يا أمي، الضربةُ كانت خفيفة ولم أخرج من المستشفى حتى تأكد الأطباء بأنني على خير ما يرام، فلولا الخوف لما فقدتُ وعيي.

صاحتْ أمها بغضب:

_ ومن ذلك النذل الحقير الذي صدمكِ؟

زفرتْ ريم بضجر وردّتْ:

_ شابٌ يُدعى عزام، لكنه ليس مخطئاً يا أمي، كل الحقّ على ابنتكِ، والآن أحضري لي شيئاً لآكله فأنا جائعةٌ جداً.

ضربتْ الأمّ كفاً بكفّ، وتناهضتْ وهي تمتم حامدةً وشاكرةً الله على سلامتها.

وما إنْ خلتْ ريم إلى نفسها، حتى بدأتْ تتساءل وتؤنبُ وتتراجع، حتى غدا فكرها كدخانٍ يتموج فيما بينه متداخلاً حاجباً الرؤية الواضحة والجليّة إنها تستغربُ انسحابها من أمام عزام ورفضها إعطاءه رقم جوالها، فهي بأشدّ الحاجة للعمل.

وتنبهتْ فجأة، فقطعتْ حبل أفكارها المتشابك لتمسكَ هاتفها، وتتصل بشركة النقليات، وتستعلم إنْ كانوا قد استعاضوا عنها بشخص آخر، ردّتْ عليها إحدى زميلاتها، وأخبرتها عن غضبِ صاحب الشركة الذي

هدّد وتوعّد بطردها من العمل لعدم التزامها، ونصحتها أن تذهبَ إليه وتخبره عمّا أصابها لتستدّر عطفه وشفقته، ربما يعيدها إلى العمل ثانية.

زفرتْ ريم بضيق شديد بعد أن أغلقتْ الخطّ، وقررتْ ألّا تفكر بالأمر حتى تتجنب مزيداً من الإرهاق الذي قد يودي برأسها.

بعد قليل جاءتْ الأم تحمل طبق الطعام، والغمّ لازال مرسوماً على قسماتها فبادرتها ريم:

_ ألم يأتِ أبي من العمل حتى الآن؟

ردتْ الأمّ بتعب:

_ لا يا حبيبتي لم يأتِ، وأظنّه لن يأتي اليوم، فقد تجاوزتْ الساعة السادسة والنصف، ربما لم يتسنَ له ترك أعماله، تناولي طعامك فأنتِ متعبةٌ، ويجب أن تأكلي وتخلدي للنوم.

تناولت ريم طعامها بدون شهية، وهي تتعارك مع وساوسها المتشبثة تحاول أن تطردها عنوة من رأسها إلّا أن صورة عزام لم تبرح خيالها، وتعود لتقول محدثة نفسها:

_ "كيف أفكّر بشخص عابرٍ كهذا؟ إنني لا أصلح أن أكون جارية في بيته".

وغصّتْ بلقمةٍ، فأسرعتْ وتجرعتْ الماء، وتركتْ طعامها قبل أن تشبعَ، بينما أخذتْ الأم تتشاغل في المطبخ وقد راعها عدمُ مجيء زوجها

لتناول طعام الغداء، لم يكن من عادة عادل عبد الحق التخلف عن المجيء إلى البيت أثناء وجبة الغداء.

سكنتْ ماريا لطفي وعادل عبد الحق منذ سنين طويلة في ذلك الحيّ وخلال تلك السنوات لم ينمْ عادل ليلة واحدة في بيته مع زوجته وابنته، فقد كان يعمل في مصنع للعبوات البلاستيكية ليلَ نهار، يأتي صباحاً ليفطرَ، ويذهب إلى عمله ولا يعود إلّا في الثالثة بعد الظهر على موعد الغداء، يمكث ساعات قليلة محضراً معه كل ما يحتاجونه في البيت، ويخرج مجدداً إلى عمله المسائي الممتد حتى صباح اليوم الثاني.

وكثيراً ما كانت ريم تسأل والدتها عن سبب ذلك، لكن ماريا تكتفي بالقول:

_ أبوكِ يعمل لنعيش أنا وأنتِ يا ريم، إنّه أعظم أبٍ في الدنيا.

وترفق كلماتها بدمعتين سرعان ما تجففهما برؤوس أناملها، لقد كانت ماريا تحترمه لدرجة التقديس، وهو بدوره يعاملها كما لو كانت مولاته، فهي امرأة متوسطة العمر، تبلغ الثالثة والأربعين من عمرها لكنها تبدو أصغر سناً مما هي عليه، وفي عينيها العميقتين هناك أقاصيص لعهودٍ غابرة من الجمال الذي ذوت نضرته على مرّ السنين.

فعادل عبد الحق يعمل جاهداً ليحقق كل احتياجاتها، واحتياجات ابنته الوحيدة، ويشتري لهما كل ما تطلبانه وما لا تطلبانه؛ المهم عنده أن تكونا راضيتين مطمئنتين.

ولم تشهد ريم يوماً والديها يختلفان لأيّ أمرٍ، أو يتشاجرا لأيّ سببٍ من الأسباب، وكان أقصى أمنياتها تخفيف عبء المصاريف عن والدها الطيب الحنون، وتقول لأمها بقنوط:

_ أريد مشاركة أبي مصاريف البيت، حتى يتسنى له النوم في البيت، أريد أن يرتاح من عناء العمل ليلاً على الأقل.

لكن ماريا تزداد حزناً وكمداً كلما رددتْ ابنتها هذه الكلمات .

***

في مساء ذلك اليوم جاءتْ شيرين خطيبة عزام مع والديها لزيارة عائلة السيّد أحمد توفيق، لقد كانت ترفل بالسعادة، وتشعّ سروراً لرؤية عزام الذي كان يحاول جاهداً إخفاء تجهمه ومزاجه المتعكرِ بحضورهم، لكن إحساسه بالذنب جعله أسيرَ ضيقٍ قاتمٍ يستأثر بخلجاته ومنبعه تلك الفتاة المسكينة التي فقدتْ عملها بسببه.

اقتربت شيرين منه وهمستْ في أذنه:

_ هل أنتَ على ما يُرام يا حبيبي؟

ابتسمَ عزام وأمسكَ بيدها مُطمئناً:

_ لا تقلقي يا حبيبتي، تعرضتُ اليوم لحادثة صغيرة جعلتْ مزاجي متعكراً قليلاً.

أخذتْ ملامح شيرين تتقلص، وتتمدد بينما عزام يسردُ لها تفاصيل الحادثة وما إنْ انتهى حتى لمعتْ عيناها وقالتْ له:

_ لمَ لا نذهبُ غداً إلى بيت الفتاة؟

تفاجئ عزام من اقتراحها وردّ:

_ كيف؟

ابتسمتْ له برقّة وعذوبة وأجابت:

_ بكل بساطة نذهب إلى ذلك الحيّ ونسألُ عنها، الأمر لا يحتاج إلى كثير من التفكير أليس كذلك؟

غمرهُ الارتياح واتسعتْ ابتسامته الساحرة، فهمس في أذنها وهو يشدّ يدها:

_ تستحقين قبلةً عنيفة يا ملاكي كمكافأة لكِ على فكرتك.

لكزته بقدمها من تحت الطاولة، وقد كساها الخجل وهمستْ:

_ ليس هنا بالتأكيد.

فتعالتْ ضحكته وما لبث أن أخفضها هامساً لها مجدداً:

_ أنا لا أهابُ أحداً، وأستطيع تقبيلك أمام الجميع وبالقوة أيضاً.

ضحكتْ شيرين وقلبها ينتفضُ هياماً فهمستْ معقبة على كلامه:

_ لنْ أتنازلَ عن مكافأتي بالطبع، لكن بشرط أن نكون لوحدنا.

وغمزته بعينها ليذوبَ بها حباً وشغفاً، كانت شيرين تستميتُ في حبها لعزام، ولم يعد في وسع قلبها أن يمتلئ به أكثر، ولا أن يجمعَ أشتات الأبجدية ليؤلف له قصيدة عشقٍ تناسبُ جلالةَ غرامه، ولا أن يأمر الغيم بالتهطال ويداهم بوابله عطشَ صحرائها، لم يعد في قلبها بابٌ لم تطرقه

يدُ الحنين والحب إليه، لقد اكتفتْ به، وطفح كأسُ هواها منه فهو حبها الأول والوحيد.

تعارفا في الجامعة وتطورتْ علاقتهما، إنها ابنة طبيب مشهور يُدعى سالم بدر، وقد لقي اختيار عزام لشيرين قبولاً حسناً من والديه لما تتصف به من رزانةٍ وتعقّل، وجمال هادئ بسيط لا يلفت إليه إلا أصحاب الأذواق الرفيعة، الذين لا يُجزؤون القسمات والتقاطيع كلّ على حدة، بل يجدون في الشكل الكامل المتكامل ما ينمّ عن الارتياح والطمأنينة لنفوسهم، بالإضافة إلى عائلتها فهم أناس محترمون جداً، باختصار فإنّ شيرين مناسبةً لابنهما بكلّ المقاييس.

في صباح اليوم التالي ذهب عزام إلى بيت شيرين ليأخذها معه إلى الحيّ الذي تقطنه ريم عبد الحق.

وصلا إلى مدخل الحيّ، وأخذا يسألان عن منزلها، وبالفعل اهتديا سريعاً إلى معرفة مكان البيت المنشود، فكل أفراد الحيّ يعرفون ريم عبد الحق ابنة السيدة ماريا والسيد عادل عبد الحق.

في تلك الأثناء كانت ريم خارج البيت، فقد خرجتْ من الصباح إلى الشركة تستجدي عطف ذلك المتعجرف ليعيدها إلى العمل ثانيةً.

فتحتْ لهما ماريا البابَ، ونظرها يجول بين عزامٍ وشيرين بدهشةٍ، فهي لا تُخالط أحداً، لقد التزمتْ كل سنوات مكوثها في ذلك الحيّ داخل الغرفة

لا تزور أحداً ولا تفتح مجالاً لأيّ جارٍ لزيارتها إلّا لبعض الزبائن الذين يقصدونها بهدف الخياطة.

قالتْ لها شيرين بلطف:

_ مرحباً سيدتي أنا شيرين وهذا خطيبي عزام، لقد جئنا لزيارة الآنسة ريم.

ردّتْ ماريا بفمٍ مرتجفٍ وحاجبين مقطبين:

_ ومن تكونا؟

رمقتْ شيرين عزام بنظرة سريعة وأجابتها:

_ لقد صدمَ خطيبي الآنسة ريم بسيارته البارحة، وقد جئنا للاطمئنان عليها.

تبدّلَ وجوم ماريا في لحظاتٍ قليلة، وقد انقشع غموض الموقف أمامها فسارعتْ بالقول:

_ أهلاً وسهلاً بكما تفضلا بالدخول.

دخلتْ شيرين يتبعها عزام، وقد لفتْ نظرهما بساطة الغرفة ومظاهر الفاقة البادية عليها، فأثاثها مكوّن من سريرين خشبيين وعلى يسارهما صيوانُ ملابسٍ قديمٍ، وخزانة مؤلفةً من ثلاثة أدراج تلتصق بالصيوان، وأريكة كبيرة يجاورها ثلاثة مقاعد يشكلون نصف دائرة، ويتوسطهم منضدة خشبية بدتْ عليها علائم الرثاثة، يُقابل الأريكة طاولة وُضع عليها تلفازٌ صغيرٌ، بينما المطبخ ملتصقٌ بالغرفة ببابه المهترىء.

أحسّتْ ماريا بما خالجهما من شعور، فقالتْ معتذرة وهي تُشير بيدها إلى الأريكة الكبيرة:

_ تفضلا هنا، وأرجو المعذرة فالغرفة لا تليق بكما.

سارع عزام مستدركاً:

_ لا يا خالتي الغرفةُ مميزةٌ بنظافتها، فرائحة الزهور تفوحُ في أثيرها، إنّ رائحة النظافة وعبير الأزهار يضفيان على الأمكنة جمالاً خاصاً مهما كانت بسيطة.

وبالفعل كانت ماريا تحرص دائماً على نظافة غرفتها، ووضع أصص الحبقِ بعناية في زواياها.

هزّتْ شيرين رأسها موافقةً على كلام عزام، رغم تولّد حسرةٍ من مواساة تلك المرأة الفقيرة التي تراها تذوب خجلاً من فقر أحوالها ورثاثة أثاثها، فماريا لا تحب رغم فاقتها أن تبدو أمام مخلوقٍ بأنها أقلّ منه.

لكنه لم يمضِ وقتٌ طويلٌ حتى أخذ الثلاثة يتجاذبون أطراف الحديث، ونهضتْ شيرين لتساعد ماريا بتحضير الشاي، لقد شعرتْ ماريا بالارتياح الشديد والألفة الشديدة الغير مسبوقة بوجود أشخاص غرباء.

وزاد من ارتياحها بأنّها لم تحسّ بأنها مختلفة كثيراً عنهما، أو أنها من طبقة أقل من طبقتهما، فهما كثيرا التودد واللطف والاحترام.

بعد مضي أكثر من ساعة على مكوثهما مع ماريا جاءتْ ريم، وما إنْ وقفتْ بباب الغرفة حتى استولى عليها ذهولٌ مخيفٌ، وتصاعد الدم إلى

وجهها عندما رأتْ عزام في بيتها، وأخذتْ النيران تشتعلُ في أوصالها، فتملكها شعور بانتفاخ أوداجها، وبدوار يلفّها فكادت تتهاوى أرضاً، اندفعتْ ماريا تجاهها وقد راعها انفعال ابنتها، فسحبتها من يدها لتصافحَ عزاماً وخطيبته شيرين، وهي تضغط على أصابعها المتجمدة خفيةً حتى تبدو طبيعية، فهي تعلم طباعها النارية، لكن ريم وقفتْ كالصنم أمامهما، فجذبتها شيرين بتحببٍ لتعانقها، كأنها تعرفها من سنين طويلة قائلة:

_ الحمد لله على سلامتكِ يا ريم، لقد سررتُ لأنكِ بخير وعافية، وجئنا للاطمئنان على صحتكِ.

أجبرتْ ريم شفتيها على النطق متمتمةً:

_ أهلاً بكما تفضلا بالجلوس.

ومشتْ باتجاه المقعد الصغير المحاذي لهما، لتجلسَ وقد غلفها الهدوء الذي يداري ناراً تضطرمُ في حناياها، وبدأتْ تختلسُ النظرات إليهما وتُحدث نفسها بكثير من اليأس والقنوط:

_"إنها تناسبه تماماً، فهي على ما يبدو من طبقته الثرية، وأنا مجرد فتاة فقيرة لا أُثير إلا شفقته".

توجه عزام بالكلام إليها قائلاً:

_ آنسة ريم إنّه ليسرّني أن تعملي في شركتنا، والذي زاد من إصراري تعرّفنا على والدتكِ تلك الإنسانة الرائعة، وقد خالجنا الشعور أنا وشيرين بأننا غدونا أقرباءً، أليس كذلك يا خالة؟

قالتْ ماريا بسرعة وابتسامتها تزداد اتساعاً:

_ شرفٌ كبيرٌ لنا يا سيد عزام أن تعتبرنا أقرباءً لكَ.

انتفضتْ ريم كالملسوعة من جواب والدتها، وصاحتْ بحنقٍ:

_ ما بكِ يا أمي؟ كيف نكون أقرباء؟

علينا أن لا ننسى أننا أناس بسطاء وكل ما في الأمر أنه يشفق علينا، فلا تجعلي خيالكِ يسمو بكِ إلى أعلى من ذلك.

تجمّدتْ ماريا من هول ما سمعتْ، لكن ضحكة عزام جعلتْ الجميع يتشتتْ وقال بعد أن توقف بغتة عن الضحكِ:

_ اسمحي لي يا خالة ماريا أن أقول : بأن مخّ ابنتكِ أصلبُ من جدران هذا البيت، إنها حساسة جداً، وتفكيرها يُحاكي تفكير من عاشوا في القرون الجاهلية الأولى.

وتصاعد الدم إلى وجهه، لتتحول نظراته إلى شررٍ متطايرٍ متابعاً بلهجة أشدّ حدةً:

_ أنا لا أُشفق على أحدٍ يا آنسة، ولا أحبُّ مشاعر الشفقة بتاتاً، إنّي أراكِ تتكلمين معنا بتعالٍ وعجرفةٍ لا أجد لهما سبباً، أنا أخطأتُ بحقكِ وصدمتكِ بسيارتي وواجبٌ عليَّ الاعتذار وتقديم خدماتي، ولا أنتظرُ منكِ إلا نزراً قليلاً من التواضعِ، ومحاورتنا بلطفٍ، فنحنُ ضيوف في بيتكِ.

انتبهتْ ريم لتصرفها الأرعن وردّتْ بخجلٍ:

_ ليس هناك ضرورة لتعتذر، فأنا مَنْ أخطأتُ وجئتُ في طريقكَ، ولستَ مُلزماً لتعرض خدماتكَ عليَّ.

تنفسَ عزامٌ بعمقٍ يستجدي الصبر وهمَّ بالكلام، لكنّ شيرين قاطعته وقد استفزتها تصرفات ريم، لكنها حاولتْ ضبط أعصابها وامتصاص غضب خطيبها، فتقدّمتْ من ريم حتى دانتها وقالتْ:

_ لا تُحمّلي الأمور أكثر من اللازم يا ريم، إنّ المحبة والألفة والصداقة مفاهيمٌ تزول لعمقها كل الترّهات والأفكار المغلوطة عن التفاوت والطبقية، وهذا ما شعرنا به عندما تحدثنا مع والدتكِ الرائعة، فأرجو أن تقبلي عرض عزام وتخففي من حساسيتك المفرطة.

صمتتْ ريم، وأقرّتْ في سرّها بأنّها تتصرف كطفلة لم تتعلمْ أصول الأدب واللباقة، وقد وجهتْ إهانة للضيوف في بيتها، وأحرجتْ والدتها، فاغتصبتْ ابتسامة يُخالطها الحرج لتقول:

_ أنا ممتنة كثيراً لكما وشكراً لمجيئكما، ويسرّني العملَ في شركة السيد عزام.

والتفتتْ إلى أمّها التي طغتْ على قسماتها علائم الانزعاج والتوتر قائلة:

_ سأحضّر القهوة حالاً.

قاطعها عزام باستهزاء وغضب معاً:

_ شكراً لتواضعكِ المباغتْ، ونعتذر عن شربِ قهوتكِ فعلينا الذهاب الآن.

ونهض لينتشلَ من إحدى جيوبه بطاقةً ورقية، مدونٌ عليها عنوان الشركة وأرقام الهواتف، وناولها إياها قائلاً:

_ غداً في العاشرة صباحاً موعدنا في الشركة.

وأخذ يحثُّ خطاه نحو الباب الخارجيّ، تتبعه شيرين التي بدتْ حائرة من تصرفات ريم وعدائها الجليّ لعزامٍ، فلحقتْ بهما ماريا تتمتم بكلمات اعتذار عمّا بدر من ابنتها.

أمسكتْ شيرين بيدها قائلة:

_ لا بأس يا خالة لا بأس، لقد سررتُ بمعرفتكِ.

وما إن تواريا عن ناظريها حتى دلفتْ بيتها، وأغلقتْ الباب مستندة عليه بظهرها، ترنو إلى سقف الغرفة مع زفرات سريعة، بينما ريم تراقبها عن كثب، فهي تعلم مقدار ما سببته لها من ضيق وإحراج، لكنها التزمت الصمت حتى لا تزيد من كمدها أكثر.

-3-

صعدَ عزام إلى سيارته حانقاً، وجلستْ شيرين بجانبه تحاول تهدئته ومواساته:

_ اهدأ يا حبيبي لا داعي لتعكرَ صفو نفسكَ من أجل فتاة قد تكون في معاناة لا يعلمها إلا الله، ولا تستطيع التحكم بانعكاس ألمها الظاهر في ردود أفعالها.

ضربَ بقبضته المنكمشة مقود السيارة، وصرّ على أسنانه قائلاً:

_ من أيّ طينةٍ عُجنتْ تلك المتعجرفة؟

لم يكن ينقصها إلّا طردنا، لم يكن من الصواب المجيء إلى هنا.

داعبتْ شيرين بأناملها خصلات شعره قائلة:

_ لنعملْ ما تمليه علينا ضمائرنا من واجبات، ونترك التفكير بردود أفعال الآخرين.

والتصقتْ به تلثمه على خدهِ بوجدٍ وحنانٍ، متنهدة بسعادة لأنها هي وحدها من تمتلك المفاتيح السريّة لكلّ باب مغلقٍ في قلبه.

استدار إليها واحتضنها هامساً وقد تبدّلتْ سحنته إلى فرحٍ مشعّ :

_(تعالي قليلاً لأحبكِ كثيراً، ومدّي كلتا يديكِ حاملةً قلبي مهدهدةً له لينام، فليس بوسع هذا الكون أجمعه جعْله ينام مستسلماً لأحلامه إلّا يديكِ النابضتين حناناً).

لمعتْ عينا شيرين فرحاً من وقعِ غزله الساحر، فتابعَ:

_ (في عينيكِ شعاعٌ لم أتمكن من تفسيره، فهل سرقا ضوء القمر أم أن القمر اقتبسَ ضياؤه منهما؟ أم أخذتِ كلّ بريق مآقي العشاق؟ أحبكِ كثيراً يا ملاكي).

قضى الحبيبان كل المسافة وهما يتناجيان بكلام العشق المعسول حتى وصلا إلى أمام بيت شيرين ولم يشعرا بالوقت.

نزلتْ شيرين تتخضّلُ وجنتاها بحمرة الحب وودعته بقبلة حارّة لتدلف منزلها، بينما عادَ عزام إلى الشركة.

أمضتْ ماريا معظم الوقت تتجاهل التحدث إلى ريم، وتحاول ألّا يقعَ نظرها عليها، حتى ضاقتْ ريم ذرعاً من معاملة أمها لها، وقررتْ أن تختلقَ حديثاً لتكسرَ حاجزَ الجفاء بينهما:

_ أمي أنا جائعة، ماذا أعدّتْ لنا أجمل أمّ في الدنيا؟

ردّتْ ماريا بفتور:

_ بإمكانكِ الدخول إلى المطبخ وإعداد ما تشائين لتأكلي.

أردفتْ ريم بصوتٍ يغالب غصةَ بكاء:

_ هل يستحق السيّد عزام أن تُخاصمي وحيدتكِ لأجله؟

أجابتْ ماريا بعبوس:

_ ليس موقفي منكِ من أجله، إنما صدمةٌ نفسيةٌ مباغتةٌ من تصرفاتكِ الطائشة والغير مسؤولة، وأتساءلُ إنْ كانت تربيتي لكِ قد باءتْ حقاً

بالفشل، منذ متى نُهينُ الضيف في بيتنا يا ريم؟ أهذا ما علمناكِ إياه أنا ووالدكِ؟

قالتْ ريم بانكسار وهي تجد صعوبةً في الكلام جرّاء الغصة الواقفة في حلقها:

_ آسفة يا أمي، لم أتقصد إهانته، لكن هذا الشخص الذي تسبّبَ في طردي من عملي، فقد ذهبتُ صباحاً إلى صاحب شركة النقليات أستجديه العودة لمزاولة عملي، لكنه أراد ذلك الوغد مساومتي على شرفي لقاء عودتي، إنّ معشر الأغنياء يتخذون من المال وسيلة لابتزاز الفتيات الفقيرات أمثالي، واستغلال عسرهنّ وضيق حالهنّ، لقد اسودّتْ الدنيا في وجهي وأظلمتْ أنوار النهار عندما جأر لي بفمه المقزز الكريه وعيناه تلتهمني التهاماً:

_ ستعودين إلى العمل هذا مؤكد، ولكن قبل ذلك سنقضي وقتاً رائعاً معاً في شقتي ما رأيكِ أيتها الجميلة؟

فما كان مني إلا أن لطمته بيدي على وجهه القذر، وبصقتُ بين عينيه وأنا أشعر بالغثيان منه، وصرختُ به بكل قهري:

_ أتمنى لكَ الموت أيها القميء، وحتى إذا متَّ ودفنوكَ فلسوف تلفظُ الأرضُ بقاياكَ كقيء مقزز.

وثبتْ ريم واقفةً وقد تغيرتْ معالمها، وهي تستعيد بذهنها ما حدث واستشاطتْ غضباً متابعةً:

_ وبعد كلّ هذا عدتُ لأرى نموذجاً آخرَ لصاحب الشركة هنا في بيتنا، إنهم جميعاً انتهازيون، لا همَّ لهم إلّا غرائزهم الحيوانية، ونحن أبناء الطبقة السفلى لسنا سوى عبيدٍ لتلبية رغباتهم.

اقتربتْ ماريا من ابنتها الحانقة وضمتها بقوةٍ إلى صدرها قائلة:

_ لستِ فقيرة يا ريم، ونحن لا نرضى بعملكِ، فوالدكِ يعمل ليلَ نهار كي لا يجعلكِ تحتاجين شيئاً، أنتِ بإرادتكِ تدسّين نفسكِ في هذه المواقف، لأن الفتاة الجميلة والصغيرة المتلهفة إلى العملِ ما هي إلّا لقمةً سائغةً لدى ضعيفي النفوس، لكن أؤكد لكِ يا صغيرتي أنّ السيد عزام مختلف كثيراً عن غيره من الوضيعين الذين يساومون على الكرامة والشرف، إنّه شاب ذو خلقٍ كريم، فنظرتي لا تخطئ في الناس.

ضمتها ماريا بين ذراعيها وهمستْ لها:

_ لا تحزني يا صغيرتي، أنا ووالدكِ نعمل لأجلكِ، وليس مطلوب منكِ إلا إكمال دراستكِ وتعليمك الجامعي، وبعدها سيتم تعيينكِ معلمةً للغة الانكليزية، وستتسعُ أمامكِ الآفاق ولن تكوني مضطرة لإقحام نفسكِ في أيّ موقف رديء.

بكتْ ريم ما شاء لها أن تبكي في حضنِ أمها، وفي تلك الأثناء دخلَ عادلٌ منهكاً ليرى زوجته وابنته متعانقتين، فراعه منظرهما ووقفَ مندهشاً ليقول بذعر:

_ ماريا عزيزتي ما الخطب؟

تركتْ ماريا ابنتها واتجهتْ مسرعةً صوبه تمسح دموعها بأطراف أصابعها، وقد أخبرته بشكل مختصرٍ كيف تعرضتْ لحادث بسيط وتم على إثره طردها من عملها، لكنّ عادلاً طار صوابه وركض باتجاه ابنته مذعوراً ليتفحّصها إنْ أُصيبتْ بأذىً وهو يهمهم حزناً:

_ ألم أقل لكِ يا صغيرتي بأنني لا أريدكِ أن تعملي أبداً، أنا سأوفر لكِ كل ما تحتاجينه فقط أشيري بيديكِ.

أعقبتْ ماريا وقد رأتْ دموعه تملأ عينيه:

_ إنها بخير يا عزيزي لا تخفْ.

تنفسَ عادلٌ براحةٍ بعد أن اطمأنَ على سلامتها، وقال مداعباً:

_ تعالي وانظري ماذا أحضرَ لكِ والدكِ يا ريم.

وفتحَ ذراعيه لها فضمته بشوق عارمٍ وقبلته كثيراً محاولة بعدها اختطاف الأكياس فأبعدهم عنها ممازحاً:

_ كل كيسٍ تأخذينه أريد قبلةً طويلةً لقاءها هيّا.

وقدم لها بيدٍ كيساً وأدار لها خده فغمرته بالقبلات، إنّ نقطة ضعف ريم هي خوفها على والدها، ومستعدة لفعل أيّ شيء كي ينعم بالراحة وهذا سبب إصرارها على العمل.

في المساء تناقشتْ ماريا مع ابنتها بخصوص العمل في شركة عزام، وكان قرار ريم الأخير بأنها ستذهب وتعمل فإنْ رأتْ ما يريبها ستتركُ على الفور العمل ولن تعود للتفكير بأيّ عمل آخر.

-4-

دخل أحمد توفيق إلى منزله حاملاً بيديه علبةً كبيرةً، بينما زوجته علياء تجلس مع ابنتها عفراء على الشرفة ترتشفان القهوة، وتتجاذبان أطراف الحديث، فتعالى صوت أحمد صائحاً:

_ علياء ... علياء

قفزتْ علياء وخلفها عفراء إلى الصالة، وقد فوجئتا به يحمل هذه العلبة الكبيرة التي يختفي رأسه وراءها، فركضتا لتنزلاها عنه، وتسألاه عما تحتويه بداخلها.

قالَ بضحكةٍ واسعةٍ تنمّ عن فرح:

_ إنّه أكبر قالب كيك لحبيبتي الجميلة، فاليوم ذكرى زواجنا يا أغلى نعمةٍ وهبها لي الله.

شهقتْ علياء وقد تذكرتْ ذاك اليوم، فعانقته بفرحٍ مما جعل عفراء تتنحنح مازحةً:

_ نحن هنا احم ... احم

ضحكَ والدها وقال:

وليكنْ ، فأنا عاشقٌ حتى الثمالة شئتم أم أبيتم، إنها أميرتي وفاتنةُ عمري، وليغرب الحاسدون من هنا.

غرقتْ عفراء بالضحكِ وهي تقول وسط قهقهاتها:

_ لا يا أبي لن أغربَ من هنا، سأبقى لأتناول الكيك، لا يُعقل أن تأكلاه لوحدكما.

صاح أحمد ولا تزال الابتسامة منقوشة على ربوع وجهه الأسمر الجذاب:

_ ومن قال سنأكله لوحدنا؟ لقد دعوتُ كلّ الأقارب والأصدقاء لحفلة المساء، فقد جهزتُ كل شيء وأوصيتُ على طعام جاهز سيصل أول المساء فاستعدا.

اقتربتْ علياء منه وطبعتْ قبلةً من شفتيها المكتنزتين على وجنته هامسة:

_ أحبكَ يا أحمد، فأنتَ مبعث سعادتي، وبوجودك أعتلي عروش الممالك، أحبكَ وبين جفنيكَ مخطوط ميلادُ حياتي.

لفَّ أحمد ذراعيه حول خصرها مدانياً جسدها من جسده، وقال وقد اغرورقتْ عيناهُ دمعاً نقياً :

_ لا شيء يتوجني ملكاً إلا هاتين العينين الخضراوتين، فاقتربي مني أكثر لأتكوّنَ من جديد، وأدحر كل تمزقاتي وأعود لبعضي.

ألصقتْ خدّها بخدّه وتنهدتْ بعمق هامسة:

_ كم أحبّ حصاري هذا عندما تحدّني ذراعاكَ من كل الجهات، وكم أعشق حروف اسمي عندما تتقاسمها شفتاك، فعطركَ هوائي وصدركَ سريري ولحافي، وعيناكَ حارسان أمينان لنومي وأحلامي، فأنا امرأة

تنتشلُ من خيوط الشمس ألحاناً لعشقكَ، وأتعبدُ الله ليل نهار لأنكَ في حياتي.
لم يحتمل أحمد أكثر ما باحَ به قلبها من نجوى، فسحبها من يدها وسط قهقهات عفراء التي اعتادتْ ذلك الغزل الصريح من والديها، ودخل الزوجان إلى غرفتهما بكل أشواقهما.

***

كانت الحفلة رائعة ذلك المساء، وتركّز نظرُ الجميع على العاشقين أحمد وعلياء ليتعالى الهمسُ دهشةً من حبهما رغم مضيّ كل هذه السنوات.
لقد أمضيا ساعات في الرقص سوياً، وقد فغرتْ بعض الأفواه ذهولاً وانشداهاً، بينما عزام وشيرين منشغلان ببعضهما وبغزلهما الخاص، وكلما تصاعدتْ أبخرةُ اشتياقهما، ينسحبان من الازدحام لدقائقَ ويخرجان إلى الشرفة ليتعانقا ويطفئا قليلاً من لهيب الشوق الذي ينقله لهما أحمد وعلياء كعدوى لا براء منها، ومن ثم يعودا إلى أجواء الحفلة.
وقبل نهاية الحفلة فاجأ أحمد الحضور بإهداء زوجته لوحةً رخاميةً ضخمةً، وقد نُقشتْ صورة وجهها بتقاسيمه الرائعة، ورُصعتْ أطرافها بالأحجار الكريمة، وأمرَ الرجال الذين أحضروها بوضعها في صدر الصالة، بينما أحمد ممسكٌ بيد علياء المذهولة من مفاجآت زوجها المتتالية، ووقف يقول لضيوفه بصوت جهوري:

_ بمثل هذا اليوم وُلدتْ سعادتي فاسمحوا لي الآن بهذه المناسبة السعيدة أن أتلو عليكم قصيدتي التي كتبتها لمعشوقتي، وقد استغرقتُ في كتابتها شهراً، رغم أني لستُ بشاعرٍ، إلا أنني أشدو بلسانِ قلبي المتيّم بها، فأصيخوا السمع أرجوكم:

علياءُ ومَنْ غيركِ يسكنُ القلبَ علياء

بدونكِ ليس هناكَ لي مكانٌ للانتماء

لا حورٌ يزوره عصفور في تثاؤب صبحٍ أو يقظةِ قمرٍ وسط السماء

بدونكِ تسافرُ ملامحي مودعةً وجهي بقرفٍ واستياء

علياءُ يا علياءُ يا بُدعة الله على الأرض

يا حروبَ القوافي وفتوحات الزمن على أسوار قلاعكِ

ودهشةَ روحٍ تلبسني تذوبُ حنيناً لكِ في العلن والخفاء

مدينٌ لكِ بسعادةٍ أكبرَ من حجمِ هذا الوجود

مدينٌ لكِ بقمرين أضاءا ظلمات عمري عزام وعفراء

علياءُ يا علياء

لا شيء يعلو فوق حبكِ وكلّ ما خلا وجودكِ فناء بفناء

كانت كلماته تنتقل مع أثير الصالة الواسعة، فتدبُّ القشعريرة في أجساد الجميع، وختم قصيدته بعناق زوجته التي أدمعتْ عيناها فرحاً، فتعالى التصفيق الحار من الحضور الذين انقسموا ما بين مهنئ لهما، وبين حاسدٍ لهذا الحب الكبير.

-5-

استيقظتْ ريم باكراً، وقبل ذهابها قبّلتْ والدتها التي أعدّتْ لها بعض فطائر الجبن لتأكلها قبل خروجها.

استقلتْ سيارة أجرة وأعطتْ السائق عنوان شركة عزام، كانت مليئة بانفعالاتٍ جمّة، تتماوج وخيالات جامحة تتداخل على مسارح نفسها، فتزيدها خوفاً وحيرةً وقلقاً، وما إن وصلتْ إلى باب الشركة حتى انتابتها رغبةٌ شديدةٌ بالعودة إلى البيت، لقد كرهتْ عزام أو هكذا أرادتْ أن تُقنع نفسها، فكيف ستتحمل أن تكون معه في مكانٍ واحدٍ، وكيف ستجابهه بعد كل ما حدث بالأمس؟

وأخيراً تغلّبتْ على احتجاجاتها، وعزمتْ على المضي قدماً في خطوتها، وستُكمل هذه التجربة رغم يقينها بأنه ليس أفضل من غيره.

طلبتْ من السكرتيرة مقابلته، وجلستْ على كرسي في ردهة الانتظار، تفركُ يديها ببعضهما، ولم يطلْ غياب الفتاة التي أشارتْ إليها بالدخول فور خروجها من مكتب عزام.

مشتْ بخطىً واهيةً لكن صوتاً داخلياً صرخ بها أن تكفّ عن هذا التوتر، وأخذتْ تُقنع عقلها بأنه شخصٌ لا قيمة له عندها، وهو مَنْ ألحَّ عليها لتعمل هنا.

استقبلها عزام بوجهٍ ناشفٍ يخلو من أيّ تعبير، وكأنّ مجيئها متوقعٌ.

اقتعدتْ كرسياً قبالته حيثُ أشار لها، وبدأ كلامه بجديّة:

_ هل لديكِ مهارات وخبرات في جانبٍ معينٍ؟

احتارتْ ريم بما ستجيبه فهي لم تفهم مقصده، فقال موضحاً لها:

_ أقصدُ إنْ كان لديكِ إلمام بالسكرتارية أو المحاسبة أو الحاسوب؟

أجابتْ بصوتٍ خفيض يملأه الاستحياء:

_ أنا أُجيدُ كل ما ذكرته ولكَ الخيار أنت في ذلك.

رفع حاجبيه بإعجابٍ وقال:

_ رائعٌ، بإمكانكِ مساعدتي كثيراً إذا كنتِ بهذه الشمولية، إذن سأعينكِ في قسم الحاسوب، والآن أريد معرفة الوقت المناسب لكِ، فقد ذكرتِ لي سابقاً أنكِ طالبة جامعية، وقد لا يتوفر لديكِ الوقتُ صباحاً،، فهل من اعتراض أن يكون عملكِ بعد الظهر؟

داخل ريم شعوراً بالراحة وخصوصاً أنّه تخلّى عن لهجته السابقة معها، فقالتْ بسرعة:

_ ليس لديّ أي اعتراض ، أستطيع العمل بعد الظهر.

_ إذن لتباشري عملكِ ابتداءً من يوم غدٍ من الثانية وحتى السابعة مساءً، والشركة مسئولة عن إيصالكِ إلى منزلكِ مساءً.

هزتْ رأسها موافقة. ورمقته بنظرةِ امتنانٍ قائلة له:

_ شكراً لك سيد عزام، والآن أستأذنكَ بالذهاب إلى الجامعة، وسأكون هنا غداً في الثانية.

ابتسمَ لها بلطفٍ متسائلاً:

_ ألا تريدين معرفة الأجر الذي ستتقاضينه هنا في الشركة؟
طأطأتْ رأسها هامسة بخجل:
_ نعم أريد.
قال عزام ضاحكاً حين لاحظ خجلها الذي أضفى عليها فتنة ساحرةً:
_ لم أعرفكِ وأنتِ تتوشحين برداء الخجل.
وتعالتْ ضحكته التي استفزتها، فاحمرّتْ غضباً ممزوجاً بشوائب الخجل الماضية مما جعله يتوقف عن الضحك معتذراً منها:
_ أنا أمزح معكِ يا ريم، أما بالنسبة للأجر فهو خمسون ألف ليرة سورية وما كاد يتلفظ بالمبلغ حتى فغرتْ فاهها بدهشة وقالتْ:
_ ماذا قلت؟
_ نعم خمسون ألفاً ولمَ تفاجأتِ؟ فأنا لا أعطيكِ أجراً مختلفاً عن باقي الموظفين والموظفات هنا، إنّ أعمالنا كثيرة وتتطلب جهوداً مضاعفةً لأنها ليست شركة محلية فحسب، فنحن نُصدّر إلى الخارج، وأكثر تعاملنا مع الدول الأخرى، وكلّ ما أرجوه أن تكوني جزءاً فاعلاً في شركتنا.
ووقفَ فجأةً يمدّ يده مصافحاً ومُعلناً انتهاء المقابلة لكثرة ما جاءته برقيات واتصالات.
_ سررتُ بمعرفتكِ آنسة ريم، وبلّغي سلامي لوالدتكِ.

نظرتْ إليه متأملة ذلك الوجه الذي أحبته كثيراً وكرهته كثيراً بآن واحد، فهي لا تعرف تحديد مشاعرها تجاهه، لأنّه لغزٌ كبيرٌ لقلبها الغض.

ابتسمتْ له بلطف قائلة:

_ أرجو أن تسامحني لأنني كنتُ فظة معك في بيتنا، وبلّغ سلامي واعتذاري أيضاً لخطيبتكَ الآنسة شيرين.

قال لها بودّ:

_ لا تشغلي بالكِ يا ريم وشكراً لحضوركِ.

مشتْ تجرُّ قدميها جرّاً، وقد أحسّتْ بثقل كبير بهما، وبأنّ تلالاً من الغمّ قد أُزيلتْ عن صدرها، وقضتْ كل وقتها في الجامعة تفكرُ به وتحدث نفسها بشأنه، إنّه يبدو مختلفاً عن الأنماط الدنيئة الذين صادفتهم، وسمعتْ عنهم، إنّه ليس بحاجة لاستغلالها أو استغلال غيرها، فخطيبته جميلةٌ بما يكفي وذات خلقٍ ورقيّ، لقد أدركتْ ريم بأنّها كانت مخطئة بحقه، وهو ليس كما ظنته.

كان اليوم الذي بدأتْ فيه العمل في شركة عزام هو بداية طريقها في المجهول القادم الذي يخبئ لها الكثير من المفاجآت والصدمات.

لقد أسعدها العمل الجديد رغم الانشغال الدائم، فالأعمال دائماً مكدسة في كل يومٍ ولابدّ من إنجازها كلها دونما تأجيل، وما من شيء يعكرُ صفو بالها إلا بعض الفتيات الناقمات عليها دون سبب، فلا ينقطعنَ عن السخرية منها كلما أُتيحتْ لهنَّ الفرصة أثناء الدوام، قد يكون منبع هذه

الكلمات اللاذعة الحسدُ الطافح من بين جفونهنَّ، لأنها الأجمل والأصغر بين موظفات الشركة على الإطلاق، وقررتْ ريم رغم طبعها الانفعالي الناريّ ألّا تصيخ لهنّ سمعها، وتكتفي بالعمل صامتة، متجاهلة ما يتفوهنَ به من كلمات جارحة، وخاصةً فيما يخصّ الثياب، فهي بنظرهم من الطراز القديم لأنها لا تلبسُ من الثياب ما يكشف صدرها وذراعيها وساقيها، فأمّها ربّتها هكذا على الحشمة وسترِ مفاتن الجسد التي تستفزّ غرائز الشبان.

لكن ما صدمَ ريم هو وجود مثل هؤلاء الناس الذين يبحثون باستمرار عن فرصةٍ للسخرية من شخصٍ، وجرح مشاعره بلا أيّ سبب، وفي أحيان كثيرة يتراهنون مع بعضهم البعض مَنْ القادر على الإذلال أكثر وكسر الخواطر أعمق، فيرمون كلماتٍ كسوطٍ ملتهبٍ يجلدون به من لا حيلة له.

وكان لهؤلاء الفتيات تلك الطبائع ذاتها، فقد جعلنّها هزأةً لمن يهزؤون، وسخريةً لمن يسخرون.

ولم تشأ ريم خوض أيّة مشكلة معهنّ، حتى لاتصل إلى مسامع عزام فهو حتماً سيكون ضدها، وسيتوقع أنّها تفتعل المشاكل فقد بات يعرف عنادها وتصرفاتها الطفولية، لذلك التزمتْ صمتاً يخفي خلفه أوجاعاً لا تُحصى، وكثيراً ما بكتْ في سرّها، وتذكرتْ كلمات أبيها عندما كان يقول "أيما امرئ ينال الظلم وهو مستضعف فلا مُنجي له إلا رفع قضيته إلى

قاضي القضاة بقوله: (حسبي الله ونعم الوكيل) وما من دعاء يفتق حجب السماء ويصل إلى الخالق كهذا الدعاء" فكانت ريم تهمس ودمعها يحرق وجنتيها "كفى بالله حسيباً، حسبي الله ونعم الوكيل"، وكأنّ لهذه الجملة سحراً مبهراً –كما قال والدها– يفتقُ حجب السماء فيرتدّ جوابها أرضاً على الفور، لقد أدهشَ ريم ما حدث في أحد الأيام بينما هي منهمكة بإدخال بيانات إلى الحاسوب، وقفتْ الفتيات خلفها، وبدأنَ أحاديثهن المعتادة، فقالتْ إحداهنّ وتُدعى سحر للأخرى بعينين وقحتين:

_ هلا قلتِ يا نعيمة من أيّ طرازٍ حذاؤها؟

ردّتْ نعيمة – وهي أكثرهنّ قسوة– وضحكتها ترنّ أرجاء الغرفة:

_ أعتقد يا سحر أنّه من زمن سلطان باشا الأطرش، قد يكون اشتراه حينها على عجلٍ أثناء انشغاله بإعداد عتاد الثورة لإحدى الفتيات البائسات الحافيات.

فأنبتها الثالثة وتُدعى انتصار، وكانت على قدرٍ كبيرٍ من القبح بسخرية مقهقهة:

_ ما هذا الهراء يا نعيمة، ففي زمن المجاهد سلطان باشا لم يكن موجود مثل هذه الخرق البالية، قد يكون حذاؤها من زمن عنترة العبسي.

وغرقتْ الفتيات الثلاثة في ضحكِ ماجنٍ لم يقطعه إلا صوتٌ جهوريٌّ مخيفٌ كالصاعقة جاء من خلفهم، فالتفتنَ جميعاً بما فيهن ريم ليجدنَ عزاماً عاصفاً محتقناً والشرر يتطاير من عينيه ، صرخ بهنّ:

_ ما الذي أسمعه هنا؟

هل لكِ يا ست سحر أن تعطيني تفسيراً واضحاً لما سمعته الآن؟

أخذتْ سحر ترتجف كورقة في مهب الريح، ولسانها يتراقص خوفاً قائلة بعد جهد:

_ إننا نمزح يا سيد عزام ليس إلا.

فعاد يجأر من جديد:

_ تمزحنَ مع مَنْ؟

لم تجبْ الفتيات الثلاثة ووقفن كالتماثيل بلا حراك.

فعاود كلامه:

_ أريد الآن تفسيراً لما سمعته، وإلا ستكون العاقبة وخيمة.

قالتْ نعيمة، وقد ابتلعتْ ريقها بصعوبة بالغة:

_ إننا نمزح مع بعضنا البعض يا سيدي.

تجاهل عزام إجابتها، وتقدّم من ريم التي نهضتْ وعيناها ممتلئة بالدموع، فأطرقتْ أرضاً عندما أصبح قريباً منها، فسألها بصوت هادئ:

_ هل من أحد يضايقكِ هنا يا ريم؟

غصّتْ ريم بدمعها وصمتتْ، فقالتْ له سحر لتتفادى إجابة ريم التي توقعتْ أنها لن تكون لصالحها:

_ أعوذ بالله من أن نضايقها يا سيدي، صدّقني...

رمقها عزام بغضبٍ، فتوقفتْ عن الكلام، ولم يكتفِ بل نهرها قائلاً:

_ اخرسي أنتِ لم أسألكِ كي تجيبي، أنا أتكلم مع ريم.
وعاد بنظره إلى ريم قائلاً بلطفٍ:
_ لا تخافي يا ريم، وقولي لي حالاً إنْ كنَّ يتكلمنَ عنكِ؟
هزّتْ ريم رأسها علامة الإيجاب وهمستْ بصوتٍ مرتجف:
_ لم أكنْ أريد إزعاجكَ يا سيد عزام، ولكنّهنَ لا ينقطعنّ يوماً عن السخرية الجارحة والإهانة اللاسعة لي، وكتمتُ آلامي منهنّ خشيةَ ألّا تصدقني إنْ شكوتُ إليكَ.
ضربَ عزام بقبضته الطاولة إلى يساره، وقالَ لهنّ وقد استدارَ شطرهُنّ:
_ هل وصلتْ سخافتكنّ إلى درجة السخرية من فتاةٍ ملتزمةٍ وبريئةٍ مثلها؟ وإني قسماً بالله أراها أكثر رتابةً وأناقةً منكنّ جميعاً، وأرقى من كل أترابها هنا في الشركة وخارج الشركة.
وطفق يضربُ كفاً بكفٍ متابعاً:
_ والأجمل من كل هذا جمالها ونقاؤها الداخلي، فما نفع ملابسكنّ الباهظة الثمن وأنتم بهذه الأخلاق الدنيئة، والوجوه التي يتعذر النظر إليها؟ تباً لكنّ ولعقولكنّ الفارغة.
وأخذ يتقدّم منهنّ ثائراً مستشيطاً غضباً، وقد نشف الدم في عروقهنّ مشيراً بإصبعه محذراً ومهدداً:

_ إنّها المرة الأخيرة التي أسمح لأيّ شخصٍ أن يتعدى حدوده في هذه الشركة، ويقوم بإزعاجها، فهي قريبتي ويحقّ لها أن تطردكنّ من العمل، فهل كلامي واضحٌ؟

نظرتْ ريمٌ بدهشةٍ بالغة، لكنها سارعتْ بإخفاء دهشتها وأطرقتْ أرضاً، بينما ندتْ شهقة من إحدى الفتيات، وجحظتْ عيونهنّ، فتابع عزام متجاهلاً:

_ نعم كما سمعتم إنها قريبتي، وكلّ من يضايقها ستطرده من العمل، وأُعذر مَنْ أُنذر، الآن انصرفنّ إلى أعمالكنّ هيّا..

كان درساً قاسياً لهنّ، فقد انسحبنَ من الغرفة متعثراتٍ بخطواتهنّ يلفهنّ الخوف والدهشة لما سمعوه، وبدأن الثرثرة بصوتٍ خافتٍ خارجاً فيما بينهنّ:

_ يا للمصيبة التي حلّتْ علينا! إنها قريبته، ولكن كيف لها أن تكون كذلك وهي تبدو فتاة فقيرة وبسيطة؟

_ قد تكون من الفتيات اللواتي لا مزاج لهن في الموضة.

_ إننا سندمرُ أنفسنا إذا غضب السيد عزام مرة أخرى، فما علينا من الآن وصاعداً إلا استجداؤها وطلب رضاها.

بعد خروج الفتيات أحسّتْ ريم بالكثير من الحرج جرّاء الكلام الساخر الذي سمعه عزام بشأنها، لكنه بدّد حرجها عندما قال ممازحاً:

_ لم أرَ عنفوانكِ، وقوتكِ، وصلابةَ زنديكِ أمام الفتيات، أو هل يُعقل أنكِ لا تستقوين إلا عليّ أنا؟

وغمزها بعينه غمزةً ذاب قلبها بفعلها بين ضلوعها، لقد أحسّتْ ريم حينها برغبة في الضحك لكنها تمالكتْ نفسها وقالتْ:

_ شكراً لكَ سيد عزام ولن أنسى صنيعكَ هذا ما حييتْ.

قال لها وقد تأثر لذكرى تموّج الدمع في عينيها:

_ ريم أنا لا أُبالغ و أجامل عندما أقول أني أعتبركِ قريبتي، وسأغضبُ منكِ حقاً إنْ لم تخبريني بأيّ شيء يزعجكِ، أفهمتِ؟

هزتْ رأسها موافقةً وهمستْ:

_ أنا ممتنة لك كثيراً.

فصاحَ ضاحكاً:

_ يا للأنوثة المفاجئة التي حلّتْ عليك، لا داعي للشكر آنستي.

وخرج من المكتب وهي تشيّعه بابتسامةٍ تحملُ كل معاني المحبة والشكر.

لقد أعلنَ قلبُ ريم انبثاق الهوى وقرعتْ طبول الحب فيه، إنها باللاشعور تفكرُ بعزام وبكلماته وجماله الذي لا يُوصف، لكنها لا تلبث أنْ تنتفض غاضبةً من مشاعرها غضباً يجعلها تبكي رافضة الاستسلام، والانصياع لجبروت قلبها الذي لطخها بعشقه، وهو ليس لها وليستْ من مستواه، فهي لم تستطع أنْ تُحصنَ نفسها جيداً من شرّ الحب واحتياله ومكره في

الاستيلاء والسطوة والاحتلال بحيث لا يحول دونه حائلٌ، ولا بمقدور كائن من كان انتزاعه من كلّ خليّة يدلفها خلسةً وكل مسامة يستوطنها، فغدتْ تتحاشى اللقاء معه، أو النظر إليه خوفاً من أن يفضحها نظرُها، ويعطيه دلالات واضحةً عمّا يتأجج في سويدائها من فوضى عاث بها الحب فساداً.

لمْ تعش أصعب من هذه المرحلة حيث استبدّ بها الاكتئاب والوجوم، وأصبح ليلها ملاذاً آمناً لأحلامها المستحيلة.

إنّ الأحلامَ نعمةٌ عظيمةٌ من نعم الله التي وهبها للإنسان للتخفيف قليلاً من أثقال الواقع، فهي كشجرةٍ وارفةِ الظلال، يلوذ المرءُ بفيئها بعضاً من الوقت ليتقي ما أحرقه من قيظ يقظته الحارق، وكلّ منّا له أحلامه البعيدة عن أنظار الناس وفضولهم وألسنتهم، نعيش بعوالمها كما يحلو لنا دون خوف من المترقبين المتربصين.

وأحلام ريم تحوم وتطوف ليتصدرها عزام، فهو أمير أحلامها وأحلام الكثيرات من الفتيات، وتجرّها تلك الأحلام جرّاً فتؤلف بين قلبها وقلبه، وتتجرّع من يديه كؤوس الحب الطافحة بالأماني المزركشة، فتحلمُ بأنه ملكها وحدها ورفيق أوقاتها، حتى باتت في يقظتها تتقصّد رؤيته عن بعدٍ عندما يدلف مكتبه أو يخرج منه، فتتأمل ملابسه وتسريحة شعره، لتستجمع صورته في مخيلتها وتفردها في عوالم ليلها، فحيناً ترى نفسها وهي تختار له ذاك القميص أو ربطة العنقِ، وحيناً توهم نفسها بأنها هي

التي كوتْ له بنطاله وودّعته إلى الباب بقبلةٍ، حتى مجرد التفكير بتقبيله يجعلها ترتعدُ وترتعش وهي وسط مملكة أحلامها الخاصة.
انقضتْ شهور عديدة وهي تعمل في شركة عزام، وقد تحسنتْ أوضاعها المالية، وبدأتْ تهتمّ بمظهرها، وتبتاع الثياب التي حلمتْ بشرائها، ولكن دون تكلّف ومبالغة وحتى أنها صارتْ تشارك في مصاريف البيتْ.
إلّا أنّ هذا كلّه لم يثنِ أباها عن العمل ليلاً، مما زاد في حيرتها وقلقها، وقررتْ أنْ تسأل أمها قبل أن تغادر البيت صباحاً:
_ أمي ألم يحنْ الوقت ليرتاح أبي ويكتفي بالعمل نهاراً؟
ظلتْ ماريا صامتة وراء ماكينة الخياطة، فاستأنفتْ كلامها:
_ أليس من الواجب والعدل أن ينام أبي في البيت؟
وإنْ كان هذا غير واجب أوليس له حق بذلك؟
نحنُ لم نعد بحاجة لعمله الليلي الشّاق، فهو في سنٍ لا يسمحُ له بهذا المقدار من التعب، ألا تُشفقين عليه يا أمي؟
أوقفتْ ماريا العمل في الحياكة وقالتْ متذمرة:
_ لم لا تسألينه هو؟ أنا لا أعرف شيئاً.
صاحتْ ريم بدهشة:
_ ألستِ زوجته؟ ألا يعنيكِ أمرهُ؟
قالتْ ماريا وقد احتقنتْ من تأثير كلماتها:

_ بلى يعنيني أمره كثيراً، فليس لنا في هذه الدنيا غيره، لكن أباكِ لا يفعل إلا ما يمليه عليه عقله، فهو يحب العمل ولا شيء بمقدوره تغيير قراراته.

قالتْ ريم محافظة على قسماتها المذهولة:

_ عجباً يا أمي! أنا لا أُصدقُ ما يحدث، لقد تجاوزتُ العشرين من عمري، ولم أره يوماً ينام في فراشكِ ، لقد أتعبني الغموض والأسئلة المتلاطمة التي لا أجدُ لها جواباً شافياً يخمدُ فورانها، يكاد رأسي ينفجرُ، إنّه كالآلة التي لا تكلّ ولا تملّ عن العمل، يفني عمره وصحته لراحتنا، يؤمّنُ لنا كل ما نحتاجه لكن هذا لا يكفي، أنا وحيدته، وبحاجةٍ لحضنه أكثر من أيّ شيء آخر، وأنتِ زوجته كيف تقبلين أن ينامَ بعيداً عنك؟

تنهدتْ ماريا بعمق، وأغلقتْ عينيها لتقول بمرارة:

_ كفى يا ريم أرجوكِ.

أصيبتْ ريم بخيبة جديدة، وقررتْ ألا تغوص في هذا الحديث العقيم، فنهضتْ متجهة إلى الباب الخارجي بقلبٍ محزونٍ، ونفس مكلومةٍ لأنها تجهل الكثير عن عائلتها، وخرجتْ بدموع تلسعُ بسياطها وجنتيها، وطال تأثير حزنها حتى حلول الليل فغفتْ يومها قبل أن تدلف مملكة أحلامها الناصعة البياض.

-6-

أحمد وعلياء وقصة الغرام التي لا تنتهي عند أيّ فصل من فصول العمر فمنذ عودته إلى البيت تاركاً معظم الأعمال على ولده عزام في الشركة يسجنُ أميرته داخل الغرفة الخاصة بهما، والتي لا يخلو بها جدار من صورهما، تلك الغرفة اختمرتْ على جنون عشقه وكلامه المعسول، وأقصى سعادته عندما ترتدي علياء كل يومٍ فستاناً بلونٍ مختلف فتتبدّى روعة الربيع بألوانه على ثنايا جسدها، وتشعّ شمسه التي تضيء عمره.

فهو عاشقٌ مخمورٌ كل الوقت، متشبثٌ بمراهقته، وهي بدورها تبدو وكأنها اقتنصتْ كل أنواع السعادة، تعطيه كل اهتمامها وعواطفها، فليس هناك أسعد من امرأة تقترن برجل يوليها مثل هذا الاهتمام والحب الذي لا تغيّره السنين، ولا تشيخه الأيام، أو تبدّله المشاغل اليومية، أو يستبد به الملل من العشرة الطويلة والاعتياد، فهي ملكته التي يتفنن بتقديم فروض الطاعة والولاء في معابدها، وممنوع عنها الشرود فإنْ همّتْ بذلك طارَ بها إلى المتنزهات والمطاعم، وكلما أشرق صبح يومٍ جديد يفاجئها بهدية أو قصيدة يقضي ساعات وساعات ينسج حروفها من نياط قلبه، لقد نالتْ معه سعادة نساء الأرض قاطبةً حتى لتكاد تتجشأ من فرط هنائها.

وذات يوم دخلَ عزام إلى المنزل مدندناً بمطلع أغنيةٍ، وقبل صعوده السلالم التفتَ إلى الشرفة فلمح والده ممسكاً بيدي علياء يقبلها كما اعتاد دوماً أن يفعل، لكنّ صيحة عزام أجفلتهما:

_ أبي ألمْ تتعبْ من تقبيل أمي بعد؟

رمقه أحمد عابساً بهزلٍ، وقد احمرّتْ علياء خجلاً زادها فتنة وسحراً، لكن أحمد أمسكَ بكتفها ودانَاها طابعاً قبلةً على خدها قبل أن يردّ على ولده:

_ هل أعتبرُ كلامكَ غيرةً وحسداً يا ولد؟ إنها أغلى ما أملك في الحياة.

اقتربَ عزام منهما وعبس بطريقة مازحة قائلاً:

_ أتكون أغلى مني يا أبي؟

قهقه أحمد صائحاً:

_ هل عندكَ شكّ أيها المتعجرف؟ فلولاها لما كنتَ موجوداً، انظرْ إلى نفسكَ في المرآة جيداً واحمدْ الله على ما وهبتنا إياه تلك الفاتنة.

غرقَ عزام في ضحكه مجدداً، وعاد ليصعدَ السلالم متابعاً:

_ سأتركُكَ تتابع حلقات غرامك يا أبي.

لكن أحمد لحق به منادياً، فتوقف عزام مستديراً نحوه:

_ متى ستحددان موعد زفافكما أنتَ وشيرين؟

ابتسم عزام وهو يرمق والدته التي توقفتْ وراء زوجها وقال:

_ لم نحدد بعد الموعد يا أبي، لمَ العجلة؟

_ و ما المانع يا ولدي؟ لا ينقصكَ شيء، أنا وأمك نريد أن نفرح بكَ، ونرى أولادك يملؤون هذا البيت صراخاً وضجيجاً.

ضحكَ عزام وردّ بسخرية:

_ لا أُصدق ما تقوله، فهل لديكَ وقتٌ لتلهو مع أطفالي وتنشغل عن غرامك الأزلي مع فاتنتكَ؟

عبستْ علياء بخجلٍ فلكمه أحمد ممازحاً:

_ لا تخف عليّ، فأنا لا أفوّتُ أيّ فرصة غرامية، لكن هذا لا يمنع أن نفرحَ بك، ماذا قلت؟

_ غداً سأتكلم مع شيرين في الموضوع ونحدد موعد الزفاف، هل من أوامر أخرى سيد أحمد توفيق؟

_ ولم ستنتظر إلى الغد؟ كلمها اليوم، وخير البرّ عاجله.

_ حاضر يا أبي سأتصل بها اليوم.

***

كانتْ فرحةُ شيرين لا تُوصف عندما طلبَ منها عزام تحديد موعد الزفاف، وقالتْ له بصوتٍ يهتزّ فرحاً:

_ أنا جاهزة يا حبيبي لأكون معكَ متى شئتَ.

_ ما رأيكِ أن يكون زفافنا في بداية الشهر؟ لكن هل نستطيع تجهيز كل شيء في مدة أسبوعين؟

ردّتْ شيرين بسرعة وقد زاد خفقُ فؤادها:

_ لِمَ لا يا حبيبي، فكل شيء جاهز.

قاطعها عزام ممازحاً:

_ لم أكنْ أدركُ مدى سحري وجمالي لأحظى بحبيبةٍ تستميتُ شوقاً وولهاً للزواج بي.

ردّت عليه شيرين معاتبة بدلال:

_ أتقصدُ بأنك تفوقني جمالاً وسحراً؟ فإنْ كنتَ تبغي التأني فلا اعتراض على مشيئتكَ.

أردف عزام مسرعاً بصوتٍ يخالطه الضحك:

_ لا يا حبيبتي لن أتأنى، فأنتِ ستّ النساء كلهم، وإني مستعجل للزواج منكِ، أحبكِ.

_ وأنا أحبكَ وأعشقكَ.

***

جاء يوم الأحد أكثر الأيامِ ازدحاماً في العمل، وقد بدتْ ريم متوترة على غير عادتها، تشعرُ بانقباض في جوف صدرها، وشيء من الاختناق قد يكون من تأثير مساء الأمس حين طلبتْ من والدها أن يتركَ العمل الليلي، واستعطفته كثيراً، لكن عادلاً لم ينزلْ عند طلبها، وقال لها حاسماً النقاش:

_ عملُكِ ليس بدائمٍ يا ريم، وليس بوسعي إيجاد عملٍ بسهولة كعملي.

جاء كلامه كصاعقةٍ على رأسها، فهي بحاجة أبيها، وتريد أن تشعرَ بوجوده، وتراه مستلقياً ينعم بالراحة، لكن محاولاتها باءتْ بالفشل.

وبينما رأسها كساحة القتال تتقاذفه شظايا الأفكار، دخل عزام إلى مكتبها، فزاد وجوده ورائحة عطره من اضطرابها.

قال عزام بأسلوبه الساخر الذي باتَ محبباً لها:

_ كيف حالكِ اليوم؟ أراكِ متجهمةً متأهبةً للافتراس في أيّة لحظة.

ضحكتْ من وصفه لها وأجابتْ:

_ أنا بخير، لكنني أشعرُ بالملل فالجو خانق.

_ سلامتكِ يا ريم، لكني أعتقد بأنكِ بحاجة ماسّة لحضور حفلةٍ، وجئتُ في وقتي على ما يبدو لأعطيكِ هذه الدعوة.

_ دعوة !!

_ نعم، لقد حددنا موعد الزفاف في بداية الشهرِ، وأتمنى من كل قلبي حضوركِ أنتِ ووالديكِ.

وفجأةً اجتاحها دوارٌ كاد يفقدها توازنها وكامل وعيها، لكنها تجبّرتْ عليه، واستطاعتْ السيطرة على كيانها ظاهرياً، فاغتصبتْ ابتسامةً لتردّ عليه وسط حرائق قلبها التي استعرتْ:

_ مباركٌ سيد عزام.

لكنه أردف بإصرار:

_ ستأتون إلى الزفاف حتماً، أليس كذلك؟

_ إن شاء الله سيد عزام.

قال مطمئناً:

_ لا تهتمي لأمر الحضور، سأرسلُ لكم السائق في ليلة الزفاف.

هزّتْ برأسها موافقة، وتعالى صدى عويلٍ أليم في جوفها، إنها تتمزق قهراً، وتجاهد كي لا تُبدي أيّ تعبير يدلّ على عمق حزنها.

وما إنْ خرجَ مستأذناً حتى تركتْ العنان لدموعها الحارة التي بدأتْ تنساب بغزارة على وجهها، لقد غزاها وجعٌ صامتٌ لا تستطيع البوح به، وجعٌ قتلَ بحدّ سيفه كلّ أحلامها التي يسطعُ هلالها في بداية كل ليلٍ يلجُ بأمانيه رحاب قلبها الغضّ.

وأخذتْ تناجيه سرّاً بمرارة:

_" سأحملُ صورتكَ على جدار قلبي، وأنسى جراح السنين بخطوط وجهكَ، فالروح لا شيء يقنعها بالعيش بعدكَ، ولا شيء يكسرها إلا غيابكَ، فلتكنْ في حياتي لوحةً زيتيةً أعلّقها على حيطان قلبي، أتأملها من بعيد كحلمٍ منير يضيئني، وليس بمقدوري احتضانه، يا لسذاجتي وقد حلمتُ بامتلاكِ قلبكَ لم أعلم أني أطلبُ المستحيل، لأنَ قلبكَ بصدر غيري، وقصائد عينيكَ تشتعلُ عشقاً في معابد غيري، فأشمّ عطركَ على ثيابها، وأرى خصلات شعرها تتطاير جذلى على خديك، حلمتُ بكَ كثيراً، وأغرقتْ دموعي وسائدي رغم يقيني التام بأنه لا مكان لي في حياتكَ، وأكثر ما يمزقني بأنني لازلتُ أحلم، فإلى متى؟ ولأن الموت مرة

واحدة فقط اخترتُ ألا أحبكَ بعد الآن، لأنني في حبكَ سأموتُ كل ثانية ألف مرة".

مضتْ الأيام ثقيلة الخطى، تتعثر بأكداسٍ من الهموم الداكنة، التي استوطنتْ كل ركنٍ من أركان نفسها، فغدتْ قليلة الكلام، كثيرة الشرود والوجود، وباقتراب يوم الزفاف باغتتها الحيرة فهل تلبي الدعوة وبين طيات روحها تتوارى آلامها الدفينة؟ أم تبقى رهينة جدران بيتها تذرفُ دمعاً قد يطفئ لظاها قليلاً؟.

ودار نقاش حاد بينها وبين نفسها، فهي إنْ ذهبتْ ورأتْ بأمّ عينها حقيقة اقترانه بأخرى فربما يهدأ روعها وتقتنع بأنّ كلّ ما بنته من آمال ما هو إلا أوهامٌ ستضمحل يوماً بعد يوم، فلماذا تحشر نفسها مع أوهامها، وتتقوقع مع خيالاتها؟

إنّها المسؤولة الوحيدة عن كآبتها، لأنّ حبها العميق لشخصٍ تفصل بينها وبينه هوةٌ سحيقةٌ وبعيدة المدى ما هو إلا ضربٌ من الجنون، وهمستْ تناجيه مستسلمة كما اعتادتْ:

_" تستطيع أن تذهبَ الآن، فحبكَ أكبر من حضوركَ، هنا في منتصف القلب أنتَ، وفي بداية الروح ومنتهاها، وفي كل مسامة من جسدي، فاذهبْ حيث تشاء لأنكَ محاصرٌ بين صميمي ووجداني، منقوشٌ على جدران فكري، ولن أبالي إنْ سرقتكَ الدنيا مادمتَ بي ولكنْ..! أقسمُ برموش عينيكَ الجميلة بأني سأراكَ على سفوح أحلامي كل يوم ليشدني

موجِ مقلتيكَ، فتزول ليلاً كل أسقامي، وإني لا أهابُ موتاً وأنت أميرٌ في زوايا منامي، وإني لا أخشى الغرق في محيطاتٍ بلا قرارٍ كل ما أخافه أن أُغرقَ المحيطات في ظلمات أحزاني، عندما تلتصقُ أحلامي بأذيال رحيلكَ، وعندما أقطفُ زهور هذا القلب لتذبلَ عطشاً في واحاتكَ".

وقررتْ ريم أخيراً أن تذهبَ إلى زفافه بعد أن تخلّتْ للواقع عنه، وأقسمتْ أن تستحوذ عليه فقط في أحلامها، وطلبتْ من أمّها مرافقتها فقالتْ ماريا:

_ لستُ معتادةً على الخروج من منزلي، وليس لي نيّة في ذلك.

ردتْ ريم بيأس:

_ لماذا يا أمي تعتزلين الدنيا بأسرها هكذا؟

في تلك الأثناء خرج عادل من الحمام يلفّ رأسه بمنشفةٍ ليجفف شعره، فقاطع ابنته بسؤاله:

_ علامَ الغضب يا صغيرتي؟

_ لستُ غاضبة يا أبي إنما مستاءة، أمي ترفضُ مرافقتي إلى حفل زفاف السيد عزام.

اقتربَ عادل من ابنته ووضع يده على كتفيها قائلاً بابتسامةٍ وادعةٍ:

_ أنا سأذهبُ معكِ يا ريم، ولا تفرضي على أمّكِ ما لا تحبه.

حملقتْ ريم بدهشةٍ لردّه الغير متوقع، فهو لا يعترضُ على أيّ شيء تفعله، أو تقوله زوجته، ولا حتى يناقشها مجرد نقاش، وتساءلتْ بينها وبين نفسها:

_" أيّ حب أعمى واحترامٍ يفوقُ تصور العقل هذا الذي يكنّه لها، وأيّ غموضٍ في تصرفاتهما! لستُ أدري شيئاً".

وهلّ صباح يومِ الزفاف، استيقظتْ ريم من هجوعها تبحثُ بعينيها المتورمتين عن والدتها فلمْ تجدها في الغرفة، تناهضتْ ببطء من سريرها، وأخذتْ تناديها، فخرجتْ ماريا إثر سماعها تحملُ فناجين القهوة:

_ ماما أنا أناديكِ ألم تسمعيني؟

رمقتها ماريا بنظرة جامدة لا معنى لها وردّتْ:

_ ماذا تريدين؟

تنهدتْ ريم بعمقٍ لأنها تعبتْ من صمتِ أمها الذي يداري أشياءً مبهمةً تجهلها ريم مُذ وُجدتْ في هذه الحياة؛ سألتها ريم:

_ ألمْ يأتِ أبي بعد؟

_ لا لم يأتِ.

لم تشأ ريم أن تسألها أو تُحدثها بأي موضوع، واتجهتْ إلى الحمام لتغتسلَ قبل أن ترتدي ثيابها، وتخرج لشراء فستانٍ يليق بتلك الحفلة.

-7-

في المساء جاءتْ سيارةٌ من قبل عزام لتقلّ ريم ووالدها إلى الحفل.

ذُهلتْ ريم أيّما ذهول من مظاهر الثراء الذي لم تألفه في حياتها، أو حتى تراه إلا وراء شاشة التلفاز، فكلّ الموجودين من أصحاب الجاه والمال والنفوذ، كان والدها يمسكُ بيدها التي ترتجفُ، وكأنه يتمسّكُ بأغلى ما لديه في الدنيا، تأملتْ ريم والدها بحزنٍ شديد لأنه ورغم ثيابه المرتبة والنظيفة، إلا أنّ معالم الفقر والبساطة باديةٌ على مظهره لا شيء يخفيها، فطفحتْ نفسها ندامةً وحسرةً، وأحسّتْ بغصةِ قهرٍ لأنها أقحمته في مجتمعٍ لا يروق له ولأمثاله فقط ليرضيها، ولو طلبتْ منه مرافقها إلى جهنمٍ لانصاعَ لها مُبدياً كل سروره ورضاه.

بدأتْ عيناها ترقبُ الحشود المجتمعة، فهي ووالدها لا يعرفان أحداً، لكنهما دخلا بين التجمعات، واختارا طاولةً نائيةً بعض الشيء ليجلسا، بينما نظرٌ ريم مشدوهٌ لرؤية الفتيات بثيابهنّ العارية وجواهرهنّ النفيسة الباهظة الثمن، لم تكن تسمع بين الأصوات المختلطة إلا كلمات الإطراء والضحكِ، وكأنّ الموجودين من كوكبٍ آخر لا يشبه كوكبها أبداً.

بدا فستان ريم أنيقاً بلون أخضر فاتح يُحاكي لون عينيها، طويلٌ وأكمامه قصيرة تكشفُ عن جزءِ ضئيل من كتفيها الناصعة البياض، لكنها فردتْ

شعرها الأشقر لتُخفي ما ظهر حتى لا تشعر بالحرج من إظهار هذا الجزء.

لقد رأتْ نفسها قبل مجيئها في المرآة أجمل فتاة على الإطلاق، لكنها عندما تواجدتْ بين فتيات الحفل أيقنتْ ضمنياً أنها لا تستحقُ مرتبةً أفضل من مرتبة النادلات في ذلك الفندق الفخم، وكأنّ عادلاً أحسّ بما يراود فكر ابنته، فشدّ على يدها وداناها منه ليهمس في أذنها:

_ تبدين الأجمل يا صغيرتي بلا منازع.

ابتسمتْ ابتسامةً لتُخفي حزنها الصامتْ، وهزّت برأسها تشكره دون أن تتفوه بحرفٍ لأنها خشيتْ أن تنفجر بالبكاء على صدر أبيها.

بعد قليل دخلتْ إلى الصالة امرأة بارعة الجمال، فائقة الحُسن تجرّ كل مفاتنها وتختزلها بابتسامةٍ تشقّ عباب القلوب، ترتدي فستاناً يُعلنُ عن جمالِ وفتنةِ كل ثنية من ثنايا جسدها، وقد شخصتْ الأبصار إليها حتى أنّ البعض تشهّق بصوتٍ مسموع لمرآها، يتبعها زوجها الذي يلفّ ذراعيه حول خصرها، وتراود إلى مسامع ريم من البعض بأنها قد تكون والدة عزام برفقة والده، وذاك يقول بأنها قد تكون أخته فهل يُعقل أن تكون والدته بكل هذا الحُسن المشعّ كفتاة عذراء في مطلع صباها!!

لم تستغربْ ريم كثيراً لأنها لاحظتْ الشبه الكبير بين تلك السيدة وعزام، وتوقعتْ أن تكون أمّه أو أخته، فالتفتت إلى والدها قائلة:

_ لم أرّ أجمل من تلك السيدة في حياتي.

كان عادلٌ مطأطئ الرأس حينها، بمزاجٍ قاتم، وكآبة خرساء، فرمق تلك السيدة بنظرةٍ خاطفة، وأشاح عنها ليقول لابنته متحسّراً:

_ بل هناك مَنْ هي أجمل منها يا ريم، إنها ماريا أمّكِ.

سرحتْ ريم تفكر بوالدتها، وتتخيّل تقاطيعها الناعمة ووجهها الطفولي، فهمستْ في سرها:

_" نعم أمي جميلة ، لكن الفقر فمٌ مفترسٌ يقضمُ بأنيابه ملامح الجمال والحُسنِ".

زاد الهياج في الصالة والضجيج، والأغاني بألحانها الصاخبة تُعلنُ مجيء العروسين عزام وشيرين.

وأضاء وجهه أنوار قلب ريم المظلم، مُذ دلفَ بكل بهائه الصالة، لكن سرعان ما انقبض صدرها وأخذتْ جبهتها تتصبّبُ عرقاً، فذُعرتْ عندما أحسّتْ بأنها تكاد تنفجر بكاءً يفضحُ ما أخفته في سويدائها، فأيّ لعنةٍ هذه التي تجعلنا نتمنى ما ليس لنا، ونبتغي وصال مَنْ هم ملكٌ لغيرنا، وأيّ عذابٍ يعلكنا بين أضراسه ويطفئ أبصارنا عن رؤية الصواب؟؟

تصاعدتْ أبخرة الخيبة والخذلان حتى غدتْ عاجزةً كلياً عن التنفس.

كان عزام يمسكُ بيد عروسه، ويوزع ابتسامته الساحرة على الحاضرين، وكل حينٍ ينكبُّ هامساً في أذنها بعض الكلمات فتغرقُ في الضحك.

"كم هي محظوظة!" همستْ ريم في سرها وهي مبددةُ الأحلامِ مشردةُ المشاعر، لكنها عزمتْ أن تستجمعَ كلّ ما لديها من قوةٍ وإرادةٍ، لتنتزعَ

هذه الأفكار السوداء، وتقذفها خلفها لأنها باتتْ كالداء المتغلغل في حناياها.

التقتْ عيناها بعينيّ عزام وسط الزحام، فأومأ لها برأسه، وأشار لها أن تأتي ليصافحها، أخذتْ نفساً عميقاً، وتمسّكتْ بيد والدها تشدّها ليذهبَ معها لأنها بحاجةٍ ليده كي تستندَ عليها حتى لا تقعَ أرضاً من فرط توترها واضطرابها.

اقتربا من العروسين اللذين وقفا ليسلما عليها وعلى والدها.

قالتْ ريم بابتسامةٍ مزيفة:

_ مبارك سيد عزام، مبارك آنسة شيرين.

وأشارتْ إلى والدها متابعةً:

_ إنّه والدي عادل عبد الحق.

رحبَ به عزام وأبدى سروره بمجيئه، وامتعاضه لعدم حضور السيدة ماريا، لكن ريم اعتذرتْ عن غياب والدتها وتذرعتْ بأنها ليست على ما يرام.

قال عزام بإعجاب صادق:

_ تبدين جميلةً جداً يا ريم.

واتجه بالكلام إلى شيرين قائلاً:

_ أليس كذلك يا حبيبتي؟

أيّدتْ شيرين رأي عزام بقولها:

_ نعم إنها جميلة جمالاً خيالياً كإحدى الأميرات.
فوجئتْ ريم من ردة فعل شيرين، فقد ظنّتْ بأنها ستبدي استياءً لمجاملة عزام لفتاة غيرها، لكنها أيدته بفرحٍ نابع من صميمها، فما نوع هذا الحب بينهما الذي تجهله ريم؟ فلو كانت مكانها لامتلأتْ حنقاً وغيظاً وأوسعته بشتى أنواع الشتائم.
استأذنتْ منهما، وهمّتْ بالعودة إلى الطاولة، لكن عزام أوقفها قائلاً:
_ مهلاً لا تذهبا قبل أن أعرفكما على والديّ، أمي ستفرح بكما كثيراً.
وأخذ يمدّ رأسه ويجول بنظره بين التجمعات يفتش عن والديه فما لبث أن أستقرّ نظره عليهما على إحدى الطاولات يرحبا ببعض المعارف.
قام عزام من مكانه وأخذ ريم ووالدها إلى حيث يجلسُ أحمد وعلياء صائحاً بهما:
_ أبي .. أمي إنها ريم عبد الحق ووالدها السيد عادل.
نهض أحمد توفيق وزوجته ليسلما على ضيوف عزام وهما يرمقانه بنظراتٍ تدل على عدم فهم مَنْ يكونا.
أردف عزام موجهاً كلامه إلى والدته:
_ إنها ريم يا أمي الفتاة التي صدمتها بسيارتي ألا تذكرين؟
اقتربتْ علياء منها معانقةً ومهنئة لها بنجاتها من ذلك الحادث، والتفتتْ ريم لتجد السيد أحمد ينظر إليها نظرات بلهاء كأنه يستذكر شيئاً ما.

فارتعدتْ فرائصها من عمق نظراته، وأشاحتْ عنه خوفاً من تفحصه لها الذي لم تجدْ له أيّ تفسير.

وأخذتْ تسأل نفسها بامتعاض وتعجب:"لماذا ينظر إليّ هكذا؟"

لكن صوت أحمد قطعَ سلسلة تساؤلاتها، وضباب فكرها الشارد وهو يُصعّرُ عينيه ويسأل والدها:

_ أين التقيتُكَ قبل الآن؟

أخذ عادل عبد الحق يتمعّن به، وكانتْ نظرةٌ واحدةٌ كافية لإنضاج ذكرياته، وسرحَ إلى الماضي البعيد لترغي نفسه وتزبد، وترعد وتعصف، وتبدّلتْ سحنته حتى شحبَ لونه كأنه استحال إلى جثة هامدة، وما لبث الدم أن فار وغليَ في عروقه، فاقتربَ منه هامساً في أذنه:

_ الدنيا صغيرة يا سيد أحمد، أليس كذلك؟

وما إن سمع أحمد نبرة صوته حتى تبدلتْ ملامحه هو الآخر، وأطفأ الكدر نور ابتسامته، لتتصاعد الدماء الحارة إلى كامل وجهه، فقد ذهبَ بذاكرته إلى ما ذهب إليه عادل عبد الحق إلى أكثر من عشرين عاماً مضى، واستحضر أحمد في لحظةٍ صورة عادل الأخيرة، وهو ممسكٌ بتلابيبه ابتغاء إزهاق روحه بين يديه القابضتين على رقبته، وكلمات عادل تعود لترنّ في جوف رأسه فتُحدثُ ضجيجاً صاخباً مؤلماً، لقد استعاد تلك الجملة التي كانت ولا تزال مبعثَ شقائه الداخلي، حينما يقفُ

وجهاً لوجهٍ أمام ضميره متعرياً رجع صداها حتى لم يعدْ باستطاعته استجماع شتات قواه المتداعية الأركان.

(لنْ تموتَ يا أحمد قبل أنْ يقتصّ منكَ الله على ما اجترمته، أقسمُ لكَ بذلك).

وأفاق من استذكار ماضيه وعاد للتمعن في وجه ريم التي توترتْ من نظراته وطفق يُحدث نفسه وهو يرتجف:

" إنها تشبه ماريا لطفي، لاشكّ أنها ابنتها، إذن ماريا تزوجتْ من عادل!"

تنبهَ الرجلان من ذهولهما على صياح عزام متسائلاً:

_ هل تعرفان بعضكما؟

أجاب عادلٌ بنبرةٍ جافة ذات معنى عميق لم يفهمه أحد إلا أحمد توفيق:

_ لا لم يسبق لي معرفته، قد أشبهُ أحداً من معارفه القدامى.

والتقط يد ابنته مستأذناً من عزام ليعود إلى الطاولة، مكث طويلاً وهو متجهم، جامد النظر، دامع العينين، وهمَّ بالانسحاب عندما تداعى الحضور إلى الموائد لتناول العشاء، وغادر الحفل غير مكترثٍ بأسئلةِ ريم الحائرة، والتي لم تُدرك تفسيراً لكل ما حدثَ، وظلّت تراقبُ ملامح والدها التي تفورُ سخطاً وغضباً، فاختارتْ الصمت وعدم الإلحاح في تساؤلاتها.

حتى بعد عودتهما ظلّ عادل مستغرقاً في تفكير عميق، ولم يتكلم مع ماريّا التي راعها حاله وأقلقها، وأخذتْ تحقق مع ابنتها عمّا حصل هناك،

ولكن كلّ ما قالته ريمٌ كان طبيعياً، لم تستطع من خلاله استنتاج أيّ شيء يفيدها وقبل انتصاف الليل بدقائق نهضَ عادل بتكاسل ليذهبَ إلى عمله الليلي وسط هلعِ ابنته وزوجته الظاهر على قسماتهما.

اتجه إلى الباب وما لبث أن استدار وقد تركزتْ دمعتان جامدتان بين جفنيه، وقال لريم بلهجة آمرة لم تعتدها من قبل:

_ لا أريد أن تتعاملي مع تلك العائلة يا بنيتي.

اتجهتْ ريم صوبه متسائلة:

_ ولماذا يا أبي؟ هل من أحدٍ ضايقكَ هناك؟

قال عادل وهو يصرّ على أسنانه بمرارة:

_ أنا أكرههم جميعاً أفهمتِ؟

حملقتْ ريم به، وقد صعقها ما أفضى به، فقالتْ بدهشة:

_ لم أعهدكَ يوماً تحملُ كرهاً أو ضغينة لأيّ مخلوق يا أبي.

ذرفَ عادل تلك الدمعتين اللتين استقرتا بعض الوقتِ وسط عينيه، ووضع يده اليمنى على يسار صدره قائلاً وقد عضّه اليأسُ عضّاً:

_هذا القلبُ الذي ترينه طافحاً بالحبّ، كثيراً ما طفح حقداً ملتهباً وناراً مستعرةً فيما مضى، وما زال يفيض مرارةً لا تزول إلا بزوالي وفنائي.

وسارع بالخروج حتى لا تريا المزيد من الدموع التي أخذتْ تنبجسُ بقوة وتنهمرُ لتملأ سفوح وجهه.

الفصل الثاني

"ماريا لطفي"

-1-

مضتْ شهور عديدة على زواج عزام، الذي اعتبر زواجه هو الحدث الأهم في حياته، لِما كانت تغمره من وافر حبها وفيض حنانها، وتملأ أجواءه بهجةً وفرحاً وطمأنينة، فزاد حبّه لها وشغفه أضعافاً مضاعفةً، وأينعتْ سعادته لقربها منه.

لكنّ أحمداً تبدّل حاله منذ لقائه بعادل عبد الحق ذلك اليوم، فصارَ يجدُ مشقةً في الاهتداء لما يخفف عنه همّه وغمّه، ويزيل عنه ما خلّفته تلك المواجهة الغير متوقعة، والوقوف أمام عادل وجهاً لوجه بعد أن ولّى الأدبار منه زمناً، فهاجسُ القَصاصِ يراوده كل حينٍ، ويجثم على قلبه كثقلِ جبلٍ شاهقِ العلو، وأكثر مخاوفه تتجسّد بفقدان أحدِ أفرادِ عائلته أو تعرضهم لمكروه، وما إنْ يتخيّل الأمرَ حتى ينضح جسده عرقاً مترافقاً بضيقٍ في صدره، ويعاني من حالةٍ أشبه بالاختناق غرقاً.

إنّ أصعبَ ابتلاء يُبتلى به المرءِ هو الخوف وخشيةُ الفَقدِ، والترقبُ برعبٍ وحذرٍ ما ستجرّه عليه ذنوبه، لقد كان الخوف يقضُّ مضجعه، إنّه

الخوف مما سيفعله به الله على ما اقترفه في الماضي، ولم يكنْ إغداقه في الحبّ و الحنان مبالغاً به هكذا إلا بسبب مارد الذعرِ المسلّط عليه، كان يهربُ من ذاته التي تحذره دوماً من قصاص سينالُ منه عاجلاً أم آجلاً، لكنه بعد تلك الأشهر صمّمَ على تناسي شقائه، وإجبار نفسه على أن يبدو أمام عائلته التي يحبها أكثر من روحه كما يبدو في العادة، يضحكُ ويمزح كأن شيئاً لم يكن، وهو يداري بين جنبيه ما لا يعلمه إلا الله من جروحِ بليغة وآلام مبرحة.

وفي إحدى السهرات المسائية حيث كان عزام وزوجته على مائدة العشاء ملبياً دعوة والديه، قال أحمد ضاحكاً ممسكاً بيد علياء:

_ لمْ يبقَ معنا الآن إلا عفراء يا حبيبتي، وبعد زواجها سنعود عازبين نجوب الدنيا كلها، سأقضي ما بقي من عمري معكِ في السفر والترحال.

نظر إليه عزام متسائلاً بسخرية:

_ آما آنَ لهذا الغرام أن تهدأ ثورته قليلاً، وقد شارفتَ أن تصبحَ جدّاً.

شهقتْ علياء فرحاً وسألته:

_ أحقاً ما تقول يا حبيبي؟ هل تنتظر عائلتنا أول حفيدٍ؟

هزّ عزام رأسه إيجاباً بينما أطرقتْ شيرين خجلاً.

فصاحَ أحمد مهنئاً والفرح ينتشر من قسماته:

_ مباركٌ يا ولدي، لكنّي أودّ تذكيركَ بأنّ غرامي سيبقى متأججاً ولن يخبو أواره إلا بتوقف هذا القلب عن الخفقان.

قاطعته علياء بخوف:

_ لا تقلْ هذا يا حبيبي، روحي فداءٌ لكَ.

أطلقتْ عفراء تنهيدة مرتلّة بنظراتٍ حالمة تُثير الضحك:

_ إيـــه ليتني أحظى بزوجٍ مثالي يشبه أبي في كل شيء، ساعتئذٍ سأكون أسعد أنثى بعد أمي على وجه الأرض.

قهقه عزام مقاطعاً:

_ هذا مستحيل يا أختي، إنّ أبي من طينةٍ لا تشبه طينة بقية البشر، لقد عجنه الله من أنفاس عليائه حتى جُبلَ على هذا الشكل الذي ترينه.

كان أحمد يومئ برأسه مؤيداً كلمات ولده بوجه يطفو عليه فرحٌ ذابلٌ، فأمسكتْ علياء بيده وقبّلتها دامعةً وهي تهمس:

_ أدامكَ الله لنا يا حبيبي.

وسرعان ما قشع أحمد أطياف فرحه الذابل، ووقف متحمساً ليعلنَ:

_ أستميحكم عذراً يا أبنائي، فأنا سأخطف حبيبتي من بينكم، لأنّ جرعات الهواء التي تحييني قد نقص منسوبها قليلاً، وعلياء بحوزتها كل أنفاسي.

وانسحبَ يشدّها من يدها وهي غارقة بالضحك تنظر إلى أبنائها المغمورين بالفرح، وبعد أن غابا في غرفتهما واصلوا عشائهم يتجاذبون أطراف الحديث.

إنّ علاقةَ عزام بوالده علاقة صداقة وطيدةٍ أكثر مما هي علاقة أبٍ وابنه، فعزامٌ لم يحب في الدنيا مخلوقاً كما يحبّ أباه.

واعتاد أحمد منذ صغر ابنه أن يعامله كما لو كان صديقاً محبباً، ولم يمارس عليه سلطةً أبويةً صارمةً حتى ولو أخطأ، رغم تذمر والدته واستيائها من لين جانبه في كل الأمور.

-2-

أما ما كان من حال عادل عبد الحق طيلة الأشهر الماضية، فقد شاخَ في تلك الفترة، وأهرمه الحزنُ أكثر مما أهرمه الشقاء وتوالي السنين والأعوام، وتآكل جوفه قهراً، فاعتاد الصمتَ المؤلمَ الذي اعتصره بما يكفي حتى فاضَ به شغاف القلب، وتنبأ به جمود الدمع وسط مقلتيه، دون أن تجدي توسلات ريم وماريا ليفصحَ لهما عن سبب عذابه الصامتْ الذي صُبَّ عليه بغتةً، فزادَ همّ ماريا، وأحلكَ نهارها، مطبقٌ على صدرها حزنٌ ثقيل الوطأة.

كان يأتي كعادته وقت الغداء بفمٍ مغلقٍ وطرفٍ كسيرٍ، ناسياً تبسّمه ومعانقة ابنته التي أكلتها الحيرة الحالكةُ، لأنّها جهلتْ السبب الذي جعله ينقلبُ رأساً على عقب، مُذْ تعرّفَ على أسرة عزام، لاشكَّ بأنّ مكروهاً قد أصابه بسببهم حتى تولّد هذا الكره الكبير تجاههم، وسألتْ أمّها إنْ كانت تعلم شيئاً عن علاقات والدها بالآخرين، لكن ماريا أجابتْ نفياً، فهي لا تعلم بأنّ عادلاً يضمرُ ضغينةً لأحدٍ، أو أنّ أحداً يبادله ذاك الشعور.

لقد نفدَ صبرُ ماريا وانتفضتْ بعدما غالبتْ فضولها فغلبها، وعزمتْ استكشاف سرّ زوجها الذي يكاد يقتله كمداً.

انتظرتْ مجيئه على أحرّ من الجمر، فهي عازمةٌ ألّا تتركه في تلك الحالة الكئيبة وسوف تطّلع على كل شيء.

وجاء عادلٌ في اليوم التالي دون أي تعبير طارئ على حالته، جلستْ تراقبه وهو يتجاهل نظراتها فابتدرته قائلة:

_ أنا وابنتكَ قلقتان عليكَ يا عادل، ألمْ يحنْ الوقتُ لتخبرني عمّا أصابكَ؟

أجابَ وهو يتظاهر بالانشغال في تناول طعامه:

_ لا تقلقا أنا بخير، لكنني متضايق من عملِ ريم عند هؤلاء الأنذال.

ازدادتْ حيرة ماريا فسألته:

_ لِمَ تنعتهم بالنذالة؟ هل تعرفهم من قبل؟

إنّ السيد عزام شابٌ ذو أخلاق حميدة و.......

جأرَ عادلٌ مقاطعاً كلامها بعصبية وحدّة:

_ وابن حرام أيضاً، وليس هذا فحسب، إنما والده أيضاً كذلك.

وضربَ بقبضته الطاولة، فأحدثتْ جلبةً قويةً أجفلتْ ماريا، لكنّه انتبه لسوءِ تصرفه فقال متأسفاً لما بدر منه:

_ سامحيني يا ماريا، فأنا مرهقٌ حدّ الموت، لا يغرنّكِ صلابة الصخر وصمته، قد يكون في ثنايا جوفه عويلٌ وبكاءٌ يذيب أصلادهِ لا يسمعه إلا خالقه.

وهمّ بالنهوض لكنها استوقفته بلهجةِ إصرار وعزمٍ:

_ لا تذهبْ قبل أن أعرف كل شيء، لقد جعلتني عليلة النفس، مكسورة الخاطر، وقد طفحَ حزني، أخبرني الحقيقة أتوسّل إليك.

وتدفقتْ دموعها بغزارة، مما أطار صواب عادل لمرأى دموعها، فاقتربَ منها جاثياً على ركبتيه، وجعل رأسه موازياً لقدميها يقول بتوسل:

_ لا تبكي يا ماريا وارحميني، فأنا أموتُ قهراً إنْ سالَ دمعكِ بسببي، جففي هذه الدموعِ التي تكوي أضلعي، وتُلهبُ لظى قلبي، وأنا سأقول لكِ كل شيء.

راحتْ تجففُ دموعها بباطن لتخفف من انهياره، منتظرةً أنْ يتكلّم، فرجع إلى مكانه قبالتها، وقال بفمٍ مرتجفٍ:

_ عزام هو ابن أحمد توفيق العامري.

جحظتْ عينا ماريا بشكل مخيف، وفتحتْ فمها كأنّ صاعقةً قصمتها نصفين لتقول بصعوبة من هول صدمتها:

_ ماذا تقول؟ ابن أحمد العامري! لا أُصدق..

_ كما سمعتِ يا ماريّا، لقد رأيته وجهاً لوجهٍ في حفل زفاف عزام.

وبدأ يقصّ عليها ما حدث هناك ذلك اليوم، وما إنْ انتهى من سردِ التفاصيل حتى غطّتْ دموعه كامل وجهه، وماريا منصتة إليه مصعوقة.

وسادَ صمتٌ ثقيلٌ بينهما، لم تكن ماريا تتوقع أن تجمعهما الأقدار بأحمد توفيق العامري مرةً أخرى بعد أن حطّمَ حياتهما فيما مضى، تنهدتْ بعمقٍ لتسمح لأنفاسها بالانتظام قليلاً وقالتْ لزوجها بحسرة بالغة:

_ ماريا لم تجلبْ لكَ في عمركَ إلا البؤسَ والشقاءَ يا عادل.

سارعَ عادل ليقول بحزنٍ يلفّ جوفه المتعب إثر غمامةٍ سوداء حامَتْ فوق سفوح روحه لشعوره بعمق همّها:

_ أنتِ مخطئة يا ماريّا، فأنا أعيش لأجلكِ.

ونهض بسرعة متذرعاً الذهابَ إلى الحمام لغسلِ فمه ويديه من آثار الطعام، وما ذهابه إلا خوفاً من انفجاره بالبكاء كطفلٍ صغير فيزيد من لوعتها التي تقتله.

-3-

أما ريمٌ فقضتْ أيامها تجاهد مجاهدة عصيبة لنسيان عزامٍ، وحزمتْ كلّ أحلامها وأمنياتها لتقصيها بعيداً عن أسوار قلبها الشقي الذي أعلنَ لأول مرةٍ غرامه لرجلٍ ليس لها، لقد جنى عليها قلبها جنايةً كبيرةً، ولن تسامحَ ذلك القلب، فلا أحد بمقدوره ظلمنا أكثر من قلوبنا الرابضة في ظلمات صدورنا، نعمْ إنّ جور القلب أشدُّ إيلاماً لنا عندما يجبرنا أن ننزفَ وجداً وصبابةً لأناسٍ لا يشعرون بنا، وكثيراً ما سألتْ ريم قلبها بعيونٍ مخضّلة بالدمع "ما الذي يدعوكَ للحبّ وللعذاب؟" وتعود لتُحدث نفسها بكبرياء مجروح "لستُ بحاجة لحبٍ يرغمني على البكاء دوماً ويستفزّ أحزاني كل الأوقات".

وصارتْ تتهرّب من لقاء عزام في الشركة، وتلوذ بمكتبها طوال ساعات الدوام، ولو باستطاعتها ترك هذا العمل لتركته على الفور، لكنها تحبّ عملها لأنّها أصبحتْ تنعم نعيماً وافراً، وتشتري كل ما تحتاجه دون أن تشعرَ بالحرج من أبيها، فلطالما اشتهتْ أشياء كثيرة، وكتمتْ بداخلها حتى لا تُحمّله فوق طاقته، وكثيراً ما ادّعتْ أنها راضية قانعة كي لا تزيد عليه مواجعه.

-4-

انتصفَ الليل وخيّمَ السكون والصمت، ولم تزلْ ماريا تتقلبُ في فراشها كأنها تتقلبُ على أشواكٍ، وتتلوى على جمرٍ ونار، وانتشرتْ في رأسها خيالات وأشباحٌ تدقُّ بعنفٍ أبوابَ ماضٍ تكدّستْ على عتباته الأتربة، حتى غدا في فكرها كطللٍ موغلٍ في القدمِ.

كان للماضي رائحةٌ تتسلّل إلى وحدتها مصطحبةً أكوام أوجاعٍ تُغلفها خيوطٌ من حنينٍ باقٍ في وجدانها، ولا تلبث هذه الخيوط أن ترسمَ أمام عينيها بيتَ والديها في القرية فيفوحُ عبق ذلك الزمان ليهيّجَ الوجد والشوق لبيتٍ تذوبُ نفسها حنيناً له، ويتهاطل غيمُ التذكار عليها بأساً وعذاباً.

عاشتْ فيما مضى في كنفِ والديها كأميرةٍ مدللةٍ تتربع على عروش مرصعةٍ بالحُسن والجمال، فهي وحيدةُ أبويها، ونالتْ منهما كلّ ألوان الحبّ والحنان والرعايةِ الحسنة، ما لم تنله أيّ فتاة أخرى في تلك القرية، حتى صار والداها مبعثَ نفور وتذمر أهالي القرية وعلى الأخصّ عائلة أبيها المتحجرة والمتسلطة العقول، لأنّ قناعاتهم تختزنُ أفكاراً موروثة لا يحيدون عنها بأيّة حجةٍ أو دليل، ومنها أنّ الفتاة خُلقتْ وصمة عار أينما حلّتْ وأقامتْ، وعلى الأهل نبذها وقمعها وكسر عينها بكافة الطرق والوسائل، بنهرها إنْ تفوهتْ حتى ولو كان صواباً، فهي مجردةٌ تجريداً كاملاً من الرأي والمشورة والميراث، مهمتها أن تعيش مثل دابةٍ تعمل ليلَ

نهار، وتتزوج أولّ بلوغها ممن يختاره وليّ أمرها دون السماح لها بالشكوى والامتعاض مهما تجرأ عليها الزوج بالظلم والضيم.

لذلك كان والد ماريا منبوذاً لديهم، فهو يعامل ابنته كما يعاملون صبيانهم الذكور وأكثر، ويُعلنُ دلاله لها إعلاناً، ويُغالي في محبتها مجاهراً بتعلقه بها مجاهرةً ضاقوا بها ذرعاً ونعتوه بالمأفون الأجدب، وهاجموه مراراً، حتى لاذ منهم في بيته لا يُخالط أحداً هو وزوجته.

وكبرتْ ماريا لتنضجَ نضوجاً ملفتاً للأنظار، يُبهر الحواس، فقد تبدّى حسنها للجميع كما يتبدّى بدرٌ مضيء في كبد سماء حالكة الظلمة، وباتت حلم كل شابٍ في تلك القرية، لكنها لم تكترث لأيّ منهم، وكانت صعبة المراس، محصّنة ضد كل إغواء وإغراء، عصيّة على كل الرجال، فغدتْ أمنيةً مستحيلةَ النوال بالنسبة لهم، فهي لا تغرّها المغازلات التي تستهوي أقرانها، وما علقتْ بحبالة مَنْ يترصدونها ويزينون لها ما يزينه الشيطان للإنسان، لأنها كانت تستعظم ثقة والديها بها، وتجاهدُ لترفعَ رأسهما، فتغدو مصدر فخرهما واعتزازهما.

وكان عادل عبد الحق ممن يدفعون أرواحهم للظفر بنظرةٍ منها، بعد أن رأى بأمّ عينه كم شابٍ رفيع الشأنِ خسر رهاناته في اجتذابها وإرضاخها، لكن حظّه لم يكن بأفضل من غيره، فاكتفى بحزنه الصامتِ، وحبّه المدفون بين أضلاعه، وظلّ يراقبها من بعيد، دامعَ العينين، محطّم الآمال، مكلوم الفؤاد، متّقداً بالحنين، كاتماً ما به من تباريح الهوى،

محافظاً على كبريائه من أوحال التذلّل، فالكبرياء أن نكون خامدين كمقبرةٍ وفي جوفنا يتعالى الاحتجاج.

كان عادلٌ شاباً أسمرَ اللون، طويل القامة، قويّ البنية، متسعَ الصدر، يضاهي بقوتهِ عشرةَ رجال لكنه معدمٌ فقيرٌ، يكدّ ويتعبُ ولا يستريح، فيعمل أينما سنحتْ له الفرصةَ، حتى ولو كان في تشذيب الأشجار، وحراثة الأراضي، ويكتسبُ من عمله النذرَ الضئيل.

ومرّتْ السنوات لتنال ماريا شهادة الثانوية العامة، واقترحتْ على والديها الدراسة في جامعة دمشق، ورغم احتراقهما لفكرة غيابها عنهما، وتأجج نيران فكرة فراقها في جوفهما، إلا أنهما لم يرفضا لها طلباً، ويعود ذلك الرضوخ الزائد والغير محبب لأنهما قاسيا كثيراً لإنجابها، وتكبدا مكابدةً أليمة بعد زواجٍ دام خمس عشرة سنة، وما إن تفتح برعمها بين أيديهما حتى استضاء ليلهما المعتم الحالك، وازدهرتْ صحراؤهما القاحلة المجدبة، وتعهدا ألّا يحرمانها من شيء مهما كلفهما الأمر، لكنهما لم يدركا بأنهما مخطئان خطأً فادحاً، فكما هو منبوذٌ التشدد والتعصب وقتل شخصية الفتاة وإذلالها، أيضاً الابتذال بالتحرر وإعطاء الفتاة كامل الحرية بكل قراراتها دون حوار أو نقاش أو تحصينها من رماح غدرٍ قد تُصيبها دون وعي أو إرادة منها لهو أكثر الأمور التي تجرّ إلى الويلات والرزايا.

سافرتْ ماريا بروحٍ مفعمةٍ بالأمل، وبقلبٍ ناصعِ البياض لا يشوبه شائبة، قاصدةً خالتها عفاف أخت والدتها الصغرى التي تحبها كثيراً، مذ وعتْ على هذه الدنيا، ومكثتْ في ديارها لا يُنغصها شيء إلا فراق والديها الطيبين، ورائحة جدران بيتها التي تنقشُ في ذاكرتها قصص طفولتها وصباها، لقد أدهشها كثيراً الاختلاف بين قريتها وهذه المدينة، لا شيء موحدٌ بينهما، فكل شيء مختلفٌ حتى الهواء لا يشبه الهواء الذي تنفسته في ربوع القرية وسفوحها وجبالها، فزاد وهجُ الحنين، وباتَ يجرفها لأبسطِ الأمور هناك، لأطياف أوراق الأشجار الصفراء المحتضرة المكوّمة تحت النوافذ العتيقة، لسور بيتهم المبني من حجارة مرصوصة فوق بعضها البعض، لنقيق الضفادع على الغدير الرائق، للحنِ خرير الماء في ساعات الصمت الأولى لصباحٍ مودعٍ أفول ليل فائتٍ.

فالحنين يقظةُ مشاعر لأشياء لم نكن ندركُ روعةَ جمالها وعظمتها إلا بعد رحيلنا عنها.

لكن ماريا عزمتْ على المضي قُدماً في طريقها، فهي ستنال شهادةً جامعية، وتعود مجدداً إلى حضن والديها اللذين بنيا عليها آمالاً كبيرةً.

وكانت تجهلُ بأنّ عادلاً قد لحق بها إلى دمشق بعد عجزه التام عن إطفاء لظى قلبه، فاستأجرَ غرفةً على مقربةً من بيت خالتها في نفس الحيّ، لم يستطع صبراً على فراقها أو تصوّر الحياة بدون رؤيتها يومياً، ففكرة سفرها جعلته كالمجنون الذي لا يتوانى عن الانتحار إنْ أفُلَ من

بين جفنيه طيفها، وقرر أن يجعلها تحت ناظريه كيفهما جاءتْ وذهبت، لكنه حاذرَ ألا تراه فتغضب منه وتسخط لفعلته.

لم تكن بغيته إلا رؤيتها لعلّ قلبه المشتعل ينشرحُ ولو من بعيد، أو حتى من وراء حجبٍ آملاً أن تبلّ هذه القطرة غلّته.

أنهتْ ماريا السنة الأولى، فحزمتْ أمتعتها لتقضي عطلتها الصيفية في قريتها على أن تعودَ مع بداية الخريف إلى العاصمة.

وأخذتْ تعبُّ من فيض المحبة والحنان حتى تبللَ ما أيبسه الفراق، وجففه الحرمان من عطف والديها ورعايتهما، وعادتْ منتصف شهر أيلول بذاكرةٍ طافحةٍ بتفاصيل كل يوم قضته في القرية، وكانت في حالة ذهول حجبَ عنها إدراكها لما حولها.

استقبلتها الخالة عفاف كالعادة بوجهها المستدير الممتلئ الذي يبعث على الأمان، بينما زوج خالتها عدنان ردّ سلامها بفتورٍ، فهي تشعرُ ضمنياً بأنّه متذمرٌ لوجودها ومكوثها في الغرفة العلوية التي كان يكسبُ منها بعض النقود لقاء تأجيرها، لكنه لا يجرؤ على مخالفة زوجته، فطفق يداري ضيقه بسبب ماريا التي شغلتْ الغرفة حتى لا يتعرض لعاصفةِ غضبٍ هوجاء تطيح به من عفاف.

أمسكتْ ماريا حقيبتها لتصعدَ السلالم المؤدية إلى الغرفة، فاستوقفتها خالتها باستحياءٍ وخجلٍ ملأ محيّاها:

_ حبيبتي ماريا لا تصعدي إلى الغرفة.

وهمّ عدنان بالكلام ليوضّحَ، فأشارتْ إليه عفاف إشارةَ غضبٍ من يدها لتسكته قسراً بنظراتها الحادّة، وتابعتْ بلهجة رقيقة:

_ لقد جاءنا منذ أيامٍ شابٌ يقطعُ الأكباد لبؤسه، يستجدي الناس هنا في الحيّ ليستأجر غرفةً لفترة قصيرة، كادَ يموت أمامنا من كثرة ما لقيَ ذلك المسكين من تشردٍ وضياعٍ، فلانتْ قلوبنا رأفةً عليه، وسمحنا له بالمكوث فيها حتى يتسنى له تدبير أموره.

وقفتْ ماريا جامدةً لا تلوي شيئاً تتلبسها الدهشة مما سمعتْ، لكنها ظلّتْ صامتةً تنتظر إصدار الحكمِ بشأن إقامتها عندهم، فاقتربتْ منها عفاف مطمئنةً إياها قائلة:

_ ستنامين يا صغيرتي مع أولاد خالتكِ في تلك الغرفة إلى حين مغادرة ذلك الشاب البائس، وقد جهزتُ لكِ سريراً وطاولة للدراسة.

هزّتْ ماريا رأسها دون اعتراض، ودخلتْ الغرفة التي أشارتْ إليها خالتها، وقد داخلها شعورٌ بالحنق والغيظ المكتوم، جعل وجهها يتلوّن، فهي لن تجدَ الراحةَ والهدوء في غرفةٍ مكتظةٍ بالأطفال، خمسةُ أطفالٍ أكبرهم بعمر العاشرة.

أذعنتْ ماريا وأطاعتْ رغماً عنها فلا خيار أمامها إلا الإذعان.

وجدتْ صعوبةً في الدراسة خصوصاً في الليل، حيث أنها مجبرةٌ أن تدرسَ على نور خافتْ كي لا توقظَ الأولاد الغارقين في نومهم، ومضى أسبوع وأسبوعان كان أكثر ما يوترها مجيء المساء، لأنها لم تهنأ يوماً

واحداً منذ مجيئها وبقائها هنا، فهذا الذي يستيقظ ليقضي حاجته، فتهرعُ إليه لتوصله إلى الحمام، وتنتظره وهي مستندةٌ إلى الحائط نصفَ نائمةٍ، فترتبُ له ثيابه، وتقوده إلى فراشه، وذاك يصرخُ مطالباً بكأس ماء، ومنهم من يفيق مذعوراً بسبب كابوس، لقد أصبح الوضعُ لا يُطاق، ولم تنمْ طيلة تلك الفترة إلا هجوعاً يخلو من الراحة، فما إن يأتي الصباح حتى تكون جفونها منتفخةً ورأسها يحكمه الدوار والألم.

فتقضي معظم وقتها تلعنُ ذلك الزائر الجديد الذي سرقَ غرفتها، ذلك الضيف الذي لم تره أبداً منذ إقامته.

وفي إحدى الليالي داهمها خوفٌ شديد نابعٌ عن سماعها لصوتِ أنين بعيدٍ في أنفاس الليل، أنينٌ من أعماقِ صدرٍ مختمرٍ بالآهات الملتهبة، وكأنّ صاحبها يحتضر على وسادته، لم تنسَ ماريا ما عاشتْ عمق لوعة ذلك الأنين.

وأخذ يتكررُ على مسامعها وجعٌ ممتدٌ من قلبٍ نازفٍ يأتيها على هيئة حشرجةٍ كل مساء، بعد أن يبسط الصمت سيطرته التامة.

في البدء حاولتْ تجاهله، لكنها شعرتْ بدافعٍ مجنون لاستقصاء مكان ذلك الشخص المحتضر كما تخيلته، وعاشتْ كل ليلةٍ مع أحزانه حتى أحسّت بأنّها جزء منها، ولم تعد تحتمل أكثر فلملمتْ خصلات شعرها المتناثرة على جوانب وجهها، وتوشّحتْ بردائها متسللة بهدوء من الغرفة حيث الجميع يغطون في سبات عميق.

كان الصوتُ يتوارد إليها من الأعلى، صعدتْ السلالم وأوصالها ترتجفُ، بينما الأنين والحشرجة يغدوان أكثر اقتراباً لمسامعها واختراقاً لأضلاعها، وأدركتْ يقيناً بأنّ صدى الاحتضار نابعٌ من جوف صدر الضيف الجديد الذي نافسها على راحتها وهنائها باستيلائه على الغرفة.

وقفتْ مترددة، خاشعةً أمام الباب تشعر بعمق الألم الذي يعانيه ذلك المسكين، وتتأرجحُ ما بين فكرة الدخول إليه، وبين الرجوع إلى سريرها، وبعد عراكها المتعب، استجمعتْ قواها ونقرتْ على الباب نقراً خفيفاً لم يلقَ أيّ ردٍّ، وحدّثتْ نفسها بأنه يحتضر لا محالة، ولابدّ من إغاثته.

فتحتْ الباب الذي أصدرَ صريراً مسموعاً، كان الظلام يلفّ الغرفة بحيث صعُبتْ الرؤية، فلم تر الشاب، تقدمتْ تتلّمسُ الجدار بأصابعها لتضغطَ مقبس الضوء، وما كاد النور يسطع حتى كادتْ تسقط من هول ما رأتْ، لم يكن مستلقياً في سريره يحتضر كما توهمتْ، بل كان جاثياً على ركبتيه وسط الغرفة يهذي بكلماتٍ مبهمةٍ غير واضحة، يتبعها أنينٌ يقطعُ الأكباد، ولم ينتبه لإنارة الغرفة ولا لصوت صرير الباب.

تسمّرتْ فوقه عاجزةً عن الكلام، كان شاباً جميل الطلعة، بلحيةٍ قصيرة وشعر أشعث، لكنه ضعيف البنية، يغطي وجهه بكلتا يديه تعباً مكدوداً، يكاد يتهافتُ من شدة الإعياء، وقد تبللتْ ثيابه بالعرق رغم برودة الجو.

قالتْ له ماريا بعد جهدٍ:

_ ما بكَ يا سيدي؟ هل أنتَ مريضٌ؟

لم يأبه أو يكترث لكلماتها أو حتى يشعر بها، كأنه في عالمٍ آخرَ فاقداً الإحساس بكيانه، ولم يتوقفْ عن هذيانه وأنينه.

دبّ الذعرُ بنفس ماريا، فتركته وأخذتْ تركض خارجة من الغرفة، مجتازةً السلالم دون وعي.

اتجهتْ فوراً إلى غرفة خالتها تطرقُ بابها بقوة، فخرجتْ عفاف هلعةً متسائلة بخوف:

_ ماذا حصل يا ماريا؟ هل من مكروه أصابكِ أو أصاب الأولاد؟

بينما صوت عدنان الذي لا يزال في فراشه يتعالى:

_ ما هذا الضجيج أريد النوم؟

قالتْ ماريا وأسنانها تصطكُ وجسدها يرتجفُ:

_ خالتي إنّ الشاب الذي يشغل الغرفة العلوية بحالةٍ خطرةٍ قد تودي بحياته. همستْ الخالة وهي تغلق باب غرفتها و تتجه نحو الصالة إلى جانب ماريا:

_ وكيف عرفتِ بحالته يا ماريا؟

وبدأتْ ماريا تُحدثُ خالتها بكل ما سمعته وشاهدته، بينما ملامح عفاف تنبسطُ وتتقلص، وبعد انتهاء ماريا من كلامها، أمسكتْ بيد خالتها تقودها معها إلى الغرفة العلوية لترى بعينها، وما إن صعدتا حتى أخذتْ عفاف تتلصص من شق الباب المفتوح قليلاً وقد نالها من الخوف ما نال

ماريا، وبدأتْ تحاول ترتيب أفكارها لتصل إلى حلٍّ، فقطعتْ ماريا حبل صمتها بقولها:

_ لننقله إلى المستشفى حالاً يا خالتي.

هزّتْ الخالة رأسها بشرودٍ، ونزلتْ تتبعها ماريا واتجهت مسرعة نحو الهاتف لتتصل بالإسعاف كي يرسلوا سيارة تنقل الشاب إلى أقرب مستشفى.

وبينما تنتظران سيارة الإسعاف بصمتٍ مطبقٍ يغلفه التوتر إذ خرجَ عدنان من الغرفة متثائباً يريد استيضاحاً لما يجري، أخبرته عفاف بحالة الشاب لكنه استشاط غضباً قائلاً:

_ وما شأننا إنْ ماتَ أو عاش، فهو لا يخصنا بشيء.

احتقنتْ ماريا من كلامه وأجابته دون تفكير بنبرةٍ حادة:

_ هل نتركه يموت يا عمي إنْ كان لا يمتُّ لنا بصلةٍ؟

رمقها باشمئزاز قائلاً:

_ هل تسمحين بقفل فمكِ أنتِ؟

نظرتْ إليه عفاف بشزرٍ وقد نفد صبرها منه وصاحت:

_ وهل تسمحُ أنتَ بالعودة إلى فراشكَ قبل أن أُغلقَ فمكَ إلى الأبد؟

تمتم عدنان بحنقٍ واستدار راجعاً إلى غرفته، فتوجهتْ عفاف إلى ماريا مواسيةً لها بلهجتها الطيبة:

_ لا تهتمي لكلامه يا صغيرتي إنه أحمقٌ وغبيٌ.

لم يطلْ انتظار سيارة الإسعاف طويلاً، وبدأ المسعفون يتدافعون إلى الأعلى ومعهم النقالة، بعد دقائق قليلة حملوه ووضعوه في السيارة ، ووقفوا بانتظار مَن سيرافقه إلى المستشفى، فنظرتْ عفاف إلى ماريا وقد اضطربتْ، ففهمتْ ماريا ما يخامرها وسارعتْ بالقول:

_ أنا سأرافقه يا خالتي، فأنتِ لا تستطيعين ترك الأولاد، سأتولى الأمرَ، لكنكِ لم تخبريني عن اسمه.

قالتْ عفاف:

_ اسمه أحمد هذا ما أعرفه، ويجب أن تكون بطاقته الشخصية معكِ في المستشفى.

فانتظرتْ ماريا ريثما تحضر خالتها بطاقة الشاب الشخصية، وما إن أخذتها منها حتى انطلقتْ السيارة بسرعة، جلستْ بجانبه تترقب المسعفين وهم يقومون بالإسعافات الأولية.

وبعد وصولهم المستشفى نقلوه إلى غرفة الإسعاف حيث قام الطبيب المناوب بفحصه، وبعد مضي أكثر من نصف ساعة خرج الطبيب ليُخبر ماريا بحالة الشاب الحرجة مؤكداً بأنه تعرض لانهيارٍ عصبي شديد يكاد يفقده عقله وإدراكه، وهو بحاجة للمكوث في المستشفى بضع أيام.

لازمته ماريا أربعة أيام، لم تذق خلالها طعم النوم والراحة، فكانت تذهب في الصباح الباكر إلى بيت خالتها لتبدّل ثيابها وتأكل وتعود أدراجها إلى

المستشفى، رغم امتعاض زوج خالتها عدنان الذي يتلاشى عندما تنهره عفاف بعنف فيستسلمُ مرغماً متمتماً بغضبٍ مخفي.

بدأ أحمد يعود إلى رشده شيئاً فشيئاً، وقد خفّتْ النوبات العصبية التي كانت تجتاحه، لكنه ظلّ صامتاً كل الوقت تخلو عيناه من أيّ تعبيرٍ، وكلما أمعنَ في التفكير زاد جبينه تقطيباً، ووجهه تجهماً، يتفرّسُ في وجه ماريا ويتأملها بلا شعور، حتى تذبلَ أجفانه ويغفو كأنه طفلٌ صغيرٌ أجهدهُ الصراخ والبكاء، واستسلم للموتِ البطيء.

وماريا تراقبه وقد أحسّتْ بمسؤوليةٍ كبيرةِ تجاهه، لقد أشفقتْ عليه إشفاق الأم على وليدها الهزيل.

وكان صباح اليوم الثالث وقد غلبها سلطان الكرى فاستسلمتْ له مجبرةً ولم تفقْ إلا وخيوط الشمس تداعب جفنيها، ففتحتْ عينيها لتراه يتأملها مبتسماً، انتفضتْ وهرعتْ إليه تتفحصه وهي تسأله بلهفة:

_هل أنت بخير الآن؟

هز رأسه بالإيجاب، وتابع تأمّلها دون أن يتفوه بحرفٍ:

قالتْ له ماريا:

_ أنا ماريا لطفي ابنة أخت السيدة عفاف.

سأل بصوتٍ مبحوح:

_ هل هي صاحبة الغرفة التي أسكنها؟

أومأتْ ماريا برأسها، وأردفتْ بدعابةٍ:

_ لو أننا تأخرنا في إسعافكَ لكنتَ الآن.....

وتوقفتْ عن الكلام، وقد شعرتْ بأنّ كلامها قد يزيده سوءاً.

لكنه تكهّنَ بما أخفتْ، فقال بوجهٍ حزينٍ كاسفٍ:

_ لكنتُ الآن في عداد الأموات أليس كذلك؟

_ سارعت ماريا تقول:

_ لا تقل هذا، إنما أقصدُ بأنكَ ستكون في حالةٍ أسوءَ لو لم نسعفكَ.

تبسّم أحمد وقال بحزنٍ بالغٍ:

_ لا يهمُّ يا ماريا، فأنا أُفضل الموتَ على الحياة، ليتكِ لم تسعفيني.

دُهشتْ ماريا من يأسه المفرط وسألته:

_ هل لكَ أن تُخبرني ما الذي جرَّ عليكَ هذا البلاء؟ هل أنتَ مُعدمٌ فقيرٌ، أم أنكَ يتيمٌ كغصنٍ مقطوعٍ من شجرةٍ بلا سندٍ أو معينٍ؟

بدا يُغالبُ دمعاً محبوساً وأجاب:

_ لستُ فقيراً ولا يتيماً، أنا مطعونٌ أجابهُ مناصبةَ الدهر لي.

_ مطعونٌ ؟

_ نعم أنا مطعونٌ طعناً مميتاً يا ماريا، أو تدري متى يكون الطعنُ مميتاً؟

_ متى؟

_ عندما تمسكُ الخنجرَ أناملٌ سألتِ الله آلاف المرات أن يحفظها من أيّ سوء.

وأخذ يردد بصوتٍ متقطعٍ تخنقه العبرات:

_ حبيبٌ أوغلَ هجرهُ فأبكانا ذلّاً وضيماً، فراقهم كقيظِ جهنم، وبعدُهم موتٌ ليتنا احتملناهُ، وشمسٌ في نهارٍ خالٍ من روائحهم تُحرقُ ورود شبابنا وتُعدمُ من الحب حتى بقاياهُ، قطّعوا قلوبناً مزقاً بغروبهم، وطيفُ ضحكةٍ من شفاههم يضمدُ آهاتنا وكل جرحٍ منهم غفرناهُ.

لقد توقعتْ ماريا بأنه تعرض للخيانة من امرأةٍ أحبها بملء كيانه، وإلا لما كانت روحه ملطخة بالكآبة، ونفسه طافحة بهذا الكم من الآلام المكبوتة، لا شكَّ أنّ بليته ومنبع شقائه يعود لخذلانٍ قاتلٍ وغدرٍ مميتٍ.

فقالتْ محدثةً نفسها:

_" الحب خنجرٌ أنتَ شاحذه لتطعنَ به قلبكَ يوماً ما، وتريق دماءَ وجدانكَ وكبريائكَ، فصفعةُ غدرٍ من يد إنسان تحبه وتهواه كفيلةٌ بأن تبقيكَ عمراً كاملاً جثةً هامدةً تبيع كل بقايا أفراحكَ وأحلامكَ لدهور صمتٍ يذبحكَ كل يوم مئات المرات".

-5-

تعافى أحمد من وعكته بفضل رعاية ماريا، التي أحاطته بكل اهتمامها، وأصبح وجودها هو الراحة الوحيدة له، فإنْ ذهبتْ إلى الجامعة لحقَ بها ولازمها منتظراً خروجها، فيرافقها في كل خطواتها، ولا يتركُ فرصةً إلا ويستغلها ليجلس معها ويحادثها، وبدون أن تشعر ماريا وقعتْ في حبه، واستولى على كل مشاعرها، لقد تعلقتْ به تعلّق الرئتين بالهواء.

فإذا طال غيابه تسللتْ إلى غرفته محاذرةً ألا يراها أحد، لتنهل من رؤيته والحديث معه، وغدتْ العطلة الأسبوعية جبلاً ثقيلاً من الهمّ يجثم على قلبها، لكنها كانت تحاول التخفيف من وطأة الهمّ، ومن قيظِ أشواقها له بكتابةِ الخطابات الغرامية له، وإرسالها مع ابنة خالتها الصغيرة إليه.

وباتت تُرغم نفسها على النوم حتى تتقلص ساعات العطلة، وتعود مجدداً لاستنشاق السعادة برفقته، لقد بلغ الحب منها مبلغاً لم تبلغه من قبل، حتى تمثّلتْ الحياة كلها بنور وجهه الذي عشقته حد الجنون.

وكانت تغفلُ بأنّ هناك مَنْ يذوبُ قهراً وهو يلاحقها من مكان إلى آخر باكياً، شاكياً حزنه وحرقته إلى الله، إنّه عادل عبد الحق الذي ما انفكَّ يتابعها ممزّق الوجدان، داميَ الفؤاد، يحترقُ غيرةً وغيظاً، لكنه يكتم تمزقه واحتراقه مستسلماً لمشيئة الله، ولم يتبْ عن حبها أو يذعنْ للأقدار التي تعاكس دروبه، وهو لن يفقدَ ترياقه المتمثّل بماريا لطفي.

فبعض الحب صلاةٌ وعبادةٌ حينما يخترقُ نخاعَ العظم، ويُشعلُ مواقدَ القلبِ المطفأةِ من عصور، وبعضه آثامٌ وخطايا حينما يجثو عاجزاً عن إنارة خطواتنا التائهة في غابات عمرنا السقيم، فتشرّدنا الطرقات المظلمة التي تمحو آثار خطانا، وتُتعبنا الأدراج التي نمضي سنيناً في الصعود الذي لا ينتهي بالوصول إلى أيّ مكان، فنخافُ مواجهة الشمس حتى لا تحرق ظلّنا المذعور.

وعادل عبد الحق كان حبه يجعله تائهاً هائماً على غير هدىً، لا يعلمُ إلى أين يسير، ولا يجد طريقاً يهتدي إليه، كل ما يعرفه ويؤمن به أنه يستميتُ بعشقها، ويذوبُ شوقاً إليها يوماً بعد يوم.

مرتْ شهورٌ عديدةٌ وحبُّ أحمد ينمو في قلب ماريا حتى تسلقَ أضلاعها، وكسا شغاف فؤادها، ليتشابكَ ويعتمل عرائشَ وسهولاً، ومروجاً، وكثيراً ما كانت تتسلل كلصٍ يرتعش خوفاً إلى غرفته عندما تطفح كؤوس شوقها.

فيجلسا ساعات وساعات، وأصبح أحمد هو الفرح المنشود والسعادة المرجّوة، وقضى قلبها عليها بالحب الذي يُجبر العيون أن تدمع اشتياقاً، والأطراف أن ترتعش إدماناً، ولطالما تسامتْ على الحب من قبل، وأعلنتْ رفضها له، وإغلاق قلبها بمصاريع من نار بوجه لعناته، لكنّ أحمداً احتلّها، واستولى على فكرها، وقيّد نبضاتها، ناسفاً كل تعنّتها، وصلابة معتقداتها الماضية، فهوتْ في غرامه بعد أن امتلكَ زمام

روحها، فلا أسعدَ لديها من عناق يدها ليده، ولا أبهجَ من لحظاتٍ تتأمل فيها عينيه المتوهجتين.

عاشتْ أيامها وكأنها أنثى مختلفة، لا تشبه ماريا التي وطأتْ هذه الحيّ قبل مجيء أحمد، فصارتْ تشتاقه في القرب كما البعدِ، وتتوق لوجوده معها كل حينٍ، لقد بات قدرها المحتوم.

وفي أحد الأيام بينما كان أحمد يجلس وحيداً، حائراً، قانطاً، فتحتْ ماريا باب غرفته، وأطلّتْ عليه بكل حسنها وجمالها مرتدية فستاناً أحمراً وقد تدلى شعرها كشلالِ ذهبٍ على كتفيها.

هرعتْ إليه متقدة بالاشتياق، فذهبَ توقدُ شعاعها بنور عينيه، ووقفَ مبهوراً بجمالها ورقتها، ولم يستطع كبتَ مشاعره أكثر، رغم أنه لم يكن ليجرؤ على الدنوّ منها فيما مضى، لكنه كسرَ حاجزَ خوفه، وابتدرَ باحتضانها واشتمام رائحتها، وأخذ يغوص بوجهه في ثنايا عنقها، حاولتْ ماريا الإفلات منه لكن حبها واشتياقها كانا أقوى من عزمها، فتطارحا الغرام مستسلمة له، وغاب عن رأسها أيّ فكرةٍ تمتشقُ سيفاً لتردعها، أعطته جسدها بعد أن سلبها عقلها وفكرها، ولم تفطن لفداحة الأمر ولعظمة ما فقدته إلا بعد فوات الأوان، وما إن استفاقتْ من سكرات الحب والغرام حتى أصابها الذهول من هول ما ارتكبته، وأخذتْ ترتجف مذعورة ليس فقط لأنها تخلّتْ في دقائق عن عذريتها، بل لأنه جثا على ركبتيه كما رأته أوّل مرة، وأخذ يجهش بالبكاء مرتجفاً:

دنتْ منه وهمستْ له وهي تبكي:

_ أحمد أرجوك لا تفعل هذا، أحتاج إليك الآن لتحتويني.

وقف أحمد وقفةَ مهزوم أمامها، والدموع تهطلُ مدراراً على وجهه قائلاً:

_ ليتني متُّ يا ماريا ولم يحدث ما حدث، فكيف أحتويكِ، وأنا محطمٌ ومكسور؟ ولسوف تؤلمكِ أجزائي المهشّمة بل قد تُميتكِ.

صُعقتْ ماريا من وقع كلامه وسألته بذعر:

_ لماذا يا أحمد؟ بربكَ قلْ لي ما الذي تعنيه؟

تابع بصوتٍ مرتجفٍ:

_ لقد ارتكبنا خطأً فظيعاً، ولا أستطيع الزواج بكِ.

شهقتْ ماريا شهقةً أحسّت بأن روحها ستقتنص، وأصابها دوارٌ عنيفٌ، فاستندتْ على الكرسي تحاول جاهدةً ألا تفقد وعيها.

تابع أحمد وسط دموعه:

_ أنا متزوجٌ من امرأةٍ لولا خوفي من الله لقلتُ أنّي أعبدها، لقد اجتمعتْ أسرتي وتآمروا علينا ليحرموني منها، وكل ما حدث معي من انهيارات وتمزقات بسبب بعدي عنها، أنا ميتٌ بدونها، وليس بمقدور أحدٍ إحيائي إلا هي فسامحيني.

كان كلامه كوابلِ رصاصٍ يخترق كل أجزائها، حاولتْ أن تقول شيئاً أو تناقشه لكنها أحسّتْ بشلل في لسانها، لينتشرَ في باقي أعضائها، فقد

خسرتْ في دقائق معدودة كل أحلامها، ودفنتْ بقسوةٍ قلبها الغضّ حيّاً، ووأدتْ كرامتها وشرفها.

أخذتْ تجرّ خطواتها جرّاً، وخرجتْ من الغرفة التي شهدتْ مصرعها تستجدي الله أن يخفف عنها مصيبتها التي حلّتْ عليها، فمهما شكتْ لن تجدَ سامعاً، ومهما بكتْ لن تجدَ راحماً.

ظلّتْ طوال الليل ساهمةً، تحاول الصراخ، والبكاء لكن الدمع محشورٌ يأبى إسعافها، وأمضتْ ثلاثة أيامٍ في الفراش، تكابد ما لا يعلمه إلا الله من الآلام والتمزقات النفسية، فانقطعتْ عن الجامعة متذرعةً أمام خالتها القلقة بأنها مرهقة، وتحتاج لبعض الراحة.

وتعود لتفكرَ بوالديها الطيبين، فتنشبُ في أنحائها نارٌ لا سبيل لإخمادها، فلطالما افتخرا بها، وتباهيا بعنفوانها وكبريائها، إنها بكل بساطةٍ مرّغتْ رأسيهما بوحول الخزي والعار، ويمرّ على خيالها الضبابي منظر والديها وقد بلغهما نبأ فضيحتها، ومشهد الذلّ الذي سيطرقُ وجوههما أمام العائلة التي انتبذتهما بسببها، فتجثو على ركبتيها ضارعةً لله أن يقضِ بموتها وزوالها.

ولا تلبث جملة أحمد تتردد على مخيلتها عندما قال لها:

_" أتدري متى يكون الطعن مميتاً؟

عندما تمسكُ الخنجرَ أناملٌ سألتِ الله آلاف المرات أن يحفظها من أيّ سوء".

لقد غدتْ ماريا هي الأناملُ التي طعنتْ بالخنجرِ صدر والديها، وأحمد أيضاً غدا تلك الأنامل التي طعنتها بلا أدنى شفقةٍ.

فقدتْ ماريا كل أمل لها بالحياة، وقد نزل بها بلاءٌ حملها من أنوار الحياة إلى ظلمات الموت، وعزمتْ أن تضعَ حدّاً لهذا الوجع بإنهاء حياتها، فما قيمة حياتها وقد خسرتْ تاج كبريائها، ودفنتْ ثقتها بالحب، وأطاحتْ بصروحٍ شيّدها والدُها لشرفٍ وهميّ كشرفها؟

حاولتْ أن تتصبّر فخانها الصبرُ، فانبرتْ تسأل الله غفران ذنبها إنْ استحقتْ الغفران، ولا تنفكّ تتقلبُ على أشواكِ العذاب، ولمّا تجد إلى جانبها مَنْ يخففُ وقع نكبتها، ويمسحَ دمعتها، تتضوّر وحدها وأفكارها تتلوى كأفعى، فكيف لها أن تثأر لآلام قلبها، وترتاح من غليان صدرها المكتوم، وحقدها على نفسها المدفون.

وفي النهاية عقدتْ العزم على الانتحار، بعد أن نفد جلَدها من ازدحام تصوّراتها السوداء لما سيأتي من مستقبلٍ مشؤومٍ.

فاتشحتْ بردائها، وكان الوقتُ ظهراً، فانتهزتْ فرصةَ دخولِ خالتها وزوجها إلى غرفتهما ليأخذا قيلولة بعد الغداء.

خرجتْ ماريا مشتتة البال، ساهمة الطرف بلا هدفٍ تقصده، وقد نهش اليأس وجدانها بأنيابٍ مسمومة.

مشتْ بأقدام واهية، وخطىً مترنحة، غير مدركةٍ لكل الصخبِ حولها، كان ضجيج أفكارها يغطي كامل وعيها وإدراكها، فيصّور لها هذا

المصير الذي آلتْ إليه وقد عبثتْ النكباء بربوعها فأردتها هشيماً يابساً، وصار كل ما يدور في تفكيرها يحومُ حول كيف لها أن تنتحرَ، وبأيّة وسيلةٍ ستضعُ حدّاً لعارها؟ بعد أن مال نجمها الثاقبُ إلى الأفول، وقد استحالتْ دنياها إلى منجلٍ يبضعُ آمالها حتى أتى عليها جميعاً، وأخذ القنوط يلتهما وهي مطرقةٌ أرضاً، ودموع الخذلان المرّةِ تنهمر بلا هوادةٍ على وجهها كماء النار تلسعها، وكل حينٍ وآخرٍ تتفحّص السيارات، وتدنو شيئاً فشيئاً من الشارع المزدحم، وبدون تخطيط مسبقٍ اندفعتْ لترمي بجسدها المنهمكِ وسط الشارع علّه ينهرسُ تحت العجلات فتطحنُه، وتتخلص من تلك الروح التي آلمتها يدُ الغدر والخذلان، ورمتها من قمم الفضيلة الشاهقة العلو إلى أخمص مواطئ الفسق والرذيلة، إلا أنه وفي لمح البصر امتدتْ يدٌ بغتةً وسحبتها بقوة، مما جعل توازنها يختلُّ، فاستدارتْ لتجد نفسها أمام عادل عبد الحق ابن قريتها وجهاً لوجه.

شدّها الذهول لوهلةٍ، وأدامتْ التحديق به غير مصدقةٍ عينيها، لقد بدا ناحلاً مصفرّاً كشبحٍ، ومضطرباً لمرأى دموعها ووجها البائس، قال لها بصوت يجاهد كي يخفي ارتجافه:

_ أيّ حزنٍ يلبسكِ يا ماريا؟

وأيّ بأسٍ يدفعكِ للانتحار؟

قالتْ ماريا:

_ دعني وشأني يا عادل، فأنا جيفة نتنةٌ، وجثةٌ لا نفع لها في هذه الدنيا.

استبدّ به خوفٌ كبيرٌ، وصرخ بوجهٍ يشتعلُ غضباً:

_ لا لن أدعكِ تموتين يا ماريا ما دمتُ حياً، تعالي معي.

أمسكَ بيدها يجرّها جرّاً، وهي تتبعهُ بلا أدنى مقاومةٍ غير شاعرةٍ بقدميها واتجاهاتها كمومياء بلا نبض يحييها.

وصل بها إلى مقهىً شعبي على زاوية الشارع الرئيسي، دخلا وجلسا على طاولةٍ ودموع ماريا لمّا تجفُّ بعدُ.

قال عادلٌ بصوتٍ يبدو أكثر تماسكاً:

_ أنا أتعقّبكِ مُذْ وطأتْ قدماكِ هذا الحيّ.

حملقتْ به غير مصدقةٍ ما يتلفظُ به، لكنها آثرتْ الصمتَ فاستتلى متابعاً:

_ وأعلمُ بأنّ لذلك الشاب الذي ترافقينه من أشهرٍ عديدة كل اليدِ بحالتكِ هذه، لقد كنتُ أرى لهفتكِ عليه وحبكِ له، وأنا أحترقُ كمداً، لكنني لم أجرؤ على فرض نفسي في وجودكِ، وأن أتدخل في شؤونكِ، لأنكِ ما كنتِ يوماً لتعيرينني لحظةً من انتباهكِ، أو قبساً من تفكيراً، فهل لكِ أن تخبريني يا ماريا ما الذي حدث لتصلي إلى مرحلةٍ تعزمين فيها على إنهاء حياتكِ، وقتلِ أحلامكِ ودفنِ طموحاتك.

لم تجبه ماريا بل اكتفتْ بالبكاء الصامت، وقد عجزتْ عن استجماع شتات قواها المتناثرة، واضطرمَ سعير نارٍ في جوف صدرها، فتابع بلهجةٍ أعلى ونبرةٍ أسرع:

_ بربّكِ كوني أكثر تماسكاً وصلابة، وقولي لعادلٍ الذي يفتديكِ بروحه ما الذي أصابكِ.

اصفّر وجهها، وذبلتْ وجنتيها، ويبسَ فمها، لقد كانت مضطربةَ الأنفاس، خافقة القلب، فهمستْ بصوتٍ مبحوح:

_ لم أكن أعلمُ يا عادل بأنّ الحبّ شيطانٌ سيجردني من سموّ أخلاقي، ويقتل كل ما ورثته من قيمٍ وفضائل، لقد أنشبَ مخالبه فمزّق لحمي، وأشعلَ ناره فأحرقَ اخضرار روحي، وجرّدها من احترامها ووقارها لي، وجعل كل عنفواني وكبريائي هشيماً تناثرته الرياح، وذرته في الآفاق.

لقد أحببته بصدقٍ فامتلكَ كل وجداني، لكنه طعنَ هذا الحب طعنةً لا براء منها، وإني لا أحسبُ نفسي قويةً لأواجه هذا الطعن المميت، فقلبُ المرء لا يشيخُ إلا حينما تخيبُ آماله بكل من أحبهم حدّ القداسة، فجأة يدبّ الرعب في الأوصال، ويُحاطُ الجسد بشيخوخةٍ مباغتةٍ، تضمحلُ بسببها شغاف القلب قهراً لتتلاشى نهائياً.

كان عادل ينصتُ إليها، وقد أحسّ بسكاكين تحزّ قلبه فتدميه، وتلطخه بآلامٍ مبرّحةٍ، لكنه ظلّ متحكماً بأعصابه، فابتلعَ ريقه بصعوبةٍ كأنّه يبتلعُ

كأسه من حنظلٍ طلعها كرؤوس الشياطين، وبرقتْ عيناهُ ببارق حقدٍ ليقول متسائلاً:

_ وكيف طعنكِ ذلك الوغدُ؟

لم تتجرأ الاعتراف أمامه بأنها أسلمته جسدها ونصاعة شرفها، كانت تحسُّ بجمرةٍ متلظيةٍ بين ضلوعها، لكنّ خاطراً مشؤوماً تراود إلى ذهنِ عادل فسألها وهو يتضرعُ لله سراً أن يكون واهماً:

_ هل لمسكِ ذاك الحقير يا ماريا؟

أطرقتْ ماريا وقد زاد تهاطل دموعها، فأدركَ عادلٌ بأنّ ظنّه ليس وهماً، فصاحَ صيحةَ يأسٍ، ووقف متراجعاً إلى الوراء، وقد احتقنَ وجهه وامتلأ شراً لا يوصف:

_ سأقتلُ ذلك السافل شرّ قتلةٍ، ففزعتْ ماريا وارتعدتْ و لكنها لم تكد تنهض لتمنعه عمّا انتواه حتى سقطتْ سقوط شجرةٍ استبدّ النخرُ بكامل جذعها وحطمتها قوة الزوابع والعواصف، ولم تستعد وعيها إلى في المستشفى، وعادل يستغيث بجانبها لله أن تكون بخير، ولم يُصدّق عينيه عندما رآها تفيق من إغمائها، فانكبَّ يقبّلُ يديها باكياً معتذراً لأنه أخافها بوعيده وصراخه.

تنهدتْ ماريا وهمستْ لتطمئنه:

_ أنا بخير يا عادل لا تقلق.

قال عادلٌ متشهقاً بالبكاء وسط انهياره وسيل مدامعه:

_ روحي فداؤكِ يا ماريا، لا تقنطي وقرّي عيناً، فأنا أحبكِ حُبّاً لو تناثر فتاتٌ منه على الكون لاستحال إلى فردوسٍ يرفلُ بالتُقى والإيمان، وأعدكِ وعدَ رجلٍ حرٍّ أن أبقى طوع بنانكِ مدى العمرِ، فهل زواجي منكِ كفيلٌ بدملِ القليل من جروحكِ؟

نظرتْ إليه نظرةً تشفُّ عن رعبٍ وقالت:

_ لقد فقدتُ عذريتي يا عادل، فما ذنبكَ لتتحملَ وزرَ أعمالي؟

أجابها عادل بقلبٍ منفطرٍ:

_ أنا موافقٌ على تحمّلِ ما لا يتحمله بشر لأجلكِ، وغاية آمالي أن تكوني زوجتي لأحميكِ من هذا الوجود المليء بالنفوس الغادرة، أرجوكِ يا ماريا لا ترفضيني، فإنْ فعلتِ فسوف يكون رفضكِ كتنفيذ حكم إعدام لي، رفضُكِ بمثابة مقصلةٍ تفصلُ رأسي عن باقي جسدي.

وانكبَّ على صدرها يجهشُ بالبكاء، فراحتْ ماريا تربتُ بحنانٍ على رأسه هامسةً:

_ أنا موافقة يا عادل، سأكون لكَ.

رفع عادل رأسه، ووجهه مخضلٌ بالدموع، وكأنّ أحداً نفض عنه ترابَ قبرٍ مرصوصٍ، ونفخ به الروح فقال صائحاً:

_ أحقاً ما تقولين؟

_ نعم يا عادل، سأتزوجكَ.

وأغمضتْ عينيها الذابلتين حتى لا تنفجر بالبكاء جرّاء مخيلتها المفعمة بالكآبة والأخيلة السوداء.

-6-

عادتْ ماريا إلى بيت خالتها برفقة عادل الذي أصرّ على مرافقتها إلى البيت، فقابلتها خالتها غاضبة غضباً ممزوجاً بالذعر والخوف من اختفائها الطويل لأكثر من أربع ساعات، متجاهلةً وجود عادل، فأخذتْ ترشّها بالأسئلة رشاً، بينما ماريا لا تملكُ ما تدافع به عن نفسها، فبقيتْ صامتةً.

قال عادل للخالة مقاطعاً سيل أسئلتها:

_ عذراً يا خالة، إنّ الآنسة ماريا متعبةٌ جداً، قد وجدتها مغمياً عليها في الشارع، وأخذتها إلى المستشفى، إنها تعاني من إرهاقٍ كبير وأرجو الاهتمام بها.

تحول غضبُ الخالة في لحظات إلى شعورٍ بالرأفةِ والحنوّ، فأمسكتْ بيدها واحتضنتها سائلةً إياها:

_ أحقاً ما يقول هذا الرجل؟

ما الذي أصابكِ يا ابنتي؟

تعالي وادخلي إلى سريركِ، ريثما أحضر لكِ مشروباً ساخناً.

وأدخلتْ ابنة أختها غير مكترثةٍ لعادلٍ الذي ظلّ واقفاً في الخارج لوحده، يجول بنظره في المنزل، ويدير طرفه إلى نافذة الغرفة العلوية المطلّة على الشارع حيث يقطنُ ذلك السافل، الذي سلبَ حبيبته عطر أنوثتها، لقد نوى في نفسه الثأر لشرف حبيبته مهما كلفه الأمر.

ليتَ لنا قدرةٌ على قراءة كفّ الأقدار
حتى نضعَ حدوداً لمشاعرنا
فلا نقتربُ من نيرانٍ ونحنُ نحسبها ضياءً لظلامٍ
وسراديبَ قلوبنا المظلمة

قضتْ ماريا أياماً عصيبةً تسترجعُ في مخيلتها كلّ ما حدث معها، منذ اشتعال جذوة الحب في قلبها وانجرافها في تياراته الهائجة إلى مجاهلٍ أطاحتْ بيافعات آمالها، إلى هذه اللحظة التي تموت فيها كمداً وقهراً، وهي تشهد مصرع آمالها أحلامها، وقلبها الذي خفق للمرة الأولى بحبٍّ أودى بها، وتعود لتسأل نفسها إنْ كان قرارها بالزواج من عادل عبد الحق صائباً، أم أنّ فيه جورٌ عظيمٌ؟ إنّه شابٌ نبيلٌ ووفيٌ، وقبل كلّ هذا رجلٌ يستحقُ وسامَ الرجولةِ عن جدارة في زمنٍ تعرّتْ فيه الرجولةُ من أجساد الذكور، لكن رغم كلّ ذلك ما ذنبه ليقترنَ بفتاة سلّمتْ شرفها بدافع حبّ مجنون لشابٍّ عديم المسؤولية والشرف والضمير؟

لماذا يتحمل خطأها ويداريه باسمه وشرفه؟ ألهذه الدرجة يجعلُ الحبُّ المرءَ يحتملُ ما لا يُطاق؟ وماذا بمقدور عادل أن يبيع من ذات نفسه أكثر ليشتري تذكرةً للحبِ وهو تحت صرير السلاسل يقتاتُ من تساقط الحب عليه؟ والأهم من ذلك ماذا بقي بحوزتها لتعطيه؟

أتعطيه جسداً ضاعَ منه الشرف الأبيض؟ أم تعطيه قلباً دامياً تالفاً تقطّعتْ كلّ أوردته وشرايينه، بعد أن صدأ نياطه، وجفّت ينابيعه ؟.

لكن من جهة أخرى زواجها منه سينتشلها من الفضيحة والعار الذي ألصقه بها حبّها لأحمدٍ، وسينقذ شرف عائلتها، إنّها مضطرة لقبول هذا الزواج رغم ما يحويه من ظلمٍ وجورٍ لعادل، وهو الحلُّ الوحيد كي لا يتلطخ اسم والديها بالذلّ والهوان.

همستْ ماريا في سرّها والدمعُ يجول في عينيها مسطّراً حزناً لم يسطّره يراعٌ:

_ ما عساه يصنعُ بي القدرُ؟

وبينما أفكارها تعصفُ بمحيط رأسها، انفرجَ باب الغرفة لتدخل خالتها بوجهها المشعّ طيبةً، اقتربت منها وجلستْ على حافّة سريرها تسألها بلطفٍ:

_ كيف حالكِ اليوم يا صغيرتي؟

أومأتْ ماريا برأسها، واغتصبتْ ابتسامةً هامسة:

_ أنا بخير يا خالتي لا تقلقي.

_ الحمد لله أنكِ بخير، جئتُ لأبشّركِ بأنكِ ستعودين إلى غرفتكِ غداً بإذن الله.

جحظتْ عينا ماريا، وقالت بفزعٍ لا إرادي:

_ كيف سأعود إلى غرفتي؟ هل رحل أحمد؟

استغربتْ خالتها مشهدَ الذعرِ الذي ارتسمَ على محيّاها، وأوضحتْ متجاهلةً ذلك:

_ لقد قرر الرجوع إلى عائلته بعد أن جاؤوا في الصباح الباكر جميعاً ليقنعوه بالعودة إلى بيته، إنهم عائلة راقية جداً يا ماريا و يبدو عليهم الثراء والرفاهية، يا إلهي لو شاهدتِ عمّكِ عدنان كم كان مسروراً وقد أعطوه إيجار الغرفة أضعافاً مضاعفةً لقد بدا كجروٍ متفائلٍ.

وغرقتْ عفاف في الضحكِ وهي تستذكر منظر زوجها الجشع، بينما ماريا تحترق احتراقاً رغماً عنها مما سمعته، لكن الخالة فطنتْ لتجهمها وأوقفتْ ضحكها تسألها بحيرة:

_ لماذا تغيّرتْ ملامحكِ يا عزيزتي؟

هل من خطب؟

غضّنتْ ماريا حاجبيها و ردتْ:

_ لا يا خالتي كن كنتُ أريد محادثتكِ بأمرٍ مهمٍ يتعلق بي.

_ ما الأمر يا صغيرتي؟

_ لقد قررتُ الزواج.

حدّقتْ الخالة بها مستغربةً غير مستوعبةً لما سمعته، وقالتْ لها:

_ الزواج! ولكن ممن تريدين الزواج؟ ومتى قررتِ هذا القرار؟

أجابتْ ماريا وقد بدتْ ملامحها أكثر تصميماً وعزيمةً:

_ عادل عبد الحق، ذلك الشابّ الذي أسعفني منذ أيام، وجاء برفقتي إلى هنا.

كتمتْ عفاف رغبتها بإطلاق الأسئلة التي احتشدتْ في ذهنها بغتةً، واحتارتْ بأمر ماريا التي أعلنتْ رغبتها بالزواج من شاب لم يسبق لها أن رأته إلا عندما جاء معها، ولم يكن بادياً عليها أنها فتاةٌ عاشقةٌ، أو مهتمة بأحدٍ.

لقد آثرتْ عفاف ألا تخوض معها بأيّ نقاش قد يزيد صحتها سوءاً، فسألتها:

_ لكن يا صغيرتي لِمَ العجلة؟ فأنتِ لم تنتهي من دراستكِ.

_ أنا وعادل اتفقنا، وسأسافر غداً أو بعد غدٍ إلى القرية لأشاور والديّ في الموضوع، لربما يلقى قبولاً عند والديّ، وأرجو منكِ أن تباركي لنا هذا الزواج.

تمتمتْ الخالة بذهول، وقد وجدتْ أنه لا جدوى تُرجى من مجادلتها بعد حسمها الواضح للموضوع:

_ على بركةِ الله يا ماريا، سأتركِكِ ترتاحين الآن، وسأنهض لتحضير الغداء.

ونهضتْ تاركةً ماريا لوحدها، تحاول إخماد حرائقَ نشبتْ مجدداً في أرجاء نفسها، لم تستطع المكوث أكثر في السرير، فوثبتْ وقد اتقدّتْ عيناها لهباً، وصعدتْ السلالم قاصدةً غرفة أحمد، فتحتها بدون إذنٍ منه لتجده منكبّاً على أغراضه يجمعها في حقائب.

تفاجأ بها، وجمدَ مكانه ينتظر اندلاع ثورتها البادية من شرار عينيها، قالتْ تغالب دموعها:

_ هل سترحل حقاً؟

قال باقتضابٍ متشاغلاً بجمع أغراضه ليهرب من وجعِ نظراتها الحارق، وليكبتَ دموع ندمه تجاهها:

_ نعم، أريد الرحيل والعودة إلى منزلي، لقد جاء أبي وأمي وابن عم زوجتي وتوسّلوا كي أعود، بعد أن أعادوا لي زوجتي وولدي.

توقفتْ عن الكلام، فاستدار إليها، ومشى بضع خطواتٍ حتى داناها هامساً بصوتٍ يخنقه الرجاء:

_ سامحيني يا ماريا، كيف لي أن أكفّر عن ذنبي تجاهكِ؟ هل سيغفر لي الله ما اقترفته بحقكِ؟ وهل ستغفرين ما لحق بكِ من جروحٍ وآلامٍ بسببي؟

ردّتْ ماريا والدموع تخنقها:

_ لا لن أغفرَ لكَ يا أحمد، لن أغفرَ لك أبداً.

أحسّ بعمقِ لوعتها، وعاد ليحزمَ حقائبه، وقد طفرتْ دموعه رغماً عنه مجدداً، فحمل الحقائب، ومشى باتجاه الباب، وقبل أن يخرج قال لها:

_ الوداع يا ماريا الوداع.

قالتْ له ماريا بلوعةٍ تُذيب الصخر وقد فاض بها الألم:

_ لا تقلْ وداعاً، بل قلْ مماتاً، فليس وداع مَنْ نحبُ إلّا قتلاً عن عمدٍ، وذبحاً بإدراكٍ، وشنقاً مقصوداً، وإيّاك أن تنتحبَ لأجلي اذهبْ فدموعكَ ليس لها وقعٌ ولا معاني، اذهبْ إليها واشربْ نخب دمائي التي استبحتَ بها عذريتي ونقائي، كفاني وجمرات الغدرِ تحرقني وسياط الخذلانِ يُدمي بناظريّ كل الأماني، اذهبْ إليها أسرعْ هيّا على جسور حبي وأحزاني، واتركني لوحدتي أجمعُ بقايا ذكرياتي، وأُعزّي ما تناثر من أشتات كياني، ما نفعُ بكائكَ اليوم أمام قتلي؟ هل يخفف دمعكَ مما أعاني؟ لا تتأخر واذهبْ، فلعلّ موتي حياةٌ لكما، وكفاني من الخطوب كفاني، قتيلةٌ في حبكَ أرديتني، أو تنتحبُ بعد كل هذا؟ وقد غدتْ خيوطُ أحلامي تحيكُ أقمشةَ أكفاني؟.

توارى أحمد مكفكفاً عبراته التي فجرتها لوعة كلماتها، بينما ظلّتْ هي جامدةً في مكانها لا تلوي شيئاً، ذاهلةً عن نفسها، ولم تفقْ من ذهولها إلا على أصواتٍ صاخبةٍ ، وصيحات عالية تنبعث من جهة الشارع، أطلّتْ بهلعٍ من نافذة الغرفة لتستطلع الأمر، فرأتْ أحمد منبطحاً أرضاً وعادلٌ فوقه ممسكاً بتلابيبه يبغي قتله وإزهاق روحه، وبعض المارّة بدؤوا بالاصطفاف ليشهدوا العراك الحامي بين الرجلين، وثبتْ ماريا بذعرٍ يتطاير من كل أجزائها، ونزلتْ إلى الشارع بلمح البصر، أمسكتْ بقميص عادل تتوسّل إليه أن يتركه وشأنه، كان الشرر يتطاير من عيون عادل، وأحمد يجاهد ممسكاً بيدي عادل الصلبتين ليخفف من ضغطهما

عن رقبته، يحاول الإنعتاق من قبضتيه الصلبتين وهو يختنق، تركه عادلٌ وانصاع لرجاء ماريا التي كانت تسحبه عنه، وحبّات العرق تتقاطر على جبينها وصدغيها من فرط إعيائها وخوفها.
وقف أحمد وقد اشتدّ سعاله محاولاً استعادة أنفاسه، خائر القوى على غير وعيّ وصاحَ ملء حنجرته:
_ كدتَ تقتلني أيّها الوغد، قلْ لي ما الذي اقترفته بحقّكَ لتفعلَ ذلك؟
أخذ عادل يتغلّبُ على انهياره، ويحتفظُ ببعض الشجاعة بعد اضطربَ صدره من توتره الزائد، وأخذ يلهثُ قائلاً بمرارة:
_ تذكّر جيداً، أنّكَ قتلتَ روحَ شخصٍ يُدعى عادل عبد الحق، ولن أسامحكَ ما حييت.
وأخذ كلا الرجلين ينظران إلى بعضهما نظراتٍ ناريةٍ، غير آبهين للغط الناس الذي يعلو حولهما، كان الناس بما فيهم الخالة عفاف وزوجها عدنان متجمهرين، وقد وقفوا مأخوذين، مبهوتين، يطلقون الشهقات للوحشية التي بدرتْ من عادل تجاه ذلك الشاب دون أن يعلموا سببها.
صرخ عادل وهو يقاوم ساقيه المتعبتين اللتين تنثنيان تحت وطأة جسده المنهك:
_ لن تموتَ يا أحمد قبل أن يقتصّ منكَ الله، أقسم لكَ بذلك.
أغمضَ أحمد عينيه، وقد حفرتْ تلك الجملة وجدانه حفراً، همّ ليتنحى بعيداً عن الجميع منتظراً السيارة التي سيرسلها له والده، لكن جاءته لطمةٌ

مباغتةٌ من عادل على وجهه أجبرته على الفرار، ومشى ممتلئاً بالكآبة وهو يحث خطاه، وما هي إلا دقائقَ حتى وصلتْ السيارة، وذهبَ بها أحمد، وسار في حال سبيله، كأنما لم يأتِ أمراً منكراً، غير عابئ بقلب ماريا الملطخ بدماء غدره، ولّى هارباً ليبتلعه الغياب، ولم يعدْ إلى مسارح عمرها بعد ذلك اليوم، وقد بعثر شرفها الذي أباحه في لحظاتٍ.

-7-

لم تفلحْ عفاف وزوجها في معرفة سبب العراك بين الرجلين، فقد بدتْ ماريا وكأنها لا تعلم شيئاً بشأن خلافهما، وكذلك عادل اكتفى بالصمت.

تركتْ ماريا في اليوم التالي العاصمة، وقفلتْ راجعةً إلى القرية برفقة عادل الذي وضعتْ مصيرها كلّه بين يديه، عادتْ ونفسها تفيض احتقاراً واشمئزازاً من سلوكها المُعيب، وغدا ضميرها سوطاً يجلدها من حينٍ إلى حينٍ، لقد كان ما مرَّ عليها أمراً رهيباً لا يتصوّره عقلها، وما كفّتْ لحظةً عن ترديد الأنّات، وتصعيد الزفرات، دون أن يسعفها جفنٌ ويطلقُ دمعها المحبوس، أو تنجدها رئةٌ بأنفاس عليلة تطردُ قليلاً اختناقها، الذي خلّفه وداع شرفها الذي كان يملأ رأسها عظمةً وافتخاراً، ولكم كانت صدمة والديها كبيرة، وقد وقفا على قرار ابنتهما الوحيدة بتركِ دراستها الجامعية، والزواج من عادل عبد الحق.

قابلا قرارها بالرفض القاطع، وأبدى والدها سخطه، معترضاً زواجها من عادلٍ، لأنه شاب فقير لا يملك عملاً، ولا أرضاً يعتاش منها، كل ما تركه له أبوه غرفةٌ صغيرةٌ متداعيةٌ، متهالكةٌ، لا تصلح لشيء إلا للهدمِ، فكيف له استيعاب أن يعطي فقيراً مُعدماً وحيدته الحسناء التي يحلم بها الكثير من ذوات الجاه والمال والثقافة، وحتى والدتها توسّلتْ وبكتْ ما

شاء لها أن تبكي، لكن ماريا لم تتأثر برجائهما ودموعهما، ولا بسخطِ والدها وقالتْ لهما بحزمٍ:

_ ما من قوةٍ تستطيع أن تحول بيني وبينه إلا الموت.

مضى شهران ولم تستطع ماريا إقناع والديها بهذا الزواج، إلى أن جاء ذلك اليوم الذي بدأتْ تحسُّ باضطراب جنين في أحشائها، فذُعرتْ وأصابتها هستيريا، لقد شاءتْ الأقدار أن تجعلها تحصدُ شرّ فعلتها الشنعاء بانجرافها وراء مشاعرها، وانسياقها وراء شخصٍ خفر ذمتها، وحنث بعهدها وخان أمانتها.

اتصلتْ بعادل تطلبُ منه المجيء إليها، وجاء عادل متلهفاً ليلتقيها عند نبع القرية كما طلبتْ منه، وما إنْ رأته مقبلاً حتى ارتمتْ بين ذراعيه تجهش بالبكاء، فأججتْ دموعها شجنه، وطار صوابه ليسألها بلهفةٍ عمّا أصابها.

قالتْ له وعبراتها صورةٌ واضحةٌ لآلامها العميقة:

_ لقد حدثَ ما لم أحسبْ له حساباً يا عادل، أنا حاملٌ.

تجهم وجهه، وبدا كليلٍ متلبدٍ بغيومٍ سوداء، لكنه قال لها محاولاً التجلّد:

_ لا تقلقي يا ماريا، لن أدعكِ تجابهين همومكِ لوحدكِ، سأقابلُ والدكِ مساءً، وأحاول بكلّ ما أوتيتُ من حجةٍ إقناعه بزواجنا، امسحي دموعكِ، وأنا سأتدبر الأمور كلها.

وجاء المساء وكان من أقسى المساءات التي مرّتْ على ماريا، حيث وصل عادلٌ والقلقُ بادٍ على محيّاه، وعيناه زائغتان لا تستقران على شيء محدد، لأنه يعرفُ بأنه منبوذٌ من قبل أهل ماريا.

دخلَ إلى البيت الذي لم يكنْ مرحباً به فيه، فالأبُ معتكفٌ لوحده على كرسيّه يحاولُ درء نفوره بمتابعة التلفاز، والأمّ تجثمُ بصمتٍ يتآكلها اليأس، لكن ماريا ضاقتْ ذرعاً من نفور والديها، فصممّتْ أن تضع لهذا الصمتِ حدّاً، قالتْ موجّهةً الحديث إلى أبيها:

_ جاء عادلٌ إليكَ يا أبي لنحدّد موعد الزفاف.

وقبل أن تنهي جملتها انفتحَ الشبّاك على مصراعيه بفعل العاصفة المطريّة الشديدة، فسارعتْ الأم لإحكام إغلاق النافذة، وهي تختلس النظر إلى زوجها الذي بدا محتقناً من كلام ابنته.

رمقَ الوالد ابنته بغضبٍ مُعلناً ثورته الجامحة بقوله:

_ إنْ تزوجتِ هذا الأمّعة فأنا متبرئ منكِ مدى الحياة هل تسمعين؟

جمدتْ دماء ماريا في عروقها من وعيد والدها واستوطنها همّ أثقل من همومها، فرمقتْ عادل بنظرةٍ تموج بين القنوط والوجل، لكنه أطرق أرضاً من عمق الإهانة الموّجهة إليه، لأنه عاجزٌ أن يردّ اعتبار نفسه أمام رجل هو أب لحبيبته وبنفس الوقت أن ينقذ حبيبته من معضلتها، فالقرار الآن لها، فإما أن تتخلى عن والديها فتدرأ فضيحتها، وإمّا أن تتخلى عنه

فتتجرع كؤوس عذابٍ ليس مثله عذاب، وتقضي عليه أيضاً بمثل ما قُضيَ عليها.

ساد صمتٌ ثقيل بين الأربعة، قطعته بعد دقائق ماريا بصوتٍ ملؤه الرجاء:

_ هل تتخلى عن وحيدتكَ يا أبي لأنّها أحبّتْ واختارتْ العيش مع مَنْ خفقَ له قلبها؟ إنّ من تصفه بالأمعة لهو من أفاضل الناس الذين عرفتهم في حياتي، فمن لي بإنسان يلملم ضعفي، ويداري تلفي وانهياري، ويبدّد أحزاني غيره؟ من لي بحبيبٍ يوقد جسده لهيباً يحترقُ ليدفئ زمهرير عظامي ويحتويني بحنانٍ ما هو إلا احتراقٌ له؟

تنهد عادلٌ بلوعةٍ، فكم تمنى أن يكون ما قالته ماريا بشأن حبها له صدقاً، فلو كان هذا حقيقة لغدا أسعد رجلٍ على الأرض، لكنها لا تحبه إنما تحتاجه ويا للفرق الشاسع بين الحبّ والحاجة!

صرخ والدها بلا رأفةٍ عليها:

_ عليكِ الاختيار الآن، إمّا نحنُ أو هذا المأفون الذي استغلّ مشاعركِ وجعلكِ تبيعين أهلكِ وطموحاتكِ من أجل العيش معه تحت أغلال العوز والخصاصة.

ونهض يضربُ كفاً بكفٍ، ويهزّ رأسه المخضل شيباً آسفاً، نادماً في قرارته على ما اقترفه من أخطاء بدلالها، وتعميق ثقتها بنفسها أكثر من

اللازم، وإعطائها حريةً ما لبثت أن تحولتْ إلى مشنقةٍ حول رقبته، حريةٌ انقلبتْ ضده ليس معه.

أحستْ ماريا بعمق الجراح في نفس عادل جرّاء الشتائم التي نالها من والدها وليس له ذنبٌ بكل ما حدث إلا أنّه اندفعَ إنسانياً لنجدتها وغوثها ولانتشالها من الغرق في مستنقع العار.

فقالتْ بتحدٍ وهي تدنو من عادلٍ:

_ توقفْ عن إهانته لأنكَ بذلك تسعى إلى إذلالي، فكرامته هي كرامتي، ولا شأن له بشيء فأنا التي طلبتُ الزواج منه، لأنه شاب ذو خلقٍ عظيم، وفكره يناسب فكري، وما كان الفقر يوماً وصمة عار نلوذ فراراً منه، فالله قادرٌ أن يرزق جميع عباده، ولا أراه عائقاً لنقتلَ بسببه مشاعرنا وأمانينا، وأعلنُ لكَ بأني اخترتُ عادلاً وسأتزوجه، ولن أدعْ لأحدٍ حقّ تقرير مصيري أبداً.

نظر إليها أبوها نظرةً ذهلتْ لها أنظارهم جميعاً وخفقتْ لها قلوبهم، وقد جحظتْ عيناه، وكمد وجهه كأنه ينازع بقايا روحه، وقال بصوتٍ مرتجف:

_ غير معقول، أنا لا أُصدق ما أسمع.

هرعتْ إليه زوجته لتمسكه، وقد تراءى لها بأنه سيتهاوى أرضاً بفعل صدمته، لكنه تماسكَ وتجلّد وصاح بابنته صيحة يأسٍ:

_ هلمّي واجمعي ثيابكِ وأغراضكِ، وارحلي معه إلى غير عودة.

حاولتْ ماريا النطق لتطلبَ منه إمهالها إلى صباح الغد حتى ترتبَ أمورها، لكنها أبتْ أن تذلَّ نفسها، فالتفتت إلى عادل تقول:

_ انتظرني يا عادل ريثما أحضر حقيبتي.

دخلتْ بسرعة إلى غرفتها بينما انسحبَ عادل صامتاً، وخرجَ لينتظرها تحت سياط المطر اللاذعة، لم يكن بإمكانه تحديد الخطأ من الصواب، كان ضائعاً عن نفسه وأفكاره، لا يحسّ أو يشعر بشيء، كل ما يعلمه ويدركه أنّه يحبّها حباً لا يستطيع ردع جبروته، أو التملص من قبضة حكمه.

لم يطل انتظاره حتى خرجتْ ماريا وبيدها حقيبةٌ، فأخذها من يدها، وقبل أن يسيرا انتزع سترته بخفةٍ ليضعها على رأسها مدارياً عنها المطر.

رحلتْ ماريا تاركةً والدها يُصارع مصابه ونكبته، ووالدتها التي فقدتْ كل أمل لها بالحياة، حتى صارا كجثتين هرمتين لا تقويا على الحركة أو الكلام.

لم ترضَ ماريا السكن في القرية مع عادل، بل ارتأتْ أن يستأجرا غرفةً في دمشق بعيدةً حيث لا أحد يعرفهما، وما كان من عادل إلا تنفيذ رغباتها كالعبد المستميت بخدمة مولاته، محاذراً كل الحذر التفوّه بحرفٍ حتى لا يزعجها، لكنه موجوع منها وعليها بآن واحد.

انقضتْ شهور حمل ماريا، ووضعتْ أنثى، بوجه ملائكي بريء، فتوهّجتْ بصدر عادل عاطفةٌ جيّاشةٌ تجاه تلك الطفلة التي أعطاها اسمه

دون تردّد لتصبح ريم عبد الحق، بعكس ماريا التي كانت تكافح بشدّة مشاعر أمومتها ولم تبدِ أي سرور أو رضا بمولدها، لأنّها تذكرها بعارها، وبالشخص الذي أحبته بعمق وأشهر خناجر الغدر ليطعنها طعنةً قتلتْ كل عواطفها.

وانبرى عادل يعمل ليل نهار ليغطي نفقة ماريا وابنتها، ولم يعترض يوماً على أيّ شيء لدرجة أنه كل سنوات زواجه لم يتجرأ على لمس ماريا أو حتى الدنو منها، فهو يعلم حدوده في قلبها، إنه يعيش لأجلها وفي سبيل راحتها وهنائها، راضياً قانعاً بقدره الذي خطّ له الحرمان مذ خُلقَ، وكان كالراهب الذي ينذر عمره في خدمة الله مصلياً في محرابه، صابراً على وحدته.

وماريا التي جزأتها الأحزان، وبعثرتْ أشلاءها لم تشعر بما حولها، وخصوصاً بعد أن وصلها نبأ وفاة والدها بأزمة قلبية بعد رحيلها بسنةٍ، ولحاق والدتها به بعد أشهرٍ قليلة.

وهنا دفنَ عادل كلّ آماله بجعلِ ماريا تعود أنثى تبتسمُ لضئيلٍ من الفرح.

مضتْ الأيام لتتكدّس وتصير شهوراً، والشهور لتنضج وتغدو سنوات ولمّا يزل عادلٌ كالآلة الصمّاء يعمل دون كلل أو ملل، لا يأتي إلى الغرفة إلا وقت الغداء، فيمكث بضع ساعات ويذهب.

وبعد مرور ستة أعوام حيث كان اليوم الأول لريم في المدرسة رجع عادل مهدود القوى، متهدّج الأنفاس إلى البيت ليرى ماريا مختلفةً عن أيّ يومٍ

آخر، ترتدي فستاناً أبيضاً يكشف عن ساعديها، فهو لم يعتد رؤيتها إلا في ثيابٍ سوداء محاطةً بهالات الكآبة طيلة سنوات زواجهما المزيّف.

ألقى التحية واستأذنها مُبعداً نظره عنها ليدخل الحمام، وما إن انتهى من الاستحمام بذهنٍ شارد، وخرج حتى وقف مصعوقاً، مبهور الأنفاس تكاد الدهشة تقتلعُ عينيه من محاجرهما، لقد كانت تقفُ على مقربةٍ منه وقد تعرّتْ من فستانها وظلّتْ في ثيابها الداخلية الشفافة وهي ترسمُ على وجهها ابتسامةً ناعمةً لطالما فتنته وأحبها كثيراً.

بقي عادل مسمّراً مكانه يحاول إيجاد طريقة ليهرب منها، ليس كرهاً أو نفوراً إنما جهلٌ بالأسباب التي دفعتها لمثل هذا التصرف.

قالتْ ماريا وقد أدركتْ ما يجول بخاطره:

_ أما حان الوقتُ لتأخذ حقوقكَ يا عادل؟

يخلقُ بي أن أهبكَ روحي، وأظنها رخيصةً أمام تضحياتكَ وشهامتك معي طيلة هذه السنين.

اصفرّ وجه عادل وما زال جامداً منهدّ الحيل من هول ما رأى وسمع، وجعل يتفحصها بعينين ذاهلتين توشك على الانهمار، لكنه قشع بغتةً حالة الجمود التي اكتنفته لتضطرم النار في صدره.

مشى بخطوات واهية متجاوزاً إياها، قاصداً السرير، واختطفَ الفستان الأبيض الذي انتزعته منذ دقائق عن جسدها وعاد إليها ممسكاً به بين يديه قائلاً:

_ ليس لي حقوقٌ عليكِ يا ماريا، فقد أنفتُ أن أكون كلباً بين قدميكِ تديرينني كيفما شئتِ، ولستُ معترضاً على حكم قدري ولا....
وغصّ بدمعه الذي أرغمه على الصمتِ، لكنه استعاد رباطة جأشه وتابع قائلاً:

_ لا أريد جسدكِ يا حبيبتي، رغم أنّي أفتديكِ بروحي وأحبك لدرجة القداسة، فأنتِ لا تملكين ما تقدمينه لي إلا جسدكِ، وأنا لا أقبله وحده، وليس هذا فحسب، بل مستعدٌ للعيش عمري كله إلى لحظة زوالي في خدمتكِ دون أن ألمسكِ، وكي يطمئن قلبكِ أكثر أؤكد لكِ أنني تنازلتُ عن حقوقي إن كانت لي حقوقٌ محصورةٌ في النيل من جسدكِ.
ناولها الفستان ولما أبتْ أن تمدّ يديها لتأخذه تقدّمَ منها وأخذ يُلبسها بيديه كما يُلبس بالعادة ابنته ريم وهي أمامه بلا حراك، تشعرُ بخيبة كبيرة لأنها أرادتْ أن تعطي ذلك الرجل الذي يموتُ لتحيا وابنتها بعضاً من السعادة، لكنه أبى أن تكون سعادته في فراشها.
وبعد انتهائه من إلباسها الفستان استدارَ متجهاً نحو الباب ليخرجَ هارباً من تمزّقه، فقالتْ له بصوتٍ قوي طافح بالحسرة:

_ كيف أجعلكَ سعيداً يا عادل؟

لم يلتفتْ إليها، بل أجابها وبصره مصوبٌ باتجاه الباب:

_ عندما أشعر بأنكِ تحبين عادلاً حُبّاً غير مكسوّ بالشفقة أو مغلف بإحساس الذنب تجاهه، وعندما تقولين له "أحبكَ" وتشعّ عيناكِ بوميضٍ يقرأه قلبي، وقتها سيكون عادل الرجل الأسعد على الإطلاق.

_ لكني يا عادل....

_ لا تقولي شيئاً يا ماريا، الحب ليس لفظاً مرتجلاً من الألسن، إنما هو لسانُ القلبِ ولغة الروح، فأنا أعلمُ إنْ كانت شفتاكِ من تنطقان به أمْ قلبك، وإني موقنٌ أشدّ اليقين بأنّ قلبكِ لم ينبضْ بالحبّ لي بعد.

ومشى بسرعةٍ متوارياً خلف الباب.

عشرونَ عاماً قد مضتْ، ولم تنسَ ماريا بأنّ أحمد توفيق العامري هو الذي قتلها وقتل عادلاً، وأرداها جثةً لا تثق حتى بذرات الهواء التي تدلفُ رئتيها أهي أوكسجينٌ أم سموم؟ ولا بحبات المطر إنْ كانت نعمةٌ أمْ نقمة؟ لقد جعلها ضحيةَ قلبها الذي استلَّ سكاكين غدرٍ بعد أن شحذها وطعنها بها.

وها هي الأقدار اليومَ تسخرُ منها، فيلتقي ولدُ قاتلها بابنتها، وقد أوشكَ أن يقتلها دون أن يدري أنها أخته من لحمه ودمه.

انتفضتْ ماريا من فراشها كالملسوعة، وأخذتْ ترنو إلى ابنتها النائمة في السرير المجاور، وأخذتْ تُحدثُ نفسها برعبٍ:

_" لن أدعَ أحداً من تلك العائلة يعلم بأنَ ريماً ابنةُ ذلك الجاحد الظالم، إنها ستبقى مدى العمر ابنة ذلك الرجل الشريف الوفيّ عادل عبد الحق.

الفصل الثالث

"أناشدكِ ألّا ترحلي

-1-

أصبحَ عزامٌ في نعيمٍ يفوقُ مقدرةَ تخيله، إنّ حبّهُ لشيرين يتضاعف كلما زاد حجم بطنها بطفله المنتظر، ولم يكن أسعد حالاً منها، فهي ورغم كلّ أسقامها المتكاثرة عليه بسبب الحمل، تهتمّ بزوجها كلّ الاهتمام، وتقوم بأعمال المنزل دون أن تشعرهُ بتعبها وثقلِ حركتها، فبغية آمالها أن تسعدهُ، وترى ابتسامته كل الأوقات، تحنو عليه، وتلاطفه، حتى أنها تهدهده ليغفو بين أحضانها كطفلٍ رضيعٍ ليس له إلا صدرها، وتطعمه بيديها بعد أن ينالَ حصةً وفيرةً من عناقها وتقبيلها.

إنها منذ لقائها الأول به قد جعلته محور حياتها، وعلّة وجودها، وجوهر سعادتها، فهو النصف الذي يكمّلها، فما دامَ عزامٌ في الحياة فهي تعشق الحياة، وتشتهي عمراً كاملاً من اليقظة لتراه، ودهوراً لتحتضنه بما يكفي، وكثيراً ما كانت تكرر على مسامعه بأنها تشتهي الخُلد لأجله.

وهو كذلك اختصر كل النساء وجمالهنّ وحسنهنّ بها، وأودعها في معابد قلبه قديسةً خالدةً ما دامَ في فؤاده نبضٌ، وفي صدره أنفاسٌ.

كانت الأيامُ تتلوّنُ معها بألوان الربيع الزاهية، وقد صبغتْ أكوانه بنكهات الحبّ الشتّى، فانتهجَ في هواها منهج والده في حبّ عليائه، ولم يجلْ في خاطره أو يتوقع يوماً أن يطعن به الزمن الذي راقَ له مُذ وُجدَ على وجه البسيطة، ولا أن تخدعه الدنيا التي كثيراً ما أغدقتْ عليه من متاعها وهنائها ويسرها.

لن ينسى عزامٌ ما عاشَ يوم جاء المخاض لزوجته، كيف حملها بين ذراعيه هلعاً، وهي تتلوى ألماً، لقد وقفَ عاجزاً أمام هذه الآلام العظيمة، وأخذ يبكي عليها كطفلٍ مداهمٍ بظلامٍ تشوبه أشباح الخوف، إنّ حزنه عليها حجبَ عنه التفكير بمجيء طفله، فغدا جلّ اهتمامه أن تنتهي أوجاعها، وصراخها الذي مزقه تمزيقاً أودى به إلى عضّ أصابعه ندماً، لأنه قرر أن يصبح أباً.

وقف في صالة الانتظار بمستشفى التوليد، ينتظر خروج الطبيب والممرضات بفارغ الصبر، لم يكن ليواسيه وجود أحدٍ من أهله وأهل شيرين الذين تجمهروا حوله، وجاؤوا ليستقبلوا الحفيد المنتظر بوجوه طافحة بالبشر.

ورغم احتضان والدته له، وكلمات أبيه المتوقدة حناناً، وهدر دموعٍ سخية من مآقي أخته عفراء تعاطفاً مع لوعته، إلا أنه أحسّ بالوحدة القاتلة لغياب شيرين، وليس هذا فحسبٌ، بل إنّ صدره أطبق إطباقاً منعَ بحزمٍ مرور تنهيدةٍ تُدخلُ إليه شيئاً من الارتياح، وطال انتظاره أكثر من اللازم

ليعبثَ الوقت المتباطئ بأعصابه، حتى كاد يتلفها، وتتراقص أمام عينيه الهواجس القاتلة، فصدى أنينها يضجُّ في رأسه، ويثير خوفه، وخيال دموعها قبل دخولها غرفة المخاض يُدمي وجدانه وكيانه المترنح.

وفجأةً توقفَ صراخها، لينطلقَ صراخ الطفل الذي دفع علياء على البكاء من فرط سرورها لسماع صرخة الحياة التي دوتْ من حفيدها، وأحمد إلى رفع رأسه متمتماً بكلماتِ امتنانٍ وشكرٍ يوجهها إلى الله لقاءَ خلاص زوجة ابنه بخير.

بصعوبةٍ استطاع عزامٌ أن يتنهدُ ارتياحاً لنفاد وقتِ الانتظار، لكنّ فكره ظلَّ ملازماً لزوجته، فهو لن يصفو أو يهنأ حتى يطمئنَّ عليها، ويكلمها محتضناً إيّاها، سيعانقها كما لم يعانقها يوماً، عناقَ غائبٍ ظامئ عائدٍ بعد سفر طويل مُجهد، لقد أتلفه عذابها إتلافاً، وقذفَ به إلى دركات من الهمّ لا تُحتمل حتى جعله كطيفٍ تائهٍ بلا مصير، وقرر بينه وبين نفسه، بأنها ستكون المرة الأخيرة التي يفكر بها بالإنجاب، فهو مكتفٍ بوجودها، وغنيّ بها عن كل الوجود.

بعد قليل خرج الطبيب باسماً تتبعهُ إحدى الممرضات، التي بدأتْ تباركُ وتهنّأ العائلة بولادة طفلٍ يُحاكي القمر جمالاً، ودعتهم إلى الدخول.

ركض عزامٌ مقتحماً الغرفة يبحث بلهفةٍ عن شيرين، فوجدها مستلقية وقد وهنتْ كثيراً، وشحبَتْ شحوباً مخيفاً، تغمض عينيها نصف إغماضة.

ضمها عزامٌ إلى صدره وهو عاجزٌ أن يمنع دموعه من الانسكاب، وبدأ يرتجفُ ويجهش بالبكاء طالباً منها أن تسامحه لأنه تسبب لها بهذا الألم.

فتحتْ شيرين عينيها بصعوبة، وهمستْ له وهي تشدُّ ذراعيها حول رقبته:

_ تعالَ لنتعانقَ فحتماً سنفترقُ، إنّه ليسعدُ قلبي أن أخزّنَ رائحتكَ في ذاكرتي، فتغدو جزءاً من ذكرياتي التي سأحملها حتى مماتي.

رجفَ قلبُ عزامٍ من كلماتها، وضمها بقوة أكبر وهو يتمتم مذعوراً:

_ حتماً سنفترق؟

لم تقولين هذا يا حبيبتي؟ أما كنتِ تشتهين الخلود لأجلي؟

أرجوكِ لا تقولي هذا، فأنا وأنتِ سنعيش سوياً أو نموتُ سوياً.

وقفَ أحمد وعلياء خلفه بعيونٍ طافحةٍ دمعاً، متأثرين بحالته أشدّ التأثر، وعاد الهاجس الأسود يطفو في نفس عزام، وقد تيقّنَ بأنّ سوءاً سينال منها، فالتنبؤ بالسوء كالبوق الذي يوقظ كل العوامل السيئة للتوافد علينا، والذي غرس تلك الهواجس والتنبؤات كلمات شيرين اليائسة، بالإضافة لأوامر الطبيب بعدم خروج شيرين من المستشفى، وقد طلب وضعها تحت المراقبة لاشتباهِ خلل كبير في ضغط الدم، فلم يكن ليستقر على وضعٍ طبيعي فإما هبوطٌ مفاجئ أو صعودٌ فوق الحدّ.

تبدّلتْ سحنةُ عزام هو يراقب وجوه الفاحصين الواجمة من الأطباء، وأخذ ينهال عليهم بأسئلته ملتمساً الطمأنينة، لكن لا جواب يُشفي اضطرابه وقلقه المتزايد.

بدا الأطباء منهمكين بأخذ المعلومات من والديها، والتي كان مفادها معرفة إنْ كانت تعاني سابقاً من آفة في القلب فأجابوه سلباً، لكن طبيبها لم يقتنع بإجابتهما، وطلب لشيرين فحوصات وصور دقيقة لعمل القلب، وكانت شكوك الطبيب في محلها، لقد جاء حملُها وولادتها كمقصلةٍ فصلتْ روحها عن جسدها بسبب الجهد الذي بذلته أثناء الولادة، ولم يتحمّله قلبها الضعيف، وماتت شيرين، فارقتْ الحياة قبل أن ترى مولودها، وتحتضنه بين ذراعيها، وكأن موتها بهذه السرعة ككسوف لوجه الشمس مباغت غطى بظلماته كل نور في الدنيا.

حملقَ عزامٌ بعيونٍ امتلأتْ دمعاً خاله كأنه دمٌ تدفق من قلبه المكلوم، غير مصدقٍ لما حصل، فهل تموت سعادته كلها في لحظات؟ هل ينطفئ نور عينيه بمثل هذه السرعة؟ هل يتقمصُ الموتُ حياته، ويحشرها في غياهب القبور دون سابق إنذارٍ؟

تعالى النحيبُ والنشيجُ حوله، وانقلبتْ أفراحهم إلى ترحٍ كبيرٍ وحزنٍ مخلوط بصدمةٍ كادتْ تطيحُ بعقولهم.

وقفَ عزام يمتحنُ جسدَ شيرين الذي فارقته الروح، فكيف لها أن تموت! وكانت في كامل صحتها وقوّتها وبكامل أملها المتجدد الذي لم يخبو يوماً ببناء حياةٍ ملؤها السعادة والفرح معه ومع ولدهما الذي انتظراه بفارغ الصبر؟

انكبَّ على ذلك الجسد المسّجى كالمهزوم، وقد أمسكَ بيدها متضرعاً ألّا تتركه وترحل، وأخذ يتوسلُ إليها بكلمات تقطّع الأكباد وقد تراءى له أنها تسمعه فلا بدّ أن تسمع:

_ حبيبتي أجيبي أناشدكِ بالله أن تُجيبي

أناديكِ أفلا تسمعي!

أناشدك ألا ترحلي أرجوك يا حبيبتي..

وفقد وعيه على جسدها الذي ما زالَ يحتفظ ببعض حرارته، بذلَ أحمد أشدّ ما بذله من التجلّد، لكنه ما استطاعَ مقاومةَ غليان صدره المكتوم، فانفجر يبكي بصوتٍ عالٍ وعلياء منهارةُ القوى، متداعية على كرسيّ بجانب سرير شيرين، بينما والدا شيرين يلطمان وينتحبان، وما من أحدٍ مكترثٍ بصراخ الطفل الجائع الذي كُتبَ له في لوح القدر ألّا يذوق حليب أمّه منذ انبثاق فجر حياته.

-2-

بمديتنا ذبحناهُ
حبٌّ عالقٌ فينا .. ساكنٌ فينا
كنّا فيما مضى من العمر قد عبدناهُ
بمقصلةٍ فرمناهُ
ولم تهربْ من رأسه المبتورِ الأحلامُ
ولم ينضبْ ماء عشقه حتى حين دفنّاهُ
ماتَ نازفاً حبّاً
نازفاً حنيناً
آثارُ الطعنِ تتجلى لكّل مَنْ يراهُ
ولكلّ مَنْ لا يراهُ

كانت هذه الكلمات تنسابُ من فمِ مطربٍ عذبِ الصوتِ، عالي الإحساس، فتهيمُ لوقعها الروح سكرى من دفء معانيها، وعذوبة انسيابها، تنبعث من الراديو بجانب ماريا التي تجلسُ خلف ماكينتها، تخيطُ ثوباً لإحدى السيدات، بينما قلبها ينفطر لكل كلمةٍ منها، حتى أنها لم تشعرْ بمجيء ريم وتسمّرها قبالتها، فوجلتْ وهي تراها في البيت بمثل هذه الساعة على غير عادتها.

نهضتْ تسألها باستغراب:

_ ما الذي جاء بكِ باكراً يا ريم، هل أصابكِ مكروه؟

قالتْ ريم ولا تزال ملامحها في دهشةٍ كبيرة:

_ أمي هل يُعقل ألا تنتبهي لدخولي، ولصوتي وأنا أناديكِ؟

ردّتْ ماريا بحرج:

_ آسفة يا حبيبتي، فقد احتلني الشرود، فسرحتُ قليلاً ولم أنتبه.

_ لا عليكِ يا أمي، لقد صدرَ أمرٌ بانصرافنا جميعاً، بعد أن اطّلعنا على خبرٍ مؤسفٍ ومؤلمٍ للغاية.

_ ما الخبر يا ريم؟

هزّتْ ريم رأسها، وقالتْ بصوتٍ مضطربٍ:

_ إنّه ليؤسفني إخباركِ بأنّ زوجة عزام توفّتْ يومَ أمسٍ وهي تضع مولودها.

شهقتْ ماريا مستنكرةً ما سمعت وصرختْ:

_ يا للمصيبة! أحقاً ما تقولين؟

أومأتْ ريم برأسها آسفةً وأردفتْ:

_ لقد كان الخبرُ صاعقةً للجميع.

مشتْ ماريا بضع خطواتٍ تائهةٍ، وكفُّها على خدها تعبيراً عن حسرتها، وهي تتمتم:

_ وأسفاً على شبابها! لقد أحببتها من أعماق قلبي لما كانت عليه من وداعة ولطف.

وبدأتْ تذرفُ الدموع، وهي تستعيد في ذاكرتها مشهد ذلك اليوم الذي جاءتْ بصحبة عزام إلى بيتها، وشاركتها ريم البكاء، لأنها ورغم غيرتها منها، فإنها لمستْ منها العطف والمودة والقلب الكبير فيما مضى.

كالعادة جاء عادلٌ في الثالثة والنصف من العمل، بينما كانت ماريا وريمٌ في المطبخِ تحضّران وجبة الغداء وتتحدثان عن شيرين.

تفاجئ عادل بوجود ريم التي ركضتْ إليه تعانقه اشتياقاً، فسألها إنْ كانت بخير، أجابتْ مصاحبةً كلماتها تنهيدة عميقة:

_ انصرفنا لأنّ زوجة السيد عزام توفيت بالأمس وهي تضع مولودها.

لمْ يبدِ على ملامح عادلٍ أيّة علامةِ تأثّرٍ من وقع الخبر، بل إنّه تجاهله كأنّه لم يسمع شيئاً، واتجه إلى الحمام غير مبالٍ، فما كان من ريم إلا أن رفعتْ حاجبيها متفاجئة من لامبالاته، واقتربتْ من أمها وهي تتساءل بصوتٍ مسموع:

_ مستعدةٌ أن أخسرَ نصف عمري، وأعرفَ سببَ كره أبي لعائلة السيد عزام.

رمقتها ماريا بضجرٍ، وقالتْ بعد أن ألقتْ نظرة على الأرز المطبوخ، ممسكةً بالملعقة لتتذوقه:

_ لا تدفعي شيئاً من عمركِ أرجوكِ، وخفّفي من فضولكِ الزائد، كلّ ما في الأمر أنّ أباكِ ووالد عزام على خلاف من أمدٍ بعيدٍ، ليس بذي أهمية، فلا تشغلي بالكِ بتلك الأمور.

خيّمَ الصمتُ المعتاد عليهم أثناء جلوسهم على المائدة لتناول الطعام، لكنّ ريماً التي تضيق ذرعاً بهذا الصمت الذي يحترفه والداها، ولا تحترفه هي تنحنحتْ وقالتْ وهي تمضغُ لقمتها:

_ لقد اتفقتُ مع زميلاتي في الشركة أن نذهبَ معاً بعد بضعةِ أيام إلى منزل عائلة السيد عزام لتقديم التعزية.

وفي لحظاتٍ سكنتْ حركةُ فمِ عادل، ورمقها بعتبٍ ممزوج بحزنٍ، وما زاده ألماً هو ردّ ماريا على قول ابنتها:

_ العزاءُ واجبٌ يا عزيزتي.

لأول مرة يعترضُ عادل على رأي وقول ماريا، ويكون في لهجته هذا الكمّ من اللوم، فقال بتذمرٍ:

_ يبدو أنّه لا أحدَ يكيلُ وزناً لأقوالي ورغباتي هنا.

بُهتتْ ماريا من قولهِ وردّتْ بنبرةِ استعطافٍ:

_ لا تقل هذا يا عزيزي، فأنتَ سيّد هذا البيت، وكلامُكَ قانونٌ لا نملكُ حقّ تجاوزه أبداً.

وغمزتْ له بعينها خلسةً دون أن تراها ريمٌ لتتابع:

_ إنما قصدُ ريم بأنّ عزاءَ صاحبَ الشركة التي تعمل بها واجبٌ، وهي لن تذهب بمفردها بل مع موظفات الشركة، وإذا كنتَ معترضاً على ذهابها فلن تذهبَ بالتأكيد.

والتفتتْ إلى ريم تسألها:

_ أليس كذلك يا حبيبتي؟

لم تجبْ ريمٌ، وإنما بقيتْ مطرقةً برأسها، ترنو إلى صحنها، وتلاعبُ بأناملها الملعقة دون غايةٍ متعجبةً ضمنياً لغموضهما وانطوائهما على أسرارٍ باتتْ تؤرقها وتُخيفها كثيراً.

تمتم عادل وهو يمسح فمه بمنديله متجّهماً:

_ فلتفعل ما تشاء.

ونهضَ مستاءً باتجاه الحمام تتبعه ماريا، همستْ له بعد أن ابتعدا عن ريم:

_ أرجو منكَ أن تكظمَ غيظكَ قليلاً، وتخفّف من إظهارِ نفوركَ تجاه هؤلاء الناس علانيةً، فأنا أحسّ بأنّ الشكّ يساورها، ولا أريد أن تبدأ بالتقصي والتنقيب عن ذلك الماضي الملوّث بأخطاء والدتها، وإنها لسوف تتجرعُ الآلام باكراً، وقد يقتلها هذا الأمر يا عادل.

استدار عادلٌ إليها، وقد شعر بتأنيب ضميره على ردود أفعاله التي دبّتْ بقلب حبيبته الأحزان، التي ظنّها قد دُفنتْ من زمنٍ طويلٍ فقال هامساً:

_ لا تتكلمي عن نفسكِ بالسوء يا ماريا، وأنا لستُ أجدباً، ولا أحمقاً لأجعل ريم تعلمُ أمراً دفنّاهُ سوياً، فهي ابنتي أنا، أنا مَنْ ربيتها، ورويتُ جذورها برعايتي ومحبتي، وزرعتُ فيها الخير والضمير الحيّ، لتنمو أغصانها خضراء يانعة، تظلّلُ قيظي وتبلّلُ صحرائي، ولن أدعَ شخصاً

سافلاً عديم الضمير والأخلاق أن يجني حصيلة تعبي وعنايتي، ولو كلفني هذا الأمر حياتي، وكلّ ما أرجوه منكِ الآن نسيان الماضي بكلّ ما فيه، فأنا ما خُلقتُ إلا لأقشعَ عنكِ غبار الأحزان فهل تعديني؟

أومأتْ ماريا برأسها، وقد أدمعتْ عيناها تأثراً، وقالتْ له :

_ ليرعاكَ الله لنا يا عادل ويحفظكَ، نعم أعدكَ.

***

الموتُ لا يُغيّبُ أحداً عن الذاكرة، هو فقط يجعلهم متوارين عن الأنظار، لقد كانت أيام الحداد ثقيلة الخطى، وموحشةً كليلٍ فقدَ كل أنوارهِ واستوطن بحلكته على جميع أفراد العائلتين، عائلة أحمد توفيق، وعائلة الطبيب سالم بدر.

بقيَ عزامٌ صامتاً محزوناً، لم يقوَ على احتواء حزنه، يشعرُ بمرارة الوحدة ووحشتها، رغم كل مَنْ حوله، فكلّ الأماكن المنيرة، والطرقات الآهلة، والتفاف الناس موحشٌ وغريبٌ مادام يخلو من رنين خطوات شيرين، وعبقها، وصدى ضحكاتها، لقد كان يعود إليه كل حين رجْعُ صوتها بصدى بعيدٍ، فتتداعى إرادته، وتنهار مقاومته، فينكمشُ كعصفورٍ ذبيحٍ هاربٍ من الزوابع، مبلّلاً، مرتجفاً من بردٍ ينخره بقسوةٍ، مرتجياً دفئاً من فضاءٍ اعتقلته جحافل الثلوج بلا رحمةٍ، فيستسلمُ للموتُ البطيء دون مقاومة.

مضتْ أيامٌ وأيامٌ وهو لا يفتأ يتذكرُ بلوعةٍ كل لحظةِ حبٍ عاشها مع شيرين، وكل كلمةٍ كانت فيما مضى بمثابة ميثاقٍ بالبقاء أبداً، فأين العهود والمواثيق؟ وأين سيجدُ حُبّاً يغسله من انكماشه وتحطمه وانهياره كحبّها له؟ لقد تاهَ بعدها وحيداً توهَ طائرٍ ضئيل في ليل شتوي عاصف لا مكان فيه للحنان، لم يجد فيه إلا أطناناً من الذكريات التي تصوّر له الحاضر والآتي، كغمائمَ سوداء تلتهم كل ربيعٍ سيدلف عمره.

ظلّ يتجرعُ ألمه دون السماح لمخلوق بمواساةٍ قد تصطحبُ القليل من الارتياح حتى وهنَ جسده، وتكاثرتْ به الأسقام، بدا كشبحٍ أصفرٍ ينتظرُ حتفه بعيونٍ حمراء، يتأرجح بين الموت والحياة، تلازمه الحمّى والحرارة المرتفعة المصحوبة بهذيان لا ينقطع، مردّداً اسم شيرين في غيبوبته، بينما ينضحُ العرقُ من سائر جسده المحموم.

وكان طبيبُ العائلة يلازمه أغلبَ الأحيان، ويرعاهُ مع ممرضته رعايةً خاصةً جداً، ليدرأ عنه موتاً متربصاً، لكن أيّة جدوى من ذلك، وطيفها يمرّ في أروقةِ وجدانه متدثراً بعباءةِ الغياب السوداء، يزأرُ في ليلٍ من الصمتِ، يزلزلُ حنايا القلب ومحيط كيانه، ولا يلبث أن يرنو بعينيه، يستجدي الدمعَ لتهدأ قليلاً ثورة براكينه، وأخذ متنفسه الوحيد من الهلاك هو مرور طيفها الذي يبلّلُ ما تصحّرَ من قيظ الشوق، وما يبس من أوراق شبابه، يعلّل روحاً صُلبتْ بمسامير من نار، ولا يحتملُ وجعها جبروت زمانه.

وكان عزام كثيراً ما يهبُّ جالساً في سريره وسط الظلام، يُحدثُ طيفها بمرارة:

_" رحلتِ رغماً عنكِ، لا ألومكِ لأنكِ أضعفُ من الموت، وكلّنا أضعف منه، وأنحلُ عوداً من أن نلوي ساعده، لكن يا محبوبتي البائسة رحيلُكِ جعلني مشرداً عن عواطفي لا أُميّز لونها، لقد خطف موتكِ تذوّقي لنكهة ما ألتهمه، حتى عجزتُ أن ألمسَ طفلنا الذي كُتبَ عليه اليُتم والشقاء منذ انبثاق فجر حياته، أيكون كلّ ما بداخلي قد مات، ودُفنَ معكِ؟

ليتني أبكيكِ دموعاً تُغرقُ كل حياتي، ليصلَ بي حزني إلى وضعِ حدودٍ لها، فأُعلّقُ مشنقتي، وأصنعُ حبالها من ضفائركِ، فأنا الآن أعيشُ نصف حياةٍ ونصف موت، يتدفق الدم بأوردتي وشراييني، وعيناي ترمشُ، وقدمايّ تسير، وأظن بأنها قادرة على قطع مسافاتٍ لكني بلا روح تنتشي، وبلا قلب يخفق حبّا أو كرها، وبدون نفسٍ تطفح بانفعالات...

أيّ نارٍ أشدّ إيلاماً من نار فرقة حبيب تنفسناه زمناً، وتخلّلَ حبه في ثنايا وعمق الروح!

أعترفُ لكِ يا حبيبتي بأنني هشٌّ، ولستُ معتاداً على الحزن..

-3-

تبدّلتْ أحوال الجميع بعد ذلك الحدث المباغثْ، فهدأ ضجيجُ أحمد، وصار أكثر الأوقات شارداً، تعانقُ أصابعه المنكمشة صفحة خدّهِ، يطلقُ زفراته المحمومة، وعلياء اتشحتْ برداء صمتها، مداريةً قلباً ملتهباً، متحسراً على حال ولدها البائس، ومنزلهم لا يخلو ساعةً واحدةً من الناس الذين يأتون لتعزيتهم.

في صبيحة اليوم الرابع لوفاة شيرين، انهمكتْ وداد بإعداد طعام الفطور للأسرة المفجوعة، حيث جلستْ علياء مع زوجها وابنتها على المائدة ليجبروا أنفسهم على أكلِ لقيمات، فتعالى جرسُ الباب لكنّ أحداً لم يعرْ انتباهاً لهذا الرنين.

راحتْ وداد لتفتح الباب، وقد لوتْ فمها تذمّراً من ذلك الزائر المجهول الذي سيجبرهم حتماً عن وقف مواصلة طعامهم.

غابتْ وداد لبضع دقائق وعادتْ تقفْ على مقربة من المائدة وهي توجّه كلامها إلى السيدة علياء:

_ سيدتي في الباب شخصٌ يُدعى لؤي يقول أنه ابن عمكِ.

ولم تكد علياء تسمع باسمه حتى امتقع لونها، وتقطّبَ وجهها، وزاغتْ عيناها، فانبرى أحمد يقول واثباً عن كرسيه:

_ لؤي هنا؟

لا أُصدق، هيّا يا وداد أسرعي وادعيه للدخول.

وسارعَ أحمد إلى الحمام ليغسلَ فمه ويديه لاستقباله، بينما لا تزال علياء واجمةً، تعتلجُ همّاً ثقيلاً في قرارة نفسها، لكنها استعادتْ رباطة جأشها، ونهضتْ لتستقبل ابن عمها الذي مضى على غيابه أكثر من ثلاث عشرة سنة، ولم تكدْ تصل إلى الصالة حتى كان أحمد قد سبقها إليه فاتحاً له ذراعيه، ليحتضن صديق عمره لؤي مهنئاً بسلامته.

أخذتْ علياء تتفحصه، لقد تغيّر بعض الشيء، وأصبحَ أكثر بدانة من قبل، بشعرٍ قصير مع تناثر بعض الخصلات البيضاء على جانبي رأسه، لكنه لا يزال وسيماً كما كان، كان يرتدي بزّةً سوداء، وقد شذّبَ ذقنه لتعطيه مظهراً جذاباً بالإضافة إلى إشراق عينيه الشهلاوتين.

وقف لؤي منتظراً اقتراب علياء، لكنّها تسمّرتْ مكانها مترددة، فاقتربَ منها ومدّ يده مصافحاً:

_ كيف حالكِ يا ابنة عمي؟ ألستِ مسرورة برؤيتي؟

استدركَ أحمد الموقف قائلاً:

_ كيف تقول هذا يا لؤي؟ إننا جميعاً مسرورين بقدومكَ، لكنّ علياء في حالةٍ سيئة للغاية بسبب وضع عزام الذي فقدَ زوجته، أظنّ أنكَ سمعتَ ما حدث له.

هزّ لؤي رأسه بأسفٍ بالغٍ، وغالبَ شعوراً بالأسى بإغلاق عينيه لوهلة ومشى متجاوزاً أحمد وعلياء، وأخذ يجول في بهو المنزل بقامته الطويلة الممشوقة يتأمل كل جزءٍ من المنزل الواسع الذي أبهرهُ فيما مضى

تصميمه المتقن على الطراز التركي، يتوسط الصالون درجٌ خشبي مكسوّ بسجاد أحمرٍ عقيقي يودي إلى غرف النوم.

كان القسم السفلي مكونٌ من صالون فسيح، وغرفة متوسطة، جعل منها أحمد مكتباً له ولعزام، فيها كل ما يخصّ شركتهما، وإلى جانب تلك الغرفة يوجد غرفة أكبر منها، استحوذ عليها أحمد وعلياء.

كان لؤي يعرف كل تفاصيل هذا المنزل الذي لم يطرأ عليه أيّ تغيير منذ أعوام كثيرة، ولم يفقْ من شروده إلا بظهور عفراء أمامه، فلم يستطع كتم صيحة مباغتة:

_ لا تقلْ لي يا أحمدْ أنّ هذه الحسناء الفاتنة هي ابنتكَ عفراء، التي لطالما بلّلتْ ثيابي عندما كانت رضيعة؟

أجابَ أحمد بفخر:

_ نعم إنها شمعةُ حياتنا عفراء، ألا ترى كم كبرتْ وازدادتْ جمالاً يا لؤي!

أيّده لؤي وهو يحتضنها معانقاً وقد اصطبغتْ بحمرة الخجل:

_ إنها جميلة كوالدتها بالطبع.

بينما علياء تقدحه حقداً وبغضاً، فأعقب أحمد على كلامه ممازحاً:

_ كوالدتها فقط؟

وهل أنا قبيحٌ يا صديقي حتى يأخذ أبنائي كل هذا الجمال من علياء فقط؟

غمزه لؤي وردّ بتحبب:

_ على العكس يا أحمد، فلولاك ما اكتمل جمال ولديكَ.

اقتعدَ لؤي الأريكة الواسعة واضعاً ساقاً على ساقٍ، وطلب من وداد فنجاناً من القهوة، وكأنه في عقر داره، جلس أحمد بجانبه مبالغاً في الترحيب به، ليداري جمود زوجته التي لم تنبس ببنت شفة مذ وطئ المنزل.

كانت تتعارك مع ذاتها لتلملم أشتاتها المتفرقة، ولتهدئ من اضطرابها، لكنها لم تفلحْ بالسيطرة على توترها، فجاءت كلماتها متقطعة، مضطربة:

_ الحمد لله على سلامتكَ يا لؤي، متى عُدتَ إلى سورية؟

وهل إقامتكَ هنا طويلة؟

نظرَ إليها وقد اعتلتْ قسماته ابتسامة سخرية مجيباً:

_ جئتُ من ثلاثة أيام، ولن أعود مجدداً، فقد آن الأوان لأستقرّ في بلدي بين أهلي وأقربائي.

وقعتْ كلماته كمياهٍ باردة على جسدها المفرط باضطرابه، وألجمتْ لسانها كلياً، فجأر أحمد بصوته:

_ ونعم الرأي رأيكَ، فليس أحبّ إلى قلب المرء من وطنه، وما الغربة إلا داءٌ وبيلٌ يهيّجُ مكامن الوجد والحنين بين الفينة والفينة، لقد سررتُ بسماع هذا الخبر.

ردّ لؤي عليه، ولا زال نظره مثبتاً على علياء:

_ شكراً لكَ يا صهري الطيّب، لكن أين عزام أريد رؤيته؟

انتفضتْ علياء كالملسوعة وقالتْ بتبرم:

_ إنّه نائم، وليس بوسعه مقابلة أحدٍ.

ردّد لؤي ما قالته بدهشة متفاجئاً من وقاحتها معه:

_ أحدٌ! هل أنا أيّ أحدٍ يا ابنة عمي؟

مما زاد في حرج أحمد الذي حاول تبرير ما قالته زوجته، لكن لؤي أشار إليه بيده يستسمحه ليصمت متابعاً:

_ لا تقل شيئاً يا أحمد، علياء محقة، قد تراني غريباً لا يحقّ لي إقحام نفسي في شؤونكم.

رمقَ أحمد علياء بعتب، وقد احمرّ خجلاً ليقول:

_ أنت عزيزٌ على قلوبنا جميعاً يا لؤي، لطالما كنتَ أخاً لي ولعلياء ولم تزل، إنما علياء لا تقصد ما تقوله كما توارد إلى ذهنك، كلّ ما في الأمر أنّ وضع عزام سيء للغاية، والطبيب يرفض وجود أحد معه حتى نحن.

نهضَ لؤي فجأة متجاهلاً تعقيب أحمد وتبريره، ووجّه إلى علياء نظرات تقدحُ شرار غضبٍ قائلاً:

_ سأرى عزاماً، وأطمئنُ عليه، وما مجيئي إلا بغية رؤيته، أين الخادمة لترافقني إلى غرفته؟

ومشى بثقةٍ غير مبالٍ باعتراضهما يُنادي الخادمة

_ أين أنتِ أيتها الآنسة السمراء؟

وجاءتْ وداد راكضة على أثر مناداتها بالآنسة السمراء.
وما إنْ ارتقى أعلى السلالم حتى توجه أحمد يعاتب علياء على قساوتها المفرطة في التعامل مع ابن عمها، لكنّها ظلّتْ صامتة متجهمة لا تسمع شيئاً مما يقوله أحمد.

***

وقفَ لؤي فوق فراش عزامٍ يتفحصه في غرفةٍ تغرقُ في ضوءٍ شاحبٍ، وما لبث أن جلسَ على طرف السرير مشيراً إلى وداد أن تتركه معه وحده، منتظراً أن تتوارى خلف الباب لينكبّ على جبينه يلثمه بحرارةٍ تاركاً العنان لدمعه بالانسكاب.
لقد كان عزام مستغرقاً في النوم تحت تأثير الحقن المهدئة، ولم يكن ليشعر بوجود لؤي وبدوره لؤي لم يشأ إيقاظه، بل بقي صامتاً يتأمله بتمعّنٍ، ويده تمتدّ لتتحسسه بحنانٍ، ونفسه تتساقط حسرات وآلاماً عليه.
في الصالون جلستْ علياء تترقّبُ السلالم، وقد اكتسحتها الكآبة، تنتظرُ مغادرة لؤي غرفة ولدها، فانتبهتْ بأنّ أحمد يرمقها بنظراتٍ لم تعتدها، فهمستْ له:
_ أنا آسفة يا حبيبي، لكنني بتُّ لا أُطيق هذا الشخص، إنّه نذلٌ وخسيسٌ.
رفع أحمد حاجبيه مستهجناً، وسألها بصوتٍ خفيض بعض الشيء:
_ منذ متى كان لؤي نذلاً وخسيساً يا علياء؟

أنسيتِ أنّني عرفتكِ من خلاله، وسعى بكل مجهوده لنتزوج؟
ألا تذكرين كم عانى وكابدَ لنعود سوياً بعد أشهرٍ من الحرمان كادتْ تودي بحياتي وحياتكِ؟
أنا بصراحة لا أجدُ سبباً واضحاً لنفوركِ منه بهذا الشكل، فقبل سفره لم ألحظ أنّكِ تكرهينه على العكس تماماً، كنتِ تغالين في مدحه، وتقولين أنه شاب عصامي مكافحٌ، وتُشيدين بتصميمه على النجاح، ولا أنسى لهفتكِ عليه قبل سفره، وبكائكِ على غيابه باعتباركما تربيتما سوياً في بيتٍ واحد تحت سقف واحد كالأخوة.
دلّكتْ علياء جفنيها، وأطلقتْ تنهيدة عميقة قائلة:
_ لا أنكرُ كل هذا يا أحمد، لكنّ آخر ما نمى إلى مسامعي أقاويلٌ كثيرة عنه، أهمها أنّه تزوج من امرأةٍ ألمانية، وأنجب منها ولداً، متبعاً الحيلة كي يجرّدها من أموالها، وأنا لا أحب الانتهازيين والوصوليين ليس أكثر.
قال لها أحمد وقد رقّتْ ملامحه:
_ لكن يا حبيبتي إنها حياته الخاصّة، وقد لا تخلو أقاويل الناس من المبالغات، فويلٌ لكل امرئ لاكته الألسنُ، وقذفته بالكثير مما ليس فيه، أنا أراه شخصاً جيداً، وليس لنا الحقُّ في محاسبته بناءً على أقاويلٍ قد تكون مغلوطة، أليس كذلك يا حبيبتي؟
تدخلتْ عفراء مؤيدةً رأي والدها:

_ أبي على حقٍّ يا أمي، لؤي شخصٌ جيدٌ، ولا أنسى حبه ودلاله لي ولأخي في طفولتنا، ولا شأنَ لنا بخصوصياته.

أكملَ أحمد بلهجةٍ متوسلة:

_ أرجوكِ لا تتصرفي معه بهذه القسوة، فهو ابن عمكِ، وأنا أعتبره فرداً من أفراد عائلتنا، ويجب احترام مجيئه لتعزيتنا، وخوفه ولهفته الواضحة على ولدنا عزام.

وفي هذه الأثناء رنَّ جرسُ الباب ثانيةً، وكان القادم مجموعةٌ من موظفي وموظفات الشركة، ومن بينهم ريم عبد الحق.

وتقدّمَ أحمد وعلياء يتلقيان العزاء منهم فرداً .. فرداً، وكان وجود ريم بينهم سبباً كافياً لجعلِ أحمد يضطرب ويصيبه تشنجٌ مباغتٌ في معدته، لكنه استطاع ضبط نفسه محاولاً جهده إبداء ملامح الامتنان لمجيئهم وتقديمهم واجب العزاء.

كانت ريم ترتدي بنطالاً أسوداً وسترةً سوداء بياقة عالية، وترفع شعرها بضفيرةٍ إلى الخلف لينير بياض وجهها، فبدتْ كقرصِ بدرٍ يشعُّ في حلكة ظلام دامس.

بعد بضع دقائق خرجَ لؤي من غرفة عزامٍ مكسواً بالحزن، وبدأ يهبطُ السلالم درجةً درجة بتثاقل، وقد سرى خدرٌ خفيفٌ في قدميه، مطرقاً أرضاً، يفكر بحالة عزام التي لم يظنها بهذا السوء، ويسائل نفسه عن

طريقةٍ تخرجه مما آلَ إليه، لكنه فوجئ بامتلاء الصالون بالمعزين، الذين ترتسم علامات الحزن على قسماتهم.

انبرى يصافحهم واحداً تلو الآخر، وما إنْ وقع نظره على ريم حتى تسللتْ إلى أعضائه رعشةٌ غريبةٌ، جعلته يتلعثم في ردّ التحية، فقد بُهرَ أمام حسنها اللافتْ، تراجع بضع خطوات، وأدار رأسه ليفتش بعينيه الزائغتين عن أحمد الذي كان يقف خلفه ليفسحَ له مكاناً للجلوس، لكن لؤي أمسكَ بيده هامساً:

_ تعالَ معي، أحتاجكَ في أمرٍ مهم.

ومشى إلى أقصى الصالة باتجاه السلالم يتبعه أحمد مدهوشاً، وما إنْ خلا به حتى سأله بقلبٍ يرتعش نياطه، وقد اصطبغَ وجهه بلونٍ ورديٍّ:

_ مَنْ تلك الفتاة الشقراء يا أحمد؟

جالَ أحمد ببصره بين الحضور مستغرباً، فلمْ يرَ فتاةً شقراءَ إلا ريم عبد الحق، ففطنَ بأنها هي المقصودة، فكان ردّه بلسان مرتجّ:

_ إنها موظفة في شركتنا، لكن لم تسأل عنها؟

وضعَ لؤي يده اليمنى على يسار صدره بحركةٍ مضحكةٍ قائلاً، وقد أسبل أجفانه بعض الشيء:

_ أحسّ بأنّي قد شغفتُ بها شغفاً لم يسبقْ لي الإحساس به، ومن يعلم فقد تغدو شمساً لإضاءة أيامي الموحشة

كبتَ أحمد ضحكته وقال باستهزاء:

_ أبهذه السرعة داهمكَ الشغف؟

وألا ترى أنها صغيرةٌ جداً، وغير مناسبة لك؟

واسترجعَ أحمدٌ في لحظاتٍ كلام علياء عن الأقاويل التي طالتْ سلوك لؤي مؤخراً، فهمسَ له محذراً:

_ احذرْ يا لؤي فإنّ الله لم يخلق كل النساء للتسلية، إنّها فتاةٌ بريئةٌ، ولا أحبّذ أن تعبث بها.

وغضّنَ حاجبيه بوقار مع شعور خفي بألم لا يُوصف، وهو يتذكر عبثه بأمها ماريا، وحدّث نفسه لائماً:" ليتني طبّقتُ مواعظي على نفسي فيما مضى من عمري".

عقد لؤي حاجبيه قائلاً:

_ لا تغرنّكَ هذه الشعيرات البيضاء يا صديقي فما زلتُ شاباً، أنا لمْ أرَ جمالاً بريئاً نقيّاً كجمالها، أرجوك يا صهري أريد معرفة كل شيء عنها، لقد اخترقتْ هذه الفتاة جدران قلبي بلمحةٍ واحدةٍ، ما لمْ تخترقه أنثى من قبل.

تنهدَ أحمد بعمق، وقد تصدّر طيف ماريا أمام ناظريه واضحاً جليّاً، فقد كانت تفوقها جمالاً وبراءةً ونصاعةً، وأخذتْ تلك الذكرى تحزّ وجدانه، وتحفره بنصلٍ من نار متوهجة، وتساءَلَ بحيرةٍ كيف سيعطيه معلومات عن ابنة عادل عبد الحق الذي يعتبره ألدّ أعدائه؟

وأفاقه صوتُ لؤي من شروده يسأله:

_ ماذا قلتَ يا أحمد؟

اخدمني هذه الخدمة، ولن أنسى صنيعكَ هذا ما حييتْ.

تصاعدتْ الدماء إلى رأس أحمد، وبدا عليه الانزعاج قائلاً له بقسوة:

_ ألا ترى أننا في حداد، وحالتنا سيئة للغاية، فهل هذا وقتٌ مناسبٌ لإقامة علاقات غرامية؟ ولنفترض العكس، فأنا لستُ معنياً بتلك الأمور، بإمكانكَ إيجاد من هو مناسب لهذه المهمة.

وتركه وحده عائداً إلى ضيوفه، وهو يكاد يتنفس بصعوبة من فرط غضبه، وقد برقتْ عيناه بريقاً يعطي مظهراً لا يخلو من حزن مكبوتٍ.

لحقه لؤي محاولاً قدر المستطاع إيجاد كرسي قريب من ريم أو قبالتها، وتبسّم له الحظ بإخلاء علياء لكرسيها المقابل تماماً لريم، فاستولى عليه، وركز كل حواسه على تلك الفتاة التي سلبته رشده، وظلّ محدقاً فيها مبهوراً بطفولة ملامحها، لقد جرّه حنين جارف لمثل هذا الجمال العربي، الذي يفوح منه عطر النقاء، على عكس الجمال الأوروبي الذي لا يحركُ في الرجل إلا غرائزه الذكورية، التي تستعرّ نيرانها في دقائقَ ولا تلبث أن تخبو وتنطفئ.

توردتْ ريم حياءً، وقد لاحظتْ جرأة نظراته، فأرغمتْ نفسها على ألّا تنظر إليه، وكلما صادف والتقى نظرهما تُشيح عنه بامتعاض، حتى أنها تمنتْ أن تنسحب من المحضر، وتعود أدراجها إلى البيت، فكلّ ما تمنته رؤية عزام والوقوف إلى جانبه في هذا الوقت العصيب، لكن ما فهمته

من حديث عائلته هو رفضه مقابلة أحد، فلم تتجرأ على طلب رؤيته، وانقضتْ ساعةٌ على وجودهم، فاستأذنوا والد عزام بالانصراف، انتشتْ ريم من انقضاء الوقت لترتاح من الإحراج الذي سببه لها ذلك الشخص الوقح الذي لا تطرف عيناه أو تملّان من التحديق بها، وامتحان كل حركاتها ولفتاتها.

بعد انصرافهم وقف لؤي يستأذن أحمد الذهاب، لكن الأخير أقسم ألا يغادر وأن يبقى معهم، فقاطعه لؤي متجهماً:

_ لا أستطيع المكوث أكثر، لأنني تركتُ ولدي وليم مع جدته، وأخاف أن يصيبه الملل خصوصاً أن لغته العربية ركيكةٌ، ويتعذر على أمي فهم ما يريده بسهولة.

صاح أحمد بغتةً مبدياً سروره:

_ لِمَ لمْ تأتِ به لنتعرف عليه؟

لم تنبسط أسارير لؤي وقد أثّر به انتهار أحمد له بشأن ريم، فقد أغلق بكلامه الباب الذي ظنه سينفتح في وجهه لينال فتاةً خفق لها قلبه فأجاب بنبرةِ حزن:

_ سأصطحبه معي في المرةِ القادمة، والآن أستأذنكَ مع شكري العميق لك.

ورمقَ علياء بسخرية موجهاً لها كلامه:

_ وكل شكري لكِ يا ابنة عمي لاستقبالكِ الأكثر من رائع.

غطّى وجه علياء حرج شديد، فحاولتْ تبرير تصرفها بقولها:

_ أعتذرُ منك، فأنا متعبة، وأعصابي تالفةٌ من فرط حزني على ولدي.

لكنه أشاحَ عنها ليقول لعفراء:

_ إلى اللقاء يا جميلتي.

واقتربَ طابعاً قبلة على جبينها، وانصرفَ بعجلةٍ يرافقه أحمد إلى الخارج مودعاً.

-4-

وقف لؤي بعد خروجه من منزل أحمد شارداً، كاسف البال، غارقاً في لجّة اليأس بعد محاولاته الفاشلة في إيجاد أملٍ ما، تختلط في حناياه مشاعرٌ غامضةٌ تتشابك ما بين الخيبة والسأم، والحيرة، فلا شيء مما حدث معه اليوم كان جيداً.

تسمّر مديراً عينيه على الرائحين والغادين بين لحظة وأخرى، زافراً بضيقٍ، واندفع ليشير إلى سيارة أجرة، لكنه تراجع بعد أن مدّ يدهُ، وثناها ليحكَّ بها أسفل ذقنه، وهو يتميّزُ غيظاً لأنه غير معتاد على العيش هنا منذ زمن طويل، ففي ألمانيا كان يمتلكُ أفخم أنواع السيارات، ولم يتسنى له حتى الآن ابتياع سيارة خاصة، فلم يمضِ على مجيئه إلا ثلاثة أيام.

كان في رأسه مشاريعٌ كثيرةٌ، أولها شراء منزلٍ كبيرٍ ليعيش فيه مع والدته العجوز وابنه، بدلاً من العيش في بيت والديه القديم الكائن في حيّ الميدان، ومن ثم عليه تسجيل ولده في مدرسة خاصة فائقة العناية، والأهم لديه من ذلك كله اقتناء سيارة خاصة له.

ابتسمَ لؤي بسخرية، وركلَ بقدمه قطعة حصاة ملقاة أمامه، وصارتْ تجره خطواته غير واعٍ لما حوله بسبب أفكاره التي تصدرُ صفيراً مزعجاً، تنفس بعمق علّه يرتاح وقرر الذهاب مشياً على الأقدام من حيّ أبو رمانة – الذي تقطنه علياء التي لطالما اعتبرها كأخته هبة، وكان مسؤولاً

عنها مذ يفاعتها واخضرار عودها إلى حين تزوجتْ من صديقه أحمد توفيق – إلى حي الميدان.

لقد عاشَ في طفولته فقراً مدقعاً، كان والده موظفاً صغيراً في شركة المياه، يجلس على مؤخرته من الصباح وحتى أفول النهار، ليتقاضى راتباً شهرياً بالكاد يُطعمُ الخبز لأسرةٍ مكونة من أربعة أفراد.

لقد اكتفى بإنجابِ هبة، لكن لؤياً جاء دون إرادة منه، وقد أخفتْ عنه زوجته حملها حتى بلغتْ شهرها الخامس، وأصبح بطنها بارزاً بشكل ملحوظ، كان يقول دائماً "من المُخزي إنجاب الكثير من الأولاد الذين سيلعنوننا يوماً ما، وهم يحلمون بالعيش كأيّ كائن بشري أقصى أمنياته ملئ معدته، أو شراء حذاء جديد، إذ ما بُلي وتشقق ما بأقدامهم.

لكن القدر حمّله بالإضافة إلى عبئهِ وزرَ أخيه راشد والد علياء الذي لم يكن لديه من العقلِ إلا نتاف قليلة، فقد ماتت زوجته بسكتةٍ قلبية لما تكدّس في نفسها من هموم قاتلة إثر سوء أخلاقه، وعدم تحمله لمسؤولياته، كان يتجرع الخمور حتى الثمالة، ولا يتوانى عن بيعِ أثاث بيته، ليشتري زجاجات الخمر، وبعد أنْ فقدَ كل ما يملكه ترك ابنته الوحيدة في عهدة أخيه، وسافر ومن ذلك الوقت لم يسمع أحد عنه شيئاً.

عاشتْ علياء في بيت عمها مع لؤي وهبة، وكانتا تكبراه بثلاث سنوات لكن لؤي ضاق ذرعاً بشظف العيش، وقرر العمل ولمّا يتعدى الرابعة

عشر من عمره، أودى به الطريق إلى المعلم خلدون أحد أصحاب المتاجر لبيع الأقمشة والألبسة في دمشق القديمة.

كان خلدون رجلاً فيه من النذالة ما يكفي لتوزيعه على مدينةٍ بأكملها، ذو رأسٍ كبير، وعينان جاحظتان تحت حاجبين أشعثين، وأذرعٍ طويلة أكثر من اللازم كأذرع القرود المعمّرة، يدخنُ بشراهةٍ، ويتجرع الكحول بعيداً عن أعين الناس، يخبئ كأسه تحت الطاولة منتهزاً فرصة خلو المحل ليبدأ بكرع ما بقي من الشراب في كأسه، ولا يفتأ يحكُّ عقبيه المتشققيين بحافة الطاولة الخشبية وهو يلقنه بقسوةٍ أسعار البضائع، ويمتحنُ كل حينٍ ما حفظه من أسعار، وهو يخزّرُ بعينيه خزراً ليقفَ منه على عثرةٍ واحدةٍ، فيلكزهُ بقبضته القاسية.

أوكل إليه حينئذٍ مهمة الوقوف عند باب المحل، والعمل على اجتذاب الزبائن بألفاظٍ معسولة يشوبها الكثير من الاستعطاف، ولم يكن أصعب على لؤي من مهمة حثّ الزبائن على الشراء، لأنه إنْ أخفقَ فسيغافله المعلم خلدون، ويلكزهُ بقبضته على مؤخرة رأسه.

لقد عانى الكثير من البؤس ليساعد والده في تدبير أمور البيت، وليؤمن لأخته وابنة عمه ما ينقصهما، وكم مرّتْ عليه ليالٍ وسياط البردِ تلسعُ أقدامه، حتى وصل لمرحلةٍ أنه كان يضمرُ حسداً خفياً لكل من يحسّ بشيء من الدفء تحت لحافه، ولطالما سرحَ بخياله غير شاعرٍ بانبثاق

دموعه وتدحرجها على صدغيه في مساءاتٍ كان الليل يُطيل فيها جثومه ولا يُنذرُ برحيلٍ باكر.

لبرهةٍ من الزمن تمنى أن يصبح لصّاً مُحترفاً ليسلبَ جيوب الأغنياء المكتنزة كأمثال خلدون الجشع ويملأ من مالهم بطوناً خاويةً، ورغم كل عنائه الجسدي لم يؤثر عليه كتأثير المعاناة النفسية التي استعرتْ أوارها وهو يلاحظ عاطفة علياء الجيّاشة تجاهه، لكنه كان يطرد إحساسه هذا بغضب، فهي ورغم جمالها الخارق الذي تبدّتْ معالمه في عمرٍ مبكّر، إلا أنها لم تكنْ بالنسبة إليه إلا كأخته هبة، ذاقَ عذاباً لا يضاهيه عذابٌ وهو يتجاهل تلميحاتها الواضحة التي تخجله وهو لمّا يبلغ الحلم بعدُ، ومضتْ سنوات وعشقُها له يزدادا توهجاً، ومناشداتها له تكثر يوماً بعد يوم، تطارده في كل لفتةٍ، في يقظته ومنامه.

لم ينسَ لؤي كيف دفنتْ علياء فرحته بإعلان نتائج الشهادة الإعدادية، فقد استطاع بما يحمله من شقاءٍ الحصول على درجاتٍ ممتازة لكن صدمته أودتْ بأفراحه قتلى ذلك اليوم، ألجمته وجعلته مبهور الأنفاس، وقد اقتحمتْ عليه غرفته، وصرّحتْ بحبها له صارخةً بوجهه، وعندما اعترضها مستغفراً الله صفعته على وجهه، وحاولتْ نشبَ أظفارها في لحمِ رقبته، فاندفع هارباً من البيت، نام ليلتها في الحديقة العامة، كمتشردٍ يلوكه القهر، وفي اليوم الثاني استجدى المعلم خلدون أن يسمح له بالنوم في المحل.

كانت تطارده في كل مكان، تريد امتلاك قلبه غصباً، كَبُرَ لؤي وظلّ هذا الكابوس رابضاً على أنفاسه، يحاول الخلاص منه دون فائدة.

كان أكثر ما يعزيه تفوقه الدراسي، فقد نال الثانوية العامة بتفوق، وصمم على دراسة الهندسة المدنية، وهنا بدأتْ أفكاره تتصادم، فعزم على السفر حالما ينهي دراسته الجامعية، كان في ظهور أحمد توفيق في حياته آنذاك نجاةً له وإغاثة، تعرّف عليه عندما طلب منه المعلم خلدون أن يسلّم التاجر الكبير توفيق العامري والد أحمد طلبية أقمشة، وشاء القدر أن يلتقي بأحمد هناك، وتعارفا وتعمّقتْ أواصر الصداقة بينهما، وأنزله أحمد منزلة الأخ الأصغر، فتبادلا الزيارات، وما إنْ وقع نظر أحمد على علياء حتى هامَ بها، ووقع في حبها.

حاول لؤي إقناعها بأحمد، وإيضاح مشاعره هو التي لا تتعدى مشاعر الأخوّة، فكانت تتلظّى غيظاً وحنقاً من صدّهِ وتمنّعه عنها، وتزداد ولهاً به كلما تمادى برفضه لها، فأكثر ما يؤجج حقدَ امرأةٍ هو نفور من تحبه وصده لها بجفاء، فيندلع في أرجائها حقدٌ إذا أصابَ زفيره حقلاً واسعاً لأرداهُ هشيما.

وأخذ يستنجدُ بأخته هبة لتساعده على الفكاكِ من تلك اللعنة، وإيقاف مطارداتها له، ولا يتكلم لأمه عنها لأنّ أمه كانت تتوق لارتباطه بها.

وعندما وصلتْ علياء إلى طريق مسدود لا حيلةَ في عبوره، صارتْ تُقنعُ نفسها بأحمد، وترضخُ مجبرةً لوصاله، وأكثر ما أقنعها به هو حالته

الميسورة، فبدأتْ توهمه بحبها، وهي تضمرُ كلّ الحب لابن عمها، وتُعاركُ نفسها عراكاً شرساً لتقتلعه من تفكيرها، وتُشفى من إدمانها له، إلا أنها لم تتمكن من ذلك، وبعد سنتين من علاقتها بأحمد قررا الزواج، وأقدمَ أحمد على فرضها فرضاً إجبارياً على أسرته التي واجهته وحاربتْ قراره، فكانوا مجتمعين على رأيّ واحد بأنها لا تناسبه، فأبوها سكيّر، وسمعته سيئة للغاية.

وبعد زواجهما رزقاً بعزامٍ، لكن رغم هذا لم يثنِ عائلة أحمد عن إبعاد ولدهم عنها غصباً، وفرض سلطتهم عليه بالقوة.

وعادتْ علياء إلى بيت عمها تحملُ ولدها بوجهٍ لا يحملُ أيّ تعبير حزنٍ أو أسفٍ لما صادفها، بل على العكس بدتْ سعيدة، لأنها ستبقى إلى جانب لؤي الذي صُعقَ لخبر رجوعها خصوصاً أنه لم يبقَ في البيت إلا والدته بعد زواج أخته هبة من ابن خالها، ووفاة والده، ومما زاد في حجمِ مأساته، أنّ والدته عادتْ تطرحُ عليه فكرة الزواج من ابنة عمه علياء، فيثور وتغلي مراجل غضبه، ويغادر المنزل صافعاً الباب وراءه.

خلال الشهور الستة التي مكثتْ فيها علياء في بيت عمها، لم يكن من شيء يُدخلُ السرور إلى قلب لؤي إلا رؤية عزام الذي تعلّق به تعلقاً شديداً، فتولّدتْ في حناياه عاطفة جيّاشة تجاهه، كما لو كان قطعة منه، وتمنّى أن يبقى هذا الصغير في عهدته وحده دون وجود علياء التي أتعبتْ وأهرمتْ قلبه سنيناً طويلة مذ كان صبياً لم يبلغ الحلم، وهي تدعوه

بعينيها للسير في دروبٍ خاطئة، لقد استعظم واستنكر فظاعة تفكيرها وانقيادها الأعمى خلف مشاعرها، لا تُقيم وزناً لأيّ حاجزٍ مهما تعالى وتصالب، فقد كانت روحها مثل صخرةٍ تتهاوى من أعلى منحدرٍ صوب الهاوية.

وتعاونَ سرّاً مع عائلة أحمد لإعادة ولدهم الفارّ إلى زوجته، فقد أخذ يتباكى على مصير عزام بدون أبٍ، ويتخذُ من الكذب حجةً ودليلاً بتصوير أحزان علياء، وبكائها الغير منقطع على غياب زوجها، ليرأفوا بحال الزوجين حتى لانتْ قلوبهم قليلاً تجاه علياء، ليس من أجلها إنما من أجل ولدهم الذي رحل عنهم بسببها وأتلفهم غيابه.

ونجح لؤي في إصلاح ما أفسده الدهر، وعادَ أحمد إلى زوجته كما أسلفنا سابقاً، لكن الدهر نفسه عجزَ عن إصلاح داء هوسها بلؤي، فكانت لا تنقطع يومين عن زيارة بيت عمها، والتزم لؤي وقت تواجدها في غرفته لا يبارحها، يأخذُ عزاماً ويقض كل وقته معه يلاعبه ويهدهده حتى يغفو بين أحضانه، لدرجة أنّ حبه الكبير لهذا الطفل ولأخته الرضيعة عفراء التي رزقا بها فيما بعد دفعه للذهاب بدوره إلى منزل أحمد ليراهما إنْ صادف وتأخرتْ علياء عن المجيء إلى منزله متجاهلاً حبّها وجنونها اللذان لم يخبوا لحظةً.

مرّتْ سنوات والحال هو الحال إلى أن جاء يوم وتيّسر أمامه السفر إلى برلين، بعد أن ادّخر مبلغاً يمكنه من السفر.

وسافر لؤي بعد أن تركَ والدته في رعاية أخته هبة، ومذْ وطأتْ قدماه شوارع برلين الفسيحة النظيفة، حتى داخله شعورٌ بعدم الألفة رغم ثراء المكان بجمالٍ لا محدود تنشره أضواء أعياد الميلاد، والطقس البارد الذي لا يُعيق حركة الناس وازدحامهم، وأخذتْ عيناه ترقبُ العابرين وهم يهرولون تحت ندفات الثلج المتساقطة التي تنشر الحميمية في الأجواء.

كان يجدُ صعوبةً في استجماع أفكاره ليتشبث بقاربٍ يحدد وجهته عبثاً، فالشقاء أبى أن يتخلى عنه.

عملَ نادلاً في مطعمٍ للوجبات السريعة، كان المطعم للمدام كارولين، امرأةٌ في الثامنة والثلاثين من عمرها، إلا أنها تبدو أكبر من ذلك نظراً لبدانتها، لكنها ورغم ذلك تمتلك عينين واسعتين طيبتين.

كان الجميع يخشونها ويحترمونها في آن واحد، ولم تتوانى كارولين عن نجدته وهو بأمس الحاجة للنجدة، فأسرعتْ تمدّ إليه يد العون.

استبدتْ به مرارةٌ أخذتْ تسري في حلقه مخلّفةً غصةً لا تزول، لأنه تخيّل فيما مضى أنه سيعتلي مركزاً مرموقاً، وقد كرّس سنواته الآفلة في الدراسة المتمخضة من عمق معاناة قاسية، لكنه صُدمَ بالواقع الذي عصره، لينكمش بين قبضة الأيام يقنع بعمله كنادلٍ في مطعم.

وبدأ يواسي نفسه بأنّ كل ما مرّ عليه مرحلةٌ مؤقتةٌ، فلا بدّ أن تدفع الكثير لتنال القليل مما تصبو إليه، فهو لم يعتد على التذمّر كالكثيرين من الناس المجبولين على ذلك، فهم يخلقون رافضين، متذمرين منذ

صرختهم الأولى لا يُرضيهم إلا ما بحوزة غيرهم ولو امتلكوا أكثر مما يستحقون، كالعابد الذي يحلم من نشأته بسجادة صلاة، فإنْ نالها ابتغى مسجداً، وإن تحققتْ صبوته غدا إماماً، ومن إمامٍ إلى وليًّ فنبي، ليصل به حلمه أن يصبح إلهاً، فليس ثمة ما يُعيق تذمر البعض إلا الموت.

وظلّتْ الحياة في نظره حبلى بالمعاناة، ولم تكنْ فضائلها، وبريق جمالها إلا بين طيّات صفحات الروايات لأدباءٍ جنحوا إلى الخيال، هرباً من واقعٍ اغتالَ هواء الحب.

في المساء وبعد انتهاء عمله في المطعم، يعود إلى الحجرة الرطبة التي استأجرها مع بعض روايات بأغلفة باهتة، يبتاعها أثناء عودته، ويبدأ رحلته المسائية التي لا تنتهي إلا بعد انتصاف الليل، فيسافر على متن السطور التي تدغدغ مشاعره عن بعدٍ، فقد كان لديه انطباعٌ بأنّ وجود الحبّ الفعلي في قلبه منتجٌ منتهي الصلاحية.

وفي أيام العطل يقضي وقته في نادٍ رياضي قريب من المطعم، يتمرّنُ على حمل الأوزان الثقيلة، لتنمية عضلاته، وليعيد إلى جسده لياقته، فغدا بعد أشهرٍ محط أنظار الفتيات، لا بل أصبحت النساء تتهافتْ عليه مثلما يتهافت النحل على خليته، فيقضي أوقاتاً ممتعة في مصاحبة النساء، نساءٌ مررنَ على أيامه ولياليه لا حصرَ لهنّ إلا أنه لم يشعر لحظةً واحدة بفتات حبٍّ يتسربل إلى قلبه، ولم يلتصق بفكره ذكرى شعورٍ

بالحنان تجاه امرأةٍ، حتى خالَ له بأنّ قلبه منتفخٌ متفسّخٌ كجثة لا يصلح للحب أبداً.

ومع توالي الشهور أخذ لؤي يحظى باهتمام خاصٍ من كارولين، ودأبتْ توليه عنايةً خاصةً، لا توليها لغيره ممن يعملون لديها، حتى نفد صبرها ولم تخفِ رغبتها في الزواج منه، وهو بدوره لم يعترض لأنه بحاجة ماسّة لمن يحتويه في غربته، ويعتني به، ويلملم تشرده، فكيف إذا كانت امرأة ثرية مثلها!

عاشَ مع كارولين في شقتها الفاخرة، وانتقلَ من مرتبة نادل إلى مديرٍ للمطعم إلى جانب زوجته.

كانت كارولين طيبة لأبعد الحدود، توفر له كل احتياجاته، ورغم أنها الجزء الرئيسي والأهم في حياته إلا أنها لم تُثر به أيّة عاطفة خاصة أو اشتياق، فهي لا تفتأ تتحدث عن ماضي صباها، وتتغنّى بما كانت تمتلكه من جمالٍ وجاذبية زائلة، وتُحصي على أصابعها أعداد الخاطبين لها في زمنٍ غابر، بينما هو يتجرعُ الفودكا على مهلٍ حتى تثقل أعضاؤه وتسبلَ جفونه، ويغفو كطفلٍ متعبٍ في حضن والدته التي تخدره بأقاصيص خيالية قبل نومه.

لقد تبددتْ كل أحلامه بالارتباط بفتاةٍ توقظ فيه براكينَ خامدةً، فتاةٌ يراقب إغفاءتها ويقظتها، تُهيّج شوقه إنْ توارت، وتزدهُ لهيباً إنْ اقتربتْ، فتاةٌ تسلبه كل شيء، وتعطيه كل شيء، ومضى شبابه هناك في الاعتكاف

قرب كارولين التي ما إنْ أنجبتْ ولده وليم، حتى انقلبتْ إلى امرأةٍ مثيرة للشفقة، تنام باكراً، منبوشة الشعر، فاغرة الفم، يؤرقه شخيرها، ومنظر بطنها البارز إلى الأمام، وازدياد شكواها، وتفاقم أنينها من الروماتيزم الذي يفتت مفاصلها، كان يبذلُ جهداً فائقاً كي يجعلها تهتمّ بصحتها وبمظهرها، لكن كلامه ونصائحه كانا يتبخرا كدخان مدفأةٍ في يومٍ عاصفٍ، وما يدعوه للتجلّد هو حبها وحنانها عليه، فمن فرط حبها له نقلتْ له ملكية البيت والمطعم وكل ما ادخرته في سنوات خلتْ، إنّ مقدار حبها كان يشعره بالحنو والشفقة نحوها، فهي مَنْ غسلتْ فقره وعوزه مدى الحياة، فقد كان ممتناً لها ويداري مشاعرها، فلا يقسو عليها، بل يعمل على مشاركتها حتى في أبسط الأعمال، ولا يتوانى أيضاً عن مساعدتها في الاستحمام رأفة بها، ونظراً لوضعها الصحيّ الذي بدأ يتدهور، فأخذ على عاتقه الاهتمام بابنه كل الاهتمام، حتى شعر بجفاف في بريق عينيه، وبشيخوخة مبكرة تجتاح ربيع شبابه، وفي أحيانٍ يؤنبُ قدره الذي لم يعطه الوفرة والثراء إلا بعد أن سلب منه أضعافاً من راحته وسعادته، لكن سرعان ما ينتابه الندم لكونه امتعض من وضعه في لحظات يأسٍ.

وبعد مرور سنوات قضاها لؤي برتابةٍ، وبدون أي تبدلّ في أحواله إلا بالناحية المادية، فقد تضاعفتْ ثروته، وعاشَ في رخاء لم يعتده.

لكن مرض كارولين أحزنه كثيراً، فقد كانت تصارع مرض السرطان الذي تم اكتشافه مؤخراً في نقي العظم.

وماتت كارولين التي كثيراً ما أيقظته في الليالي بهذيانها الشديد، لقد بكاها كثيراً كما لم يبكِ أحداً من قبل، وأسفَ عليها بالغ الأسف، لقد بكى المرأة التي أوجدها الله لإغاثته وبلوغه شطّ الأمان، وقرر بعد ذلك العودة إلى وطنه، وقد باع البيت والمطعم، وسحب ثروته التي تقدر بملايين الدولارات وقفل راجعاً إلى بلاده مع ولده الوحيد.

وما إنْ وطأ تراب دمشق، واشتمّ عبقه الذي أشتاقه كثيراً، حتى صمّم تصميماً لا رجوع فيه، أن يبدأ حياته تاركاً كل ذكرياته في زاوية مخبوءة من صدره، معتبراً نفسه بأنه الآن قد وُلِدَ.

كانت سعادته عارمة بوجوده قرب والدته، لكن خبر وفاة زوجة عزام الذي أنبأته به أمه قضّ مضجعه، وتحمّس لرؤيته ومعانقته، كما كان يعانقه وهو طفلٌ للتخفيف عنه.

وشاء القدر أن يُصادف ريم هناك، واندلعتْ شرارةٌ أيقظتْ كل أحلامه، وأمنياته الغافيات، بعد أن تفحّمتْ زمناً بين أكداس سنوات عمره الشقي.

في لحظاتٍ قليلةٍ تنتابنا قوةٌ جامحةٌ يتخللها ريحٌ صرصر، ولهيبٌ مندلعٌ، ورغبةٌ في تدمير كل ما اعتدناهُ سابقا، ويجتاحنا ظمأٌ إلى كل شيء لم نعشه.

لقد تبدّتْ أمامه ريم كإحدى بطلات الروايات التي كان يقرأها في غربته، واستبدلتْ بضيائها ووهجها مخيلته الجيّاشة، المفعمة بالكآبة، وفؤاده المكلوم، ولكأنّ الحياة ابتغتْ أن تتبرّعَ بتعويضه عن خيباته الماضية التي لا حصر لها.

-4-

سبعةُ أيامٍ مرتْ على زيارة ريم لمنزل أحمد توفيق، وفي إحدى الليالي رأتْ فيما يراه النائم حلماً، ما كان إلا تجلياً لأمنياتها في رؤية عزام يوم ذهبتْ إلى بيته لتعزيته.

فقد رأتْ نفسها وهي تدفع باب غرفته دون استئذان أحدٍ، لتقف أمامه بينما بدا هو نحيلاً هزيلاً مصفرّ الوجه، لكنه باغتها بكلام وقعه وقعَ رصاصٍ اخترق أحشاءها:

_ هل لي أن أعرفَ لماذا تقتحمين أحزاني، وتسلبين حقّي في البكاء والنحيب على رحيل المرأة الوحيدة التي أحببت؟

مَنْ أعطاكِ هذا الحق لتركلي باب غرفتي، وتفرضي وجودكِ على حياتي؟

ورأتْ ريم نفسها تردّ عليه بقوة:

_ توقّفْ عن هذا الضعف المقزّز، ولو كان الموت حكراً على فئة معينة، وأناس محددين، لقلتُ لكَ : مُتْ وراءها، و انهزمْ لكنه قدرُ كل مخلوقٍ.

فأجابها بلهجته الساخرة القاسية:

_ أرجو أن توفري نصائحكِ، فماذا تعرفين أنتِ عن الحب؟

داخلها إحساس عميقٌ بالإهانة والمذلّة، فردّتْ عليه:

_ والحب أيضاً ليس حكراً عليكَ فقط، فأنا أعرفه جيّداً، وكل امرئ يعرفه، وسيعيشه آجلاً أم عاجلاً.

صرخ عزام بوجهها قائلاً، وقد وثبَ إليها هائجاً:

_ ضقتُ ذرعاً من تدخلكِ في شؤوني، لكنّي لا أريد أن أجرحكِ، أحسّ بأنني إذا فعلتُ ذلك كأنني أمسكُ موساً بيدٍ لأشقَّ به يدي الثانية.

انغرزتْ كلماته كنصلٍ اخترقَ صميمها، لكنها ابتلعتْ مرارة ألمها.

وأفاقتْ ريم مذعورة من هذا الحلم، وهي تحمدُ الله على أنّه مجرّد حلمٍ لا أكثر، لكنها ظلّتْ تستعيد تفاصيله، وتقف عند جملته الأخيرة التي رماها بها:

" لا أريد أن أجرحكِ، أحسّ بأنني إذا فعلتُ ذلك كأنني أمسكُ موساً بيدٍ لأشقَّ به يدي الثانية".

كانت مذهولة، يكتنفها الضيق والنفور من كل شيء، تظلّ معتصمةً بالصمت، تحاول تجميع أفكارها العشوائية في بوتقة واحدة، وتبدّد حالة التشويش، لكن استفحال الشتات أطاح بكل محاولاتها، ولكم أدهشها التغيير الذي طرأ على طبيعتها الصاخبة، وتسأل نفسها عن الأمر الذي قلبها رأساً على عقب، فأين بسمتها المرسومة بريشةِ فرحٍ كان يملأ كيانها، فلم تكن تكفّ عن نثر فكاهاتها، وإطلاق نكاتها، وسرد تفاصيل أيامها، أين لغوها، وضحكها، وطفولتها؟

أين ريم؟

حتى جدار الجفاء الذي لطالما بنته ماريا فيما بينهما كانت لا تملّ من تحطيمه، وإقحام نفسها على عالم أمّها الغامض.

وفي أحد الأيام وبعد عودتها من الشركة في وقت احتضار الغروب، قعدتْ القرفصاء بجانب أمّها على الأريكة الكبيرة، تقطبُ وجهها الذي تتقاذفه أمواج السأم، غير أنّ ماريا عجزتْ عن تجاهل حالة ابنتها، فباغتتها بسؤال لا يخلو من القلق، وقد استدارتْ شطرها:

_ ما الشيء الذي يجعلكِ ساهمةً، وشاردةً طوال الوقت يا ريم؟

أجابتْ بلهجة كئيبة، وهي تلعبُ بأطراف أناملها:

_ كل شيء في هذه الدنيا يبعثُ على الحزنِ يا أمّي، ثمةَ الكثير من القهر يحتلني، ولا أجدُ ما يبدّده، حتى أنّي لا أعرف كنهه.

قالتْ ماريا مشدوهةً، وقد جثم مارد همٍّ على أضلاعها:

_ ما الذي أسمعه يا ريم، أيّ قهرٍ هذا الذي يحتلّكِ يا ابنتي؟

غصّتْ ريم بريقها، وسالتْ من زاوية عينها دمعةً، سرعان ما مسحتها بسبابتها، وتابعتْ:

_ أمي مَنْ لي بإنسان يقشعُ حيرةَ حشود أفكاري، التي تغدو وتروح؟

ويضيء تلك الهوة السحيقة من الغموض؟

لقد بتُّ لا أجد مهرباً لي إلا النوم، فهو الملاذ الوحيد لي من حرائق يقظةٍ تنشبُ هنا في روحي.

ذُعرتْ ماريا وأمسكتْ بابنتها تجذبها نحوها، وتحاول احتضانها، ودفنَ مواجعها بين طيّات صدرها لتهوّن آلامها، بينما ريم استرسلتْ بكلماتٍ متقطّعة:

_ كنتُ أظنّ بأنّ الحياة عندما تجردني من نثرات سعادتي، أستطيع أن ألوذ فراراً إلى حضنكِ، لأستردّ شهيقي وزفيري، لكنني لا أجدكِ يا أمي، لا أجدكِ حينما يمتدّ بي التعب إلى أقصاه، لقد وعيتُ على وجودكِ و بنفس الوقت أفتقدُ بوجهكِ الابتسامة، وبقلبكِ الحنان، أفتقدُ أبي وأشياء كثيرة، طالما حلمتُ بها، أريد أبي هنا معنا، وأحلم أن ننامَ نحن الثلاثة في سرير واحدٍ نضحكُ معاً، بينما السماء تلطمُ وجهها، وترشقُ نوافذنا بغيثها المدرار، أريد أن تشعري بآلامي قبل أن أشعر بها، ليتَ أحداً يمدّني بتفسير منطقي لكل ما يتوارى بعيداً عن ذهني.

كانت أثناء ذلك دموع ماريا تنساب ببطء صامتٍ، لتتخلل خصلات شعر ريم وتنصتُ لآلامها عاجزةً عن مسح تلك المواجع بكلمة أو تبرير، لا شيء قادر على وصف مشاعر ماريا ذلك الحين، حتى البحر بكل عمقه لا يستطيع أن يُغرقَ أو يمحو ذكرى آثامها العالقة في قعر نفسها.

فنحنُ البشر نخزّن في أذهاننا كلّ مفاهيم الخير والسموّ الأخلاقي وبدون إرادة منّا وتحت مسمّى الحب يشدّنا حبلٌ غليظٌ لا مرئي نحو الرذائل والأفعال الوضيعة التي تدمرنا تدميراً لا نجاة بعده لأرواحنا، ويبقى حجر عثرٍ في أيامنا الآتية، فما أصعب أن تعيش في واقعٍ تنظرُ كل حينٍ في

المرآة لتتأكد بأنك ما زلتَ على قيد الحياة، بعد أن أجبرتكَ الدنيا تحت قسر الحب إلى فعل خطيئةٍ تقتلُ ضياءكَ وحنانكَ وعاطفتكَ تجاه أقرب الناس ولا تجد كلمة واحدة تبرأ جمودكَ وموتكَ الداخلي.

وفي تلك الأثناء سمعتا طرقاً قويّاً على الباب أجفلهما، فتلاقتْ عيناهما علامة الدهشة، لأنّ عادل لا يقرع الباب إنْ جاء لأنه يحمل بحوزته المفاتيح.

تناهضتْ ماريا بخطواتٍ مترددة، واتجهتْ صوب الباب لتفتحه، فإذا بها وجهاً لوجه أمام شابّ غريب لم يسبق لها رؤيته أو معرفته، حيّاها بكل أدبٍ، وقال لها وهو يمدّ لها ظرفاً ورقياً متوسط الحجم:

_ هذه أمانة للسيدة ماريا لطفي من السيد عادل عبد الحق.

أمسكتْ ماريا الظرف بيدٍ مرتعشةٍ، فقد أحسّتْ بزحفِ الشلل إلى لسانها اضطراباً واستغراباً، شكرته بكلمات مقتضبة، وأغلقتْ الباب ذاهلةً، ليس بوسعها حصر تفكيرها بأيّ شيء إلا بالفضول لمعرفة مضمون الظرف الغامض.

وبدأتْ تخطو ببطء، ويداها مشغولتان بفتحِ الظرف المغلق، كان يحتوي على رسالةٍ وإلى جانبها كدسةٍ من الأوراق المالية.

انتزعتْ الرسالة، وعادتْ إلى مكانها على الأريكة متجاهلةً نظرات ريم المصوبة نحوها.

فتحتْ ماريا الرسالة، وبدأتْ تقرأ ما جاء فيها بقلبٍ واجفٍ:

"إنّ كتابي هذا مخطوطٌ بعبراتي إلى المرأة التي لم أعتدْ في حياتي شيئاً إلا حبَّها:

ثلاثون عاماً جفّتْ ينابيع قلبي ظمأً، وما أسقيتني، وقضيتُ هذا العمر من دمعِ عيونكِ أثملُ، وأبيتِ لحظةً أن تنعشيني، فإنْ جاءكِ نبأ احتضاري على عتباتكِ فلا تفتحي الباب، وانسي ما شئتِ اسمي.. عنواني.. قنطار آلامي وشجوني، لكني أتوسلكِ ألّا تنسي يوماً بأنّي صريع هواكِ.

ذلك الحب الذي قادني موثق القدمين واليدين، وجعلني كفيفاً لا أمشي طريقاً إلا بإذنِ يديكِ، ولا أتبنّى موقفاً إلا بمشورتكِ ورأيكِ.

البارحة عندما دخلتُ البيت ظهراً كعادتي بالمجيء من العمل، رأيتكِ مضطجعة على الأريكة، كما لم أركِ في مثل هذا الوقت غافيةً كملاكٍ قذفته الريحُ الهوجاء، ليتوهَ في سمائه مفارقاً جموعَ الملائكة أترابه، ودموعكِ تسيلُ على جانبي وجهكِ كحبيبات اللؤلؤ المكنون في صلب أصدافه.

جلستُ دون أن أُحدثَ جلبةً قبالتكِ، مُعطياً لنفسي الحقّ في مراقبةِ هذا المشهد الروحيّ الذي أثملني، كنتُ كالحطبِ يتلوى على سعير النار، يحترقُ، ونفسي تستجديه حنيناً، ولدفئه يسترقُ، وأكثر ما تقتُ إليه يا ماريا هو لثم تلك العينين المبللتين، وامتصاص ما تخزّنهما من أحزانٍ عميقة، ولكن في عمق سكرتي ونشوتي ضربتني صاعقةٌ قصمتني

نصفين مشتعلين عندما أخذتْ شفتاكِ تهذيان وتردّدان بشوقٍ مخفيّ ومطمور:

عُدْ يا حسون، فالأغصان اهترأتْ من حرّ اشتياقها

وصباحاتي يا حسون تشبه وجه جدتي قبل أن تموت

عُدْ حتى لا يندرج قلبي في لوائح المفقودين..

في تلك اللحظة أيقظتكِ – أتذكرين؟– نعم أيقظتكِ حينها كي لا أسمعَ بوح اشتياقكِ لمَنْ قتلَ روحك وروحي، وكسرَ قلبينا بدمٍ باردٍ، ومكثتُ أمضغُ الطعامَ الذي أعددتيه لي، وأنا أحسّه سمّاً يقطّعُ أحشائي، ويفتكُ بما بقي لي من خيال روحٍ، لقد تيقنتُ بأنني لن أحظّى أبداً مهما عشتُ ولو بجزءٍ ضئيلٍ من قلبكِ، فعزمتُ على الرحيل مع حقيبةٍ جمعتُ بها كل سنوات انتظاري لرأفة قلبكِ على بائسٍ مثلي لا ذنبَ له إلا أنّه عشقكِ منذ الأزل حتى الموت، وغلفتُ هذه الحقيبة بوشاح يأسي.

إنّي راحلٌ يا ماريا، وقسماً بالله المعبود، ومن ثمّ عينيكِ أنّ فراقكِ كفراق الروح لجسدها، لكنّي تعبتُ، وأصبحتُ كخرقةٍ بالية لا نفع لها.

لقد أرسلتُ لكِ مبلغاً من المال يكفي لشهور عديدة، وسأرسلُ لكِ مبلغاً مماثلاً قبل أن تنفقي ذلك المبلغ.

اعتنِ بنفسكِ جيداً، و بابنتنا التي تفتقد الكثير من الحنان، اعطفي عليها يا ماريا، وقدّمي لها ما استطعتِ من الحبّ، فهي تستحقّ أن

تنعمَ بقليل من دفئكِ، أما أنا فقد عشتُ سنيناً مخلصاً لحزني حتى أنّي لم أخنه مع أيّ فرح عابرٍ"

المخلص لكِ أبد الدهر

عادل

ظلّتْ ماريا تحدقُ في تلك الكلمات، وقد دبّ الرعب في أجزائها، غير مصدقةٍ ما قرأته، فكيف ستعيش بدون عادل؟

إنها تعترف بقرارة نفسها بأنّه صبرَ وتحمّلَ كل صعاب الدنيا لأجلها، لكنّ عادلاً هو الذي أعطاها جرعة الحياة بعد موتٍ كان محتماً عليها، وكل ما سمعه من هذيانها لم يكن أحمد المقصود به، فهي لا تتصوره أبداً، إنّ حنينها لماضيها النقي قبل أن تلوثها الخطيئة، لذكرى والديها واشتياقها لهما، لرائحة ضيعتها، لسنواتٍ عاشتها في كنف أسرتها كأميرةٍ مدللة، لدندنة أمها عندما كانت تحاول عبثاً أن تجعلها تغفو بتلك الكلمات الدافئة "عدْ يا حسون فالأغصان اهترأتْ من حرّ اشتياقها"

إنّ للأماكن ذكرياتٌ وقلبٌ نابضٌ يدّق بالمحبة، فهل تذكرُ الجدران روائح مَنْ رحلوا؟

كم هو ظلمٌ ألّا يكون للحجرِ عيونٌ تذرفُ اشتياقاً على أحبتها!!

لقد أخطأ عادل، وظلمها أشدّ الظلم حينما ظنّ بأنّ ذلك النذل الخسيس لا يزال يتربع وسط قلبها، وأنّه ما زال مبعث شقائها، وعلّة كآبتها الخرساء، إنها لم تعد تحملُ له إلا الضغينة والبغضاء، وليس بإمكانها

المقارنة حتى في خيالها بين أسفل نعل عادل، وبين رأس ذلك الغادر، إنّ لعادلٍ منزلةً في قلبها أكبر من أن تدركها هي ذاتها، إنّه الأنفاس التي تحييها، فكيف بمقدورها الآن أن تعيش؟

لقد جعلتها فكرة غيابه عنها في تلك اللحظات توقن باقتراب حتفها، لأنه عزاؤها الوحيد على هموم الدنيا، وكتفٌ صلبٌ تستند عليه حتى لا يتساقط جسدها الواهي.

لم تصرخ ماريا، ولم تبكِ رغم رغبتها بذلك، لكن الصراخَ فُنيَ على شفتيها، كان يدوي في سويدائها، ويُقيم هناك المآتم، ظلّتْ عيناها يابستين مستقرتين على تلك السطور التي ضمتْ بين حروفها بداية نهايتها، لقد فقدتْ الشعور بحواسها، حتى أنها لم تنتبه لريمٍ وهي تنتزع الرسالة من بين راحتيها، ريمٌ التي أيقظَ رعبها جمود عيني أمها.

قرأتْ ريم بكاء حروف والدها، وعلمتْ برحيله عن عالمهما، ولم تدركْ السبب الواضح لهذا الرحيل، فمن يقصد والدها بالذي قتلَ وكسر قلبيهما، وما زالتْ أمها تحنّ إليه؟

حدقتْ إلى أمها الجامدة دون حراك، وقالت لها بخوف:

_ ما الذي يجري يا أمي؟

لأيّ سبب تركنا أبي ورحل حاملاً هذا الكم من الألم والحزن؟

لكن ماريا لم تسمعها، ولم تعِ ما قالته ابنتها، فأمسكتها ريم بكلتا يديها، لتتفاجىء ببرودة أصابعها، عادتْ لتنظر في عينيها الغائمتين، فراعها منظرهما، وأخذتْ تصيحُ بذعرٍ:

_ أمي ما بكِ، أرجوكِ ردّي عليّ..

ترنحَ جسدُ ماريا ليهوي، إلا أنّ ريم أسندتها، ومدّدتها على الأريكة، وأخذتْ تفركُ لها يديها، وقد استبدّ بها رعبٌ شديدٌ.

كان جسد ماريا يرتعشُ بقوة، وشفتاها مزرقّتان، فأسرعتْ ريم بطلب سيارة إسعاف، لتنقل والدتها إلى المستشفى، وهي تقاوم عجزها عن مثل تلك المواقف.

تبكي بلا انقطاع من تكاثف المحن على عائلتها، تبكي كل شيء مرَّ في حياتها.

-5-

اشترى لؤي منزلاً كبيراً في حيّ "المزّة" مواجهاً للشارع الرئيسي، كان عبارةً عن شقة واسعةِ المساحة، مجهّزةٍ تجهيزاً رائعاً، راقَ له تصميمها، وكأنّه هو بنفسه الذي وضع مخططاً مسبقاً لهيكلية التوزيع، حيث كان المطبخ مفتوحاً على الصالون ذي الجدران الخشبية بلون الجوز، ولم يفصل بينهما إلا بارٌ رخاميّ، بالإضافة إلى ممر طويل يفصل بين الصالون وغرف النوم الثلاثة، حيث خصص غرفة لوالدته، التي استعادتْ أنفاس الحياة بعودة وحيدها من الغربة، والغرفة الثانية لولده الذي يبلغ العاشرة من عمره.

في مساء ذلك اليوم الذي زار لؤي منزل أحمد توفيق، هاتفه ليطلب منه إدارة حسابات الشركة بدلاً من عزام حتى يتعافى، ويعود ليباشر أعماله، لم يرفضْ لؤي طلب صديقه، وتولي مهمة إدارة حسابات الشركة إكراماً له ولولده، فأحمد لن يستطيع وحده حمل عبء شركة ضخمة على عاتقه، والأهم من ذلك كله رؤية بطلة عالمه الخيالي ريم التي لم تعره أدنى اهتمام منذ مجيئه.

ودأبَ لؤي خلال تواجده في الشركة على انتظار إطلالتها، والاكتفاء بالنظر إليها من بعيد، والشرود بحسنها وحيائها الذي يثيره عندما تنتبه إلى نظراته المستديمة لها.

لقد تغاضى عن غرورها الظاهر، وصعوبة مراسها، وصار يستحبّ هذه الخصال.

كان يصل إلى الشركة قبل قدومها، متلهفاً لترقبها وهي تدلف من الباب الرئيسي مطرقةَ الرأس، وينتظر خروجها في نهاية دوامها، وصار يُكثر من تواجده في أوقات دوامها، حتى غدتْ مبعث فرحه، وإنْ لم تجدْ عليه بمجردِ نظرة، ووقع في شباكِ قلقٍ شديد من انتهاء مهمته في إدارة الحسابات، وبدأ يفكر أغلب أوقاته في طريقةٍ ناجعةٍ ليختلقَ معها حديثاً يشفي غليله، ويسأل نفسه "هل تؤاتيه الشجاعة ليقف أمامها، والتحدث إليها وجهاً لوجه عما يضمره لها من إعجابٍ"

فيزداد حيرةً ووجلاً، من تخيّل هذا الموقف الصعب، فهي في ريعان صباها، وسيكون وضعه كرجلٍ أرملٍ لديه ولدٌ عائق في سبيل موافقتها على الارتباط به.

وفي صبيحة أحد الأيام استيقظ كعادته مبكراً، واتجه إلى غرفة ولده وليم ليوقظه، فتح باب غرفته فرآه مستغرقاً في النوم، دنا منه وأحاطه بيديه، ليطبع قبلةً دافئة على جبينه الدافئ، ففتح عينيه الصافيتين كعينيّ كارولين، وابتسم لوالده ابتسامة امتنانٍ لأنه موجود في حياته.

قال لؤي بعطفٍ:

_ صباح الخير يا حبيبي، آن الأوان لتستيقظَ، سوف أُعدّ الفطور ريثما تكون قد انتهيت من غسيل وجهكَ، وتنظيف أسنانك.

همس وليم بصوتٍ مبحوح وهو يتمطّى:
_ صباح الخير أبي، نعم سأنهض، فقط أمهلني دقائق.
اصطنع لؤي تكشيرةً، وقال له:
_ لن أمهلكَ ولا حتى ثانية، لأنني سأخرجُ حالاً، لأنهي مسألة شراء معرض السيارات، وسأذهب إلى الشركة، فكل دقيقة لدي لها ثمنٌ غالٍ هيّا، قمْ حالاً.
بعد ساعةٍ كان لؤي يودّعُ والدته التي تتبعه متجاوزةً عتبةَ الشقة فاتحةً ذراعيها، تجود عليه بأخلص الدعوات، وأحرّ التمنيات بالخير والتيسير، بينما وليم منتظرٌ قدوم الحافلة التي ستقلّه إلى مدرسته الخاصّة.
في الواحدة ظهراً وصل لؤي إلى الشركة، وطلبَ قهوته المرّة كالعادة، ينتظرُ شروق شمسه التي يشعّ من وجه ريم، لكنّ انتظاره طال فقد تجاوزتْ الساعة الثانية والنصف، لقد تأخرتْ كثيراً، لقد جاء كل موظفي الشركة في الدوام المسائي وهي لم تظهر بعد، فاستوحش المكان، وقد خلا من عبق أنفاسها.
ها قد مضى أكثر من ساعتين، ولم يبنْ لها أثرٌ، فنهض باحثاً عن إحدى زميلاتها، ليستعلمَ أمر غيابها.
خرجَ إلى البهو وهو يتفحصّ الموظفات بخجلٍ، فصادفَ إحداهنّ تحملُ مصنفاً بيدها، وتهمّ بالدخول إلى أحد المكاتب، لكنه ناداها قائلاً:

_ عذراً يا آنسة، هل لي أن أسألكِ عن سبب غياب الآنسة ريم عبد الحق في قسم الحاسوب؟

تقدّمتْ منه وهي تقلبُ شفتها السفلى لتجيب:

_ لستُ أعلم يا أستاذ لؤي، فقد استغربتُ مثلكَ تغيّبها، فهي ملتزمةٌ بعملها، لا تتأخر لأيّ سبب.

أردفَ لؤي قائلاً:

_ ألا تملكُ هاتفاً لنتصلَ ونستعلمَ عمّا حدث لها؟

لاحظتْ الفتاة شدّة لهفته، فصمتتْ للحظات تحاول إيجاد حلّ يرضيه، فبرقتْ لها فكرة:

_ أعتقدُ أنّكَ ستجد معلومات كافية عنها في سجلّ الموظفات في قسم الديوان.

أومأ لها برأسه شاكراً، واتجه إلى مكتبه ليتصلَ بموظف الديوان، طالباً منه استخراج رقم هاتف الآنسة ريم.

وبعد قليل دخل موظف الديوان إلى مكتبه، يحمل بيده قصاصةَ ورق سُجّلَ عليها كل المعلومات التي تخصّ ريم، لقد كتب عليها اسمها بالكامل، وعنوانها، ورقم جوّالها.

تنفسَ لؤي الصعداء وهو يركّزُ على القصاصة بين يديه، ولم يتباطىء بالاتصال، سحب هاتفه المحمول من جيبه، وأدرج الرقم، لكنها لم تُجبْ، وأعاد الاتصال لمراتٍ عديدة لكنه لم يلقَ ردّاً، فازدادَ توترهِ وضيقه.

كانت ريمٌ قد طلبتْ سيارة إسعافٍ لأمها بدموع تحرقُ وجهها ذلك اليوم، وجاءتْ السيارة تطلقُ صفارتها، وفانوسها العلويّ الدوّار.

بعد دخولها إلى قسم العناية المركزة، اجتمع كادرٌ طبيّ حولها، وأجروا لها مخططاً كهربائياً للقلب، وصورة إيكودبلر، والكثير من الفحوصات التي أظهرتْ تعرّضها لنوبة قلبية حادة، لكنهم سارعوا بتداركِ الأمر، ووضعوها تحت المراقبة الشديدة، لقد تخطّتْ مرحلة الخطر الذي كان محدقاً بها، لأنها أُسعفتْ على الفور.

أمر الطبيب إبقاءها تحت المراقبة حتى تستعيد عافيتها، وأوعزَ إلى ابنتها محذراً من أنْ تتعرض المريضة لأيّ انفعال مهما كان نوعه.

ظلّتْ ريم معها كل الوقت، تحاولُ جاهدةً ألّا تُبدي أمامها ذلك الحزن الجاثم في حناياها، لكنها ما إنْ ترى أمّها مستسلمةً للنوم حتى تتركَ لدمعها العنان، وتستسلم لبكائها حتى تخفف من الضغط الذي يطبقُ على صدرها، لم تكترث لرنين هاتفها أو تعره أيّ انتباه، لقد أنساها مرض والدتها كل شعورٍ مرّ عليها قبلاً، فكانت كمن تلقى على رأسه ضربةً أذهلته، حتى رحيل والدها الذي اعتبرته حدثاً كارثياً باتَ شيئاً ثانوياً أمام سقوط أمّها المفاجئ.

كانت سلسلة الأحداث تمرّ أمام عينيها الساهيتين الغائمتين بخطىً متوانية، وكأنها أحداث مرّ عليها أزمان غابرة لا تُثير فيها أيّة عاطفة،

ولا ترى بصيص لجذوةٍ فيها، ففكرها ومشاعرها وانفعالاتها انتظمتْ لتغدو في بوتقة واحدة منصبّة على والدتها المستلقية أمامها في السرير.

تنهدتْ ريم بعمقٍ، وفركتْ جفنيها بأطراف أناملها، وبدأتْ تحمدُ الله في سرّها لأنها تواجدتْ في البيت أثناء وصول رسالة والدها، فلو لم تكن موجودة حينها لكانت الآن تلطمُ وتندبُ على قبر أمها، جفلتْ من ذلك التصوّر، واستعاذتْ بالله من شرّ تخيلاتها، ووثبتْ لتدنو من أمّها، وترهف السمع، لتتأكد أنها على قيد الحياة باحتساب أنفاسها.

عادَ هاتفها للرنين الذي أغفلته منذ ليلة أمس، فسارعتْ إلى حيث تضعُ حقيبتها الصغيرة، استلّتْ الهاتف، وتفاجأتْ برقمٍ مجهولٍ، أجابتْ بفمٍ واهٍ لا يخلو من استغراب، ليتوارد إلى أذنها صوتٌ لم يسبق لها أن سمعته، وبعد انتهائه من السلام قال معرّفاً عن نفسه:

_ أنا لؤي يا آنسة ريم ألّا تذكريني؟

ردّتْ ريم وهي تعصر أفكارها لتتذكره، فباءتْ محاولتها بالفشل، وأعلنتْ له باستحياء أنها لم تتذكر، فاستأنفَ موضحاً:

_ أنا لؤي الحسيني ابن عمّ السيدة علياء والدة عزام، الذي أستلمُ إدارة الحسابات في الشركة.

انجلى غموض الموقف أمامها، فقالتْ معتذرة:

_ آسفة سيد لؤي، لقد عرفتكَ الآن، لكني في ظروف سيئة جعلتْ الشرود والشتات يتملكاني.

قاطعها باهتمام واضحٍ:

_ خيرٌ إن شاء الله، ما هذه الظروف إذا لم يكن لديكِ مشكلةٌ في إخباري عنها؟

زفرتْ بتعبٍ وأجابتْ:

_ لقد تعرضتْ والدتي لأزمة قلبية البارحة، أجبرتني على ملازمتها في المستشفى، وإني لم أعِ شيئاً مما حولي، حتى أني لم أتصل بالشركة لتوضيح سبب غيابي.

أعاد لؤي مقاطعتها بلهفةٍ:

_ لا تهتمي بشأن التغيّب عن العمل، لقد ساءني كثيراً سماع هذا الخبر، فهل تأذني بإخباري عن عنوان المستشفى؟

أعطته ريم العنوان، وهي تتذمرُ في سرّها من فرض نفسه عليها، وقد تذكرتْ الإحراج الذي سببه لها بنظراته التي أحاطتها طيلة مكوثها في منزل عزام.

ولم تمضِ ساعةٌ واحدةٌ حتى جاء حاملاً بين يديه باقةً كبيرةً من الورود الجورية الملونة، محاطةً بأوراق الزنبق العريضة، وفي عينيه يتماوج الفرح والاضطراب بآنٍ واحدٍ.

ألقى عليها التحية وهو يضع الورود على الطاولة المحاذية لسرير ماريا، بدا مرتبكاً للغاية، كأنّه مراهقٌ يحاول استجماع كيانه المشتت.

تمتمتْ ريمٌ بكلمات شكرٍ، ودعته للجلوس، فامتثل لدعوتها متخذاً الكرسيّ الذي أشارتْ إليه ريمٌ، وأخذ يرنو إلى أمها بنظراتٍ ملؤها التحسّر.

سأل ريم عن وضعها الصحيّ، فأجابتْ بصوتٍ خفيضٍ وقد اكتسحتها كآبة مفاجئة:

_ لقد تعرضتْ لنوبةٍ قلبية، لكنهم –الحمد لله– أنقذوها.

همس لؤي:

_ الحمد لله على سلامتها.

كان ما أدهشهُ شكل ماريا الذي لا يوحي أبداً بأنها أمٌّ لفتاةٍ شابّة، فقد كانت تميل إلى النحالة، ووجهها لا يفرق كثيراً عن وجه ابنتها، وكأنّ الزمن لم يضع أيّ علامات عليه، فقال متسائلاً:

_ كم عمر أمّكِ يا ريم؟

أجابتْ وهي تحصي بعقلها بشكل سريع:

_ لقد تجاوزتْ الأربعين من العمر، لكن لماذا؟

أجابَ بابتسامةٍ خفيفة:

_ ما شاء الله! لا يبدو أنها في الأربعين، وإنّكِ تشبهينها كثيراً.

تغضّنَ حاجبي ريم بحزنٍ وقالتْ:

_ نعم أنا أشبه أمي، لكنها أجمل مني.

وعندما لاحظَ ما داهمها من حزنٍ سيضطر عينيه إلى ذرف الدمع، طفقَ يحدّثها ليجلو كآبتها قليلاً، فسحبتْ كرسياً لتجلس قريبةً منه:

_ أكثرُ ما أدهشني بعد عودتي من ألمانيا التغيّير الذي طرأ على المرأة في بلادي، فالمرأة الشرقية أصبح دأبها محاربة وطأة أقدامِ الزمن عليها، ترعبها بضع شعيرات بيضاء متسللة بين خصلاتها أكثر مما يرعبها هجوم وحش كاسر بنواجذه الحادة يريد افتراسها..

وجّه إليها تكشيرة ساخرة، وهو يلفّ ساقاً على ساقٍ، وتابع وهو يرى أسارير وجهها تنبسطُ:

_ ويدمرها خيال الغضون والتجاعيد على وجهها، فتبذلُ كل ما لديها من مال لتنفخَ ، وتشدّ، وتصبغُ شعرها خوفاً من زحف الأيام والسنين، حتى غدا من النادر رؤية دلائل الشيخوخة على امرأةٍ هنا، ومن المستحيل تقدير عمر إحداهنَّ.

ضحكتْ ريم من وصفه وطريقة كلامه، فقالتْ بنفس لهجته:

_ ولتكنْ مستعداً أتمَّ الاستعداد للشظايا التي تقذفها عيونُ إحداهنَّ عندما يقتربُ تخمينكَ من عمرها الحقيقي، فلا شيء يزيد بؤس المرأة أكثر من السنين التي تودعُ فيها رونق صباها لتدلفَ خريف العمر.

أيّدها لؤي، وقد أفعمتْ الغبطةُ جوانحه، وهي تشاركه الحديث بفرحٍ، وهذا ما جعله يخفف من ارتباكه واضطرابه، ليشعرَ براحةٍ كبيرةٍ، حتى أنّ ريماً تبخر بداخلها ذلك الحاجز من الحياء المفرط الذي شيّدته بينها وبينه.

مكث قرابة الساعتين إلى جانبها، ولم يشعر بنفسه إلا وقد سردَ لها أكثر من اللازم عن حياته السابقة، وعندما استرجعَ طفولته أخبرها بتفاصيل معاناته بلهجة مضحكةٍ، وتطرقَ إلى سفره وزواجه من كارولين وتحدث عن ولده، وهذا ما جعلها تندهش متسائلة:

_ لديكَ ولدٌ في العاشرة؟ هل يُعقل؟

سألها:

_ ولم الدهشة؟

تراختْ معالمُ وجهها المشدوهة وقالتْ:

_ لا شيء، لكني لم أتصوّر أنكَ كبير لهذه الدرجة، لقد خمنتُ عمركِ في نهايات العقد الثاني لا أكثر.

غرق لؤي بالضحك وقال لها:

_ لا بل يمكنك القول أنّي في نهاية عقدي الثالث، لكن أكثرُ ما حرصتُ عليه هو لياقتي البدنية والالتزام بالغذاء الصحيّ.

أعقبتْ ريمٌ ممازحةً وقد رمته بغمزة من عينيها:

_ أتكون قد بذلتَ كل أموالك لتبدو أصغر؟

انفجرَ ضاحكاً وهو يقول:

_ لا صدقيني لم أبذلْ شيئاً، قد تكون الوراثة هي السبب أيضاً، هناك أشخاصٌ كثيرون يبدون أصغر من عمرهم الحقيقي كأمكِ مثلاً.

مرّتْ سحابة حزنٍ على قسمات ريم، ورمقتْ أمّها الراقدة في سريرها، فهمستْ:

_ معكَ حق يا سيد لؤي.

وجّه تكشيرةً لها مرافقةً قوله:

_ أتمنى أن تناديني باسمي فقط، لا لزومَ للرسميات بيننا، أتعديني بذلك؟

قالت بحياء واضح:

_ نعم أعدكَ يا لؤي.

نهضَ مستأذناً وقد وعدها أن يزورها كل يوم للاطمئنان على والدتها، رافقته ريم إلى الباب مودعةً، وشاكرةً له لطفه.

غادر لؤي المستشفى وهو منشرحُ الصدر، مالئاً رئتيه بأنفاسٍ تمدّه بالأمل المتدفّق، وقرر أن يعيد ترتيب ساعات زمنه، ويشنق الماضي بحبالِ الآتي لكي يُعلنَ أنّ بداية حبّه لريم هو بداية تكوينه.

وعاد في اليوم التالي منشرحاً أكثر من اليوم الذي سبقه، كانت ماريا قد تحسنتْ كثيراً، جلستْ في سريرها بمساعدة ريم وقد بدأ يتورد وجهها شيئاً فشيئاً، وعيناها تصفو من تكدرهما، أمسكتْ ريم يديها وقبلتهما ورفعتهما إلى خدها تتحسسُ ملمسهما وهي مغمضة العينين، فتنبهتْ لصوتِ نقرٍ على الباب، ومن ثم انفرج ليظهر لؤي وما إنْ رأته حتى وثبتْ ناهضة بسرعة تستقبله بوجهٍ مشرقٍ لا يخفي السرور لرؤيته.

وبعد أن ألقى التحية على الأمّ متمنياً لها الصحة والعافية، جلسَ على كرسيّ كان قد سحبها ليدنو من السرير، بينما عادتْ ريم لتجلس على طرف السرير بجانب أمّها.

كان في جعبة لؤي الكثير من التساؤلات لكنه تردّد في طرحها خوفاً من الإحراج وأهمها، أين بقية أفراد عائلة ريم، أبوها، أخوتها، أعمامها، أخوالها، لكنه أجبرَ نفسه على الصمت حتى يقعَ في مأزق، فكل أمرٍ غامض لا بدّ وتجلوه الأيام فيما بعد، ليس هناك من داعٍ للعجلة والتسرع.

وبعد أن نشر الهدوء ألويته على الغرفة، قالتْ له ريم لتختلق حديثاً يبدد هذا الهدوء:

_ سنُخرج أمي اليوم من المستشفى.

رمقَ ساعة يده بسرعة، فكانت تُشير إلى الحادية عشرة صباحاً، وسأل باهتمام:

_ في أيّ وقتٍ ستخرجينها؟

_ في الثانية ظهراً تقريباً.

نهضَ لؤي معلناً:

_ إذاً سأذهبُ إلى الشركة، لأُشرفَ على بعض الأمور، وسأكون هنا قبل الثانية إن شاء الله.

سارعتْ ريمٌ بالقول:

_ لا داعي لتتعبَ نفسكَ، سأتولى الأمر بنفسي.

رمقها بعتبٍ، ورفع حاجبيه بطريقةٍ مضحكةٍ أرغمتها على الابتسام، فقالتْ مستسلمة لمشيئته:

_ كما تريد نحن بانتظارك.

بعد ذهابه بنصف ساعة تركتْ ريم أمها، وخرجتْ لمحاسبة المستشفى، لكنها فوجئتْ بأنّ لؤياً قد سدّد فاتورة المستشفى، امتعضتْ من ذلك، ونوَتْ أن تزعجه لهذا الأمر لاحقاً، وما إنْ رأته مقبلاً في الواحدة والنصف حتى تلقته بكلماتٍ غاضبة تلومه على تسديد الفواتير، لكنه قابلَ ثورتها وامتعاضها بالضحكِ وإطلاق النكات مما سربلَ إلى نفسها إحساساً دافئاً بالارتياح لا عهد لها به.

الفصل الرابع

"نزغَةُ الشيطان"

-1-

في ذلك اليوم الذي رأى لؤي ماريا، وتعرّفَ عليها، حدثَ أمرٌ مبهمٌ لم يجدْ له تفسيراً واضحاً، وذلك عندما قدّمته ريمٌ لأمها على أنه زميلها في الشركة، ولم تذكرْ أمامها صلّة قرابته بعلياء، لكنه طردَ دهشته، واعتبرَ الأمر غير ذي أهمية، بيد أن ريم تعمّدتْ إخفاء صلة قرابته بتلك العائلة حتى لا تُثير سخطَ أمها مجدداً.

لقد أصبح لؤي في تلك الفترة يحتلّ مكانةً كبيرةً في حياة ريم، لأنّها وجدتْ به صدراً حنوناً، وقلباً كبيراً، فقد صارَ يتردّد إلى بيتها، ويلقى الترحيب من قبل ماريا، فهو خفيف الظلّ، والمرحُ سجيّة في طبعه، يتسرّبُ إلى القلبِ ناشراً الراحة بعفويته، ووضوحه، فجاذبيته تتأتى من صدقه، وترجمة لسانه لكلّ ما يجول في داخله.

لم تكنْ نظرةُ ريم إليه كنظرتها إلى عزام في بداية معرفتها به، رغم أنّ لؤياً من طبقته ومستواه، قد يكون هذا الاختلاف عائداً إلى اختلاف طبائع كلّ منهما، فلؤيٌ أطلعها على ماضيه، وما تحمّله من فقرٍ وعوزٍ

أحسّتْ أثناءها برغبةٍ في البكاء لما مرّ عليه، فتذوّقه للفقر فيما مضى جعلها لا تُقيم وزناً لثرائه الحالي.
لقد غدا الشخص الوحيد الذي تجدُ راحتها في وجوده، وتتحلّى بالقوة، لأنه يبعث الأمان لها، فهو ممتلئ بشعاعِ أملٍ متدفقٍ قادرٍ أنْ يبدد كلّ سحبِ الحزن في حياتها بحركةٍ من حاجبيه، أو نظرةٍ من عينيه.
وما إن تخلو إلى نفسها حتى تهيجُ مواجعها لغياب والدها، وتسرحُ بخيالها لتستحضر ذكرى أبيها الراحل، وابتلاع الأيام لحضوره، فتتوقدُ نفسها اشتياقاً، وتناديه بحرقةٍ ومرارة:
"عُدْ إلينا يا أبي، فنحنُ بحاجةٍ ماسّة لكَ، ولو أنّه كان حضوراً ضئيلاً، فأنا الآن لن أطمعَ بأكثر من تنسّمِ رائحتكَ في أجواء البيت، عُدْ إلينا فأمي غدتْ جسداً غابتْ عنه الروح، واضمحلتْ منه العواطف".
كان رحيل عادل صدمة لم تحتملها ماريا، لأنّه كان الخيط الذي يربطُ بين روحها والحياة، فما أشدّه من ألمٍ وقد انقطع هذا الخيط بلمح البصر!

***

مرّتْ شهورٌ عديدة، وبدأ عزام يتعافى من أسقامه التي لازمته منذ وفاة حبيبة قلبه شيرين، وبالرغم من نضوب أيامه من الفرح، إلا أنّه أحسّ بشوقٍ ولهفةٍ ليحتضن طفله الذي لمْ ينظرْ إليه منذ ولادته، ولم يعرف حتى الآن ماذا أسموهُ، فقد تولى والده تسميته "ليث" وكانت علياء قد أحضرتْ للطفل مربية خاصة ترعاهُ وتهتمُ به.

ذهبَ عزامٌ إلى الغرفة التي خصصوها للرضيع، ليراه غافياً في سريره كملاكٍ اقتطعوا له جناحيه، فأخذ يضمه، ويشمه معتذراً له عن جفائه تجاهه بأوجعِ نجوى، وبعد أن أفرغَ كلّ مدامعه، ووضعه في سريره التفتَ فشاهدَ دموع المربية هدى تنسكبُ بحرقة من قسوة ما شاهدتْ.

أما أحمد فقد استبدّ به يأسٌ قاتلٌ، وقد انزلقتْ الحياة إلى منحدراتٍ غير اعتيادية، وقد استشفَ شيئاً غير طبيعيّ طرأ على حياته، لقد فقدَ اهتمام زوجته ولهفتها السابقة، وتقلّصَ الفرح والبهجة بزحفِ جيوش الأحزان رغم مناغشةِ قبسِ الفرح الذي أنارَ أعماقه المعذبة بشفاء ولده الوحيد، لكن خواطرَ سوداءَ تجتاحه، لتُعلنَ سيطرة الهمّ على كيانه سيطرةً كاملةً، فما هي تلك اللعنة التي صَبّتْ جحيمها دفعةً واحدةً عليه؟

كان شرود علياء لا يبعث في نفسه ذرة اطمئنان، حتى اعتقلته جحافل الوحدة الموحشة، فلا ينامُ قرير العين كسابق عهده، ونهاره مزدحمٌ بالعواطف المتنافرة، ويبقى في رأسه سؤال واحد يدور :"هل كان شريان السعادة معقودٌ بضفائر شيرين؟ وعندما ماتت انقلبتْ دنياهم إلى حياةٍ أشبه بمحطةِ قطارٍ مزدحمةٍ، يصمّ صفيرها المدوي آذانهم، ولا يجدُ أحدٌ منهم مقعداً يعطيه القليل من الراحة!".

في الحقيقة لم يكن موت شيرين هو الذي قطعَ شريان السعادة، إنما تفاقم غيظ وكيد علياء، وعودة اضطرام مشاعرها تجاه لؤي هو مَن بدّل اخضرار ربيع أحمد إلى زوابعَ وعواصف قصمتْ ظهور الأشجار،

وشنقتْ كل الورود اليانعة التي تفوح عبقاً وعبيراً، فغيابه لسنوات في ألمانيا كان قد أخمد نيرانها قليلاً، ومما زاد في لهيب حقدها، وموجدتها، توارد أنباء زواجه من كارولين، وظهوره مجدداً على مسارح حياتها هو من أشعلَ الفتيل في حناياها، فأصبحتْ مشردة المشاعر، مشتتة الذهن، تأخذها أفكارٌ، وتوديها أفكارٌ بشأنه، فلا هي قادرة أن تواظبَ في دور الزوجة الودودة المخلصة لزوجها ولأسرتها، ولا هي قادرة أن تكفّ عن حبّها الأعمى لابن عمها، فهو حبّها الأول الذي انغمسَ في وجدانها مُذْ فجر طليعتها، وتشبثتْ جذوره في عمق فؤادها حتى الآن، فعروش الحبّ هو مالكها ويداهُ تغيّر تاريخ الأزمان في لحظاتٍ، وتحرق الدنيا وما عليها في ثوانٍ، إنه حبّاً قد أعماها، ورماها أبداً في فراش الشوق تكتوي، وعلى ضريح الوفاء قد أدماها، ليلوث كيانها بوحل الأحزان الصامتة.

كذلكَ أيقنَ لؤي بأنّ علياء لم تتغيّر بعدُ، ولا زالتْ تسترُ دناءتها خلف نقاب جمالها الصارخ، وابتسامتها السمحاء، وقد لاحظ شرارات نظراتها في كلّ مرةٍ يزورهم فيها ليطلعَ أحمد على أمور الشركة، ويسلّمه الملفات الخاصة بالحسابات، فيكتفي بالسلام عليها واجماً مستاءً منها لأبعد الحدود، لكنه ينشغلُ عنها بالتحدث إلى أحمدٍ وعزام، كما أنّ شفاء عزام بعض الشيء أدخلَ السرور إلى قلبه، وبدوره عزام اغتبطَ لمرآه، واقترحَ عليه مشاركته بإدارة الشركة، إلا أنّ لؤي اعتذر منه لأنه بصدد فتح معرضٍ للسيارات، ولن يكون لديه الوقت الكافي لذلك.

وتواعد مع عزام أن يلتقيا في المكتب، ليُطلعه على كل المستجدات التي طرأتْ على عمل الشركة، فلم يعد هاجس مغادرة الشركة يؤرقُ لؤي بعد أن أصبح يذهب لرؤية ريم في بيتها، فما من عائقٍ أمامه الآن.

في اليوم التالي ذهب لؤي إلى الشركة حسب اتفاقه مع عزام، وبقيا ساعات طويلة في مكتب الإدارة، يعملان إلى أن حان وقت مجيء ريم التي دخلتْ غرفة الحاسوب، وأغلقتْ خلفها الباب، لتبدأ عملها، ولم تمضِ عشر دقائق حتى قُرعَ الباب بهدوء، وما لبث أن أطلّ لؤي برأسه من فرجة الباب قائلاً بابتسامته الجذابة:

_ أسعدَ الله أوقاتكِ أيتها الأميرة التي أضاء وجهها متاهات أفكاري المعتمة.

اتسعتْ ابتسامة ريم وأجابته:

_ أهلاً لؤي، تعالَ واجلسْ قليلاً، لكن لا تطلْ مكوثكَ حتى لا تلهيني عن أعمالي، فلدي الكثير لأنجزه اليوم.

قهقه لؤي قائلاً:

_ لا أريد البتة أن أعطّلكِ عن عملكِ، فقط أريد زرعَ ابتسامةٍ على هذا الوجه الملائكي، ألا ترين أن أسعد الناس هو مَنْ يجد سبباً واحداً ليبتسم ولو مرة في اليوم؟

غضنتْ ريم حاجبيها ممازحة، وسألته:

_ أريد أن أعلمَ من أين تأتي بهذا الكم من الكلام الغزليّ المزخرف؟

ضحكَ لؤي من تعليقها، وردّ عليها وقد ارتفع حاجباه:

_ أقسمُ بالله بأنّي لستُ جريئاً ووقحاً كما تظنين، لكنني عندما أراكِ يخرجُ الكلام من ملافظي تلقائياً دون إرادةٍ مني، فجمالُكِ يستحوذ على الألباب، بالمناسبة جئتُ لأخبركِ بأنني سأتركُ العمل هنا في الشركة.

تشوشتْ أفكارها لبرهةٍ، واستولتْ الدهشة على قسماتها، فتابع وقد أسعدته دهشتها:

_ لقد عاد عزامٌ إلى الشركة اليوم، ولم يعدْ لوجودي أهمية هنا.

فجأةً اغتمّتْ ريم، وتلبّسها إحساس غريبٌ لسماعها بعودة عزام، فتكلّفتْ بالابتسام، وتمتمتْ لتخفي اضطرابها:

_ ولم لا تعملُ هنا أيضاً؟

أجابَ بلهجة جديّة:

_ لا أستطيع يا ريم، سأفتتحُ معرضاً كبيراً للسيارات هنا، وسيستقطبُ أغلب وقتي، لكن هذا لن يؤثر على لقائي بكِ أبداً، سأزوركِ في البيتِ إذا كان هذا لا يزعجكِ.

وغمزها بعينه ممازحاً، فسارعتْ بالقول:

_ بالتأكيد لا يزعجني، بل يسعدني كثيراً مجيئكَ.

صمتتْ لبرهة، وبعد أن تشجعَ قليلاً وأخذ نفساً عميقاً سألها:

_ هل لي أن أسألكِ عن بقيّة أفراد عائلتكِ، فقد كنتُ محاذراً من سؤالكِ كي لا أُسبب لكِ أي نوعٍ من الحرج ولكن...

قاطعته ريم بلهجة لا تخلو من الكآبة، وقد تكدّر بصرها، وارتأتْ أن تكذب عليه بشأن والدها:

_ أعيشُ أنا وأمي وحدنا، لأنّ والدي سافر من عدة أشهر إلى بيروت للعمل هناك.

استأنف لؤي مستفسراً:

_ ألا يوجد لديكِ أخوة؟

_ كلا لم ينجبا غيري.

سألها وقد لاحَ له طيف كآبتها التي كدّرتْ صفو عينيها:

_ أما من وسيلةٍ للتواصل مع والدكِ؟

_ ولِمَ؟

_ كي تخبريه أن يعود إلى هنا، وأنا سأسلمه إدارة المعرض الذي سأفتتحه قريباً.

قالتْ ريمٌ وهي تتهربُ من هذا الحديث الذي بدأ بإرهاق رأسها بصداعٍ عنيف:

_ عما قريب سأراسله، وأخبره بهذا يا لؤي، وأشكركَ من كل قلبي على تلك المبادرة.

_ لا داعي للشكر أيتها الغالية.

استوقفته ريم عندما همَّ بالنهوض، وقد فطنتْ إلى أمر مهم، فعاد واعتدلَ في جلسته:

_ لؤي أريد منكَ شيئاً واحداً.

فقال مندفعاً متحمساً:

_ اطلبي ما شئتِ يا ريم، فطلباتكِ أوامر عندي.

اعتلى وجهها حمرة خجلٍ زادتها فتنةً، مما أرغم لؤي على الصفير ليصيح:

_ أجملُ منظرٍ في عيوني وجهٌ طفوليٌ يحمّر حياءً.

ابتسمتْ ريم وتابعتْ:

_ لا أريد منكَ أن تصرّح أمام أمي بصدد قرابتكَ لعائلة عزام.

دُهشَ لؤي من طلبها، واسترجعَ ذلك اليوم الذي قدمته فيه لأمها على أنه زميل لها، فسألها باستغراب:

_ لكن لماذا يا ريم؟

وبعينين حائرتين وملامحٍ جديّة أجابته بصوتٍ مرتعش بعد صمتٍ قصير:

_ أنا نفسي لا أعلم، كلّ ما أعرفه أنّه بمجرد ذكر هذه العائلة أمام أبي وأمي تُثار زوابعٌ من السخط والغضب، حاولتُ كثيراً معرفة السرّ وراء كره والديّ لهم لكن محاولاتي كانت تبوء بالفشل، كل ما قالته أمي أنّ أبي والسيد أحمد توفيق على خلاف قديم وعداءٍ بعيد.

قطب لؤي حاجبيه وصعّر عينيه قائلاً:

_ أحمد توفيق صديقي؟؟ لا أعتقد بأنّ له عداوات، فهو شخص طيّبٌ مسالمٌ على عكس...

وصمتَ فجأةً فقد كاد لسانه يجره ليقول على عكس زوجته، لكنه ابتلعَ جملته، وخشي أن تلاحظ ريم ما أوشكَ الدلوّ به، فحاول تعديل كلامه مستأنفاً:

_ لكن لا أجزمُ أن يكون لديه بعض الحماقات التي لم أعرفها عنه، على كل حال لن أقول شيئاً بهذا الصدد أمام أحد من عائلتكِ.

تنهدتْ ريم باطمئنان، وامتنان لهذا الشخص الذي دخل حياتها وهي بأمسّ الحاجة لقربه، وعرفتْ معه معنى الصداقة الحقيقية، حتى أنها لم تشعر بفارق العمر بينها وبينه أبداً، هذا الفارق الذي يعتبره البعض قمة التفاوت في التفكير، وأسلوب الحياة، واختلاف وجهات النظر في كل شيء.

***

بعد عراكٍ طويلٍ قررتْ ريم أن تذهب إلى مكتب عزام، وتُقدّم تعازيها له، كان يشدّها شيء خفي لعدم الإقدام على ذلك حيناً، ويدفعها إلى الأمام ذات الشيء حيناً آخر، لكنها في النهاية تغلّبتْ على ارتباكها، وذهبتْ تطرق على بابه طرقات خفيفة، تبعها صوته يأذن لها بالدخول.

لقد رأته بعد شهور، وكان مختلفاً كثيراً عما مضى، لقد أصبحتْ ملامح وجهه أكثر قسوة، وفقدَ نظره كل البريق الذي كان يشعّ في كل وقتٍ،

حتى ظنّتْ بأنه شخصٌ لم تره من قبل، فقد نحلَ وجهه كثيراً، وترك لحيته تنمو وبدتْ عيناه غائرتين، غائمتين على وشك الانهمار، ولا تخفيا الصدع الموجود بداخله.

لقد استوحشتْ رؤيته بهذا الشكل، وأحزنها حاله كثيراً.

تقدّمتْ بضع خطواتٍ، وبصوتٍ مرتعش قالتْ له:

_ البقيّة في حياتك أستاذ عزام، إنه ليؤسفني الوقوف أمامكَ معزيّة بالآنسة شيرين –رحمها الله– لكنه قضاء الله ولا مراد لمشيئته وقضائه.

رفع بصره إليها، ورمقها بعينين جامدتين، تخلوان من أيّ تعبير، فرد عليها:

_ شكراً لكِ آنسة ريم، لقد أعلمتني والدتي بحضوركِ إلى بيتنا لتقديم العزاء.

_ لا شكرَ على واجب، أستأذنكَ.

أومأ لها برأسه علامة امتنان، وأشارَ بيده علامة سماحٍ لها بالخروج.

عادتْ ريم إلى مكتبها، والحيرة تستبدّ بها، لقد تحول عزام من شاب مقبل على الحياة بكل سعادة، لا تفارق البسمة وجهه إلى رجلٍ عميق النظرات، مهيض الجناح، مصدوع الفؤاد، كأنه تجاوز في أشهرٍ قليلة عشرين سنة من عمره، وطفقتْ تستعيد في مخيلتها تلك الأيام التي كان يتصدر فيها عزام مملكة أحلامها، وتضحكُ في سرّها مستهزئة من سذاجة مشاعرها، عندما حلمتْ به حبيباً آسراً لقلبها، إنها تضحكُ ليس

لأنّ حبها له اضمحل، بل على العكس، فهي تجزم أنها لم تحبّ أحداً كما أحبته، إنما تستهزئ بارتفاع سقف تصوراتها وأحلامها، فأين هي من شخصٍ دفن كل حياته وسعادته بين طيات أكفان امرأةٍ أحبها؟؟ إنها تشمئزُ من أوهامها، وخيالها الذي لا يمتّ للواقع بصلةٍ؟.

لقد استحال عزام إلى رجلٍ غير مبالٍ بشيء مهما عَظُمَ شأنه، يأتي إلى الشركة صباحاً، ولا يبارحُ مكتبه إلا وقد افترشَ الظلام عباءته السوداء على كل وضوحٍ، فإنْ استبدّ به حزنٌ لا قدرةَ له على درئه أو مقاومته، حملته قدماه إلى بيت لؤي مساءً علّه يجد عنده القليل من المواساة، فيطفئ بمجالسته جذوة الآلام الملتهبة في أحشائه، إنه يحبه كثيراً ويرى فيه خير مؤنسٍ وجليسٍ، فيظلّ في صحبته حتى ينال منه النعاس، ويسري الخدر في بدنه كله، فيعود أدراجه، وفي أحيان كثيرة يرغمه لؤي على النوم عنده، عندما يتأخر إلى ما بعد منتصف الليل.

وبدا أحمد مطمئناً لوجود لؤي إلى جانب عزام، بعكس علياء التي كانت تغلي مراجل حقدها، وقد حرمها ذهاب عزام إلى بيت لؤي من رؤيته، فغدتْ كثيرة التذمّر والتأفف، وأحمد يراقبها مهموماً وقد أكل اليأس قلبه، فهي بالإضافة إلى وجومها الدائم وشرودها، تباعدتْ عن زوجها حتى في الفراش، وما إنْ يقتربُ منها حتى تبدأ بالتماس الأعذار والحجج، فيدير ظهره وقد قصمتْ ظهره الخيبة المريرة.

وكثيراً ما يعاتبها على صدّها الدائم، ونفورها منه، وملازمة سحنة الاشمئزاز لها، فتقول بلهجة كالزئير لم يعتدها منها قط:

_ يجدر بكَ أن تكبرَ قليلاً عن هذه الحماقات، أهذا وقت العتاب والتذمّر لأجل ما تسميه حبّاً وغراماً، وولدنا غارقٌ بلجّة الأوجاع؟ لقد سئمتُ الحب والغرام، ولم يعدْ لي قابلية على شيء في هذه الحياة.

فيقعُ كلامها كوقع الموت أو أشدّ وقعاً، ويلوذُ هرباً إلى وحدته الموحشة بين جدرانٍ صمّاء، يلتمسُ لها أعذاراً لا تقنعه هو شخصياً، لكنه يرضخُ مجبراً، ويقنعُ نفسه بأشياء لا وجود لها إلا في خياله.

وفي إحدى المساءات الصافية من أيّ كدرٍ في السماء، وقد أهلَّ الصيفُ يرفلُ بخيلاءٍ، بعد أن أنضجَ قيظه كل ما أزهرَ في ربيعٍ استأذنَ الغياب برفع القبعة لفخامة الصيف القادم بقوافل قيظه المبكر، جلسَ لؤي إلى جانب والدته، بينما ولده يشاهد التلفاز، وقد أصبح يتقنُ العربية بشكل جيّد، كان لؤي يتجاذبُ مع العجوز الأحاديث المختلفة، وكان جلّها يعود إلى ماضي حياتهم، ولم يقطعْ هذه الأحاديث إلا رنين جرس الباب، فابتدر وليم الباب ليفتحه وهو يقفز قائلاً:

_ إنّه عزام بلا شك.

وكان توقعه صائباً، فقد دخل عزام مبتسماً، وقد سمع ما قاله وليم، فقال وهو يحتضنه:

_ نعم عزام الذي يحبك كثيراً.

رمى عزام بجسده على الأريكة، بعد أن قبّل يد العجوز، وهو يشعر بالارتياح نوعاً ما، بينما قام لؤي باتجاه بار المطبخ ليحضّر الشاي الانكليزي الذي اعتاد أن يصنعه من الحليب بدل الماء، بإضافة مسحوق "جوز الطيب" حتى صار عزام يتعشّق شربه من يد لؤي.

بعد قليل عاد لؤي حاملاً صينية تصطفُّ عليها الأكواب بيدٍ، وإبريق الشاي باليد الأخرى، قال لعزام الذي كان يراقبه بعينين قد صفا كدرهما:

_ لقد اعتدتُ منذ سنوات عديدة تحضير كل شيء بنفسي.

وتابع وهو يصبّ الشاي في الأكواب، بينما عزام يصيخ إليه سمعه دون حراك، يراقب البخار المتصاعد من الأكواب الزجاجية:

_ حتى بعد زواجي من كارولين لم يُتَحْ لي أن أعيش كإمبراطور، إنما عشتُ كجارية نشيطة لا تعجزُ عن صنعِ شيء مهما كان باستثناء إنجاب الأطفال.

تراءى طيف ابتسامةٍ على وجه عزام، وراح يدخّنُ وينفث الدخان من أنفه، استأنف لؤي:

_ لقد كانت تُعاني من الروماتيزم الذي جعلها عاجزة عن ثني أصابع يديها، لهذا كانت أغلبُ الأعمال من نصيبي.

قال عزامٌ وهو متشوّق لسماع المزيد من قصصه الشيّقة:

_ أخبرني عن حياتكَ في ألمانيا.

انفرجتْ شفتا لؤي عن ابتسامةٍ ساخرةٍ، وشرع يحتسي الشاي، ويسرد لعزام كلّ ما مرّ عليه هناك بدءاً من أول ليلةٍ قضاها في ألمانيا وحتى اللحظة التي عاد فيها إلى الوطن بصحبة ولده، وما إن انتهى حتى زفرَ عزامٌ وأعقبَ زفرته تنهيدة عميقةً وقال:

_ إنّي لأحسدكَ يا لؤي، فأنتَ رجلٌ لا تُعير للأشياء بالاً، ولا تُعظّمُ من أيّ جلل، حتى أخالك لم تشعر بالألم يوماً، وأكثر ما أحسدكَ عليه أنكَ لم تحبّ وتتعلق بامرأةٍ تُفقدكَ رشدكَ وصوابكَ إنْ رحلتْ عنكَ.

قهقه لؤي حتى أدمعتْ عيناه، وقال له:

_ بالنسبة للألم فأنت مخطئ، ليس ثمةَ امرؤ لم يشعر بالألم يوماً، ثمة أمورٌ كثيرةٌ تبعث على الألم لا سبيل لإحصائها، لكني لا أسعى للاحتفاظ بذكرى أوجاعي التي رافقتْ أيامي فيما مضى، ولستُ بصدد نكء ندوبي، ألا تدرك مقدار الألم عندما ينهال عليكَ ربّ عملكَ ضرباً بالعصا، وأنت طفلٌ على أمور يستعظمون فعلها عليك وهي أكبر من قدرة إدراكك، كالعبث بمحتويات الثلاجة لتأكل قطعة جبن، أو انتشال قطعة نقدية لتشتري حلوياتٍ تشتهيها، أو إفشاء حقيقةٍ يخجلون من إبدائها، فالطفلُ يتحمّلُ وزرَ ونوايا الكبار، وعمق خفاياهم.

لكن هناك من يُسارع إلى تضميد آلامه بالنسيان مثلي، وهناكَ من يحشي جروحه التي تكاد تندمل بالملح، لتظلّ آلامها راسخة مثلكَ أنت، أما بالنسبة للحب فهو نعمة كبيرة، وليس بشرّ نستعيذ بالله منه، إنما

على المرء ألا يبلغ به الحب والهيام مرتبة التعلق المجنون، وذلك لأنه يُفقد الإنسان صوابه وتعقله، ويجب أن نتحلّى بالإيمان الكافي، والصبر فالموت حقيقة لا بدّ منها، ولا يعرفُ مخلوقٌ متى وكيف سيلاقي حتفه أو أين؟

قال عزام باستسلام واضعاً ذقنه على ظاهر يده المنكمشة:

_ معك حق يا لؤي.

وما لبث أن غيّر مجرى الحديث حتى لا يقعَ فريسةً للكآبة:

_ وهل ستبقى عازباً مدى الحياة؟

رفع لؤي حاجبيه بطريقة هزلية وقال له:

_ ومنْ قال لكَ سأبقى عازباً؟

لقد وجدتُ الفتاة التي أحلم بها منذ زمنٍ طويل، وكنت أنتظرُ اللحظة المناسبة لأفاتحكَ بهذا الموضوع، وها هي قد جاءتْ على قدميها.

ضحكَ عزام بصوتٍ مسموع من طريقة كلامه، وسأله باهتمام:

_ وأين وجدتَ تلك الفتاة بهذه السرعة القياسية، هيّا أخبرني.

حكّ لؤي طرف حاجبه وأجاب:

_ عندكم في البيت.

قطب عزام حاجبيه، وقد ظنّ بأنه يقصدُ أخته عفراء، فاستنكرَ الأمر، لأنه لطالما تعامل معها كابنةٍ له، إلا أنّ لؤي سارع بالتوضيح وقد فهم إلى أيّ منحى انزلق بفكره:

_ إنّها موظفة في شركتكم، تُدعى ريم عبد الحق.

صاح عزام وقد فغر فاه:

_ ريم عبد الحق!

هزّ لؤي رأسه وقد اتسعتْ ابتسامته، وأردف:

_ نعم هي بذاتها، فما رأيكَ بها؟

قال عزام وما يزال الذهول مستحوذاً على قسماته:

_ ألا تراها صغيرة يا لؤي؟

تحولتْ لهجة لؤي إلى لهجة جديّة، وقال موضحاً:

_ الحبّ لا تحدّه الحدود يا عزام، فأنا مُذْ رأيتها انقلبَ كياني، وتولدتْ بداخلي عاطفةٌ جيّاشةٌ تجاهها، إنني لا أرى أيّ عائقٍ بارتباطي بها.

قال عزام وقد اقتنع نسبياً بوجهة نظره:

_ إنها فتاةٌ ملتزمةٌ، ورفيعة الأخلاق، بغضّ النظر عن غرورها وعصبيتها.

وطفق يسرد للؤي ما كان بشأن الحادث، والمشاحنات الكلامية الحادّة بينهما، وطفولية تصرفاتها، لقد حدثه بكل شيء عنها، ولؤي مصغياً إليه طافحاً بالسعادة، وقد زاد يقينه بأنها الفتاة الوحيدة التي تستحق أن تمتلكَ قلبه بلا منازع، وأنها البحر الذي حان لنهره أن يصبَّ فيه، والغصن الوارف الذي حانَ لطيوره المهاجرة أن تحطّ عليه بعد رحلة من الشقاء والتعب.

-2-

أمضى لؤي عشرة أيامٍ منهمكاً بالمعرض الذي اشتراه، وانقطع عن زيارة بيت ريم، لكنه كان يُحادثها تلفونياً أغلبَ الأوقات، فلا تمرّ ساعةٌ حتى يتصل ويتكلم معها، وقد أودى اهتمامه الكبير بها، وسؤاله عن كل تفاصيل يومها إلى تعلّق ريم به تعلقاً شديداً، فإنْ تأخرَ دقائق عن مكالمتها، يستبدّ بها القلق والتوتر، وتعصفُ بها الحيرة، فتبادر بالاتصال به معاتبةً مؤنبةً بلهجتها الطفولية التي تأسره، وتعقبُ سيل كلماتها القاسية بقفل الخط في وجهه، فيغرق بالضحكِ مغموراً بالسعادة، فيعاود الاتصال بها معتذراً منها، مُبدياً أسفه حتى يسمع رنّة ضحكتها.

وبعد انقضاء هذه الأيام جاء لؤي مساءً إلى بيت السيدة ماريا، وسُرّتْ ريم أيّما سروراً حينما رأته، وقد بدتْ عليه علائم السكينة والاطمئنان، فانتهز فرصة دخول الأم إلى المطبخ لتعدّ لهما الشاي، ليعلنَ دون مقدمات:

_ ريم أنا أحبّكِ، فهل تقبلين الزواج بي؟

ابتلعتْ ريم ريقها بصعوبة بالغة من تلك الجملة المباغتة، و لم تنبسْ بحرف، وساد صمتٌ رهيبٌ، جعلَ لؤي مضطرب الأنفاس، خافق القلب، واستغرق يفكر بأنها حتماً سترفضه، فهي في ريعان صباها، ولديها الوقت الكافي لتختار شاباً يقارب عمرها، وليست مضطرة لقبول رجل أرملٍ مثله.

شعرتْ ريم بالحرج الذي سببته له بصمتها، فسارعتْ لتقول:

_ لقد فاجأني الأمر يا لؤي ليس أكثر، لقد وجدتُ بك الإنسان العطوف، الحنون الذي أغدقَ عليّ وافر حنانه، حتى تعلقتْ بكَ تعلقاً شديداً، وبتُّ لا أطيقُ عنك فراقاً، لكن موضوع الزواج يتطلبُ وجود أبي وموافقته، وأنتَ تعلم أنه غير موجود الآن.

لانتْ أسارير لؤي لدى سماعه هذه الكلمات، وقشع عنه سوءَ الظنون، فصاح بفرحٍ:

_ أنا لستُ مستعجلاً يا أميرتي، سننتظرُ والدكِ حتى يعود، وأتقدّمُ بطلبِ يدكِ منه، المهم عندي هو موافقتكِ أنتِ، فهل هناك من عائقٍ، أو اعتراضٍ على الزواج بي؟

همستْ بحياء:

_ كلا ليس لدي أيّ اعتراض على العكس .

إذن سأفاتح والدتكِ بالموضوع ، ما رأيكِ؟

_ كما تشاء.

وبعد هنيهة أقبلتْ ماريا وبين يديها صينية عليها أكواب الشاي، وصحنين من الكعك المحلّى الذي صنعته بيديها، وجلستْ قبالة لؤي، الذي صمم على مفاتحتها بأمر زواجه من ريم.

تلقتْ ماريا الخبر دون دهشة، أو استغراب، فقد لمستْ في الأيام السابقة حبه لابنتها، واهتمامه الزائد بها، وكان رأيها كرأي ابنتها، هو انتظار عادل حتى يعود.

كان من العسير وصف مشاعر ريم، وتكهّن الأسباب التي دفعتها للقبول بلؤي زوجاً لها على الفور، ودون أيّ تفكير مسبقٍ، وأخذتْ تحدث نفسها عن ذلك وتتساءل بقلق:

_ هل قبولي به زوجاً مبعثه تعلقي الشديد بوجوده، لأنني رأيتُ به حناناً ربما أستعيضُ به عن حنان أمي وأبي؟ أم لأني أبتغي أن أثبتَ لنفسي بأني قد طردتُ عزاماً من عالم أوهامي، وانتزعته قسراً من بين جوانحي؟ ومهما يكون السبب فلؤي شاب رائع، ووسيم أيضاً، وهو حلم لكل فتاةٍ لأنه يمتاز بطبعٍ فريدٍ، وكأنّه صانعٌ للفرح، إنّ قراري صائبٌ لا محالة.

وأخذتْ تعصرُ أفكارها، وتفكرُ بكيفية إخبار والدها عن لؤي، فبرقتْ لها فكرةٌ بعد أن تذكرتْ مضمون رسالته، حينما قال بأنه سيرسلُ لهما مبلغاً من المال، إنها ستكتبُ له خطاباً، وترسله مع الشاب الذي سيأتيها بالمال من والدها.

وأمسكتْ ريم بورقة لتخطّ رسالةً لوالدها علّه يعطف على حالها وحال أمها الذي لطخهما البؤس من بعده.

فكتبتْ له:

"أبي الغالي:

أيّ ظلامٍ طغى على حياتنا في غيابك! وأيّ ألمٍ استوطنَ منّا الحنايا ولم يبرحها! فيا للخيبة القاتلة والحزن المضني الذي لحقَ بنا إثر فراقك!

في ذلك اليوم المشؤوم الذي قررتَ فيه مبارحة ديارنا، جاءنا من قبلك شابٌ وسلّمنا رسالةً منكَ، أخذتها أمي وحين قرأت تلك الرسالة التي تخطّ بين سطورها نبأ رحيلك، تعرضتْ لنوبةٍ قلبية كادتْ تفتكُ بها، لكن رحمة الله واسعةٌ ولم يشأ أن أغدو يتيمة الوالدين، قمتُ بإسعافها على الفور، وقد تجاوزتْ بعد أيام عصيبةٍ الخطر المحدق بها، لكن للأسف يا أبي، لم يتعافى بها إلا الجسد، وقد فارقتها الروح حتى غدتْ كمومياء، لا دليل أنها على قيد الحياة إلا تلك الأنفاس المتحشرجة التي تتنفسها بصعوبة بالغة.

كيف استطعتَ أن تتخلى عن ماريا، وتغالب شوقكَ وحبكَ لها؟

كيف استطعتَ أن تقسو، وتُحاكي القسوة التي ليستْ من شمائلكَ، وإنْ استطعتَ ذلك فكيف طاوعكَ قلبكَ على تركِ ابنتكَ الوحيدة التي تذوبُ قهراً خفياً ليس بمقدورها إظهاره أمام أمها، حتى لا تسقط سقطةً تودي بحياتها نهائياً؟

إنما أخطّ هذه الرسالة ودموعي تحرقني يا أبي، لعلّك ترأف بي وبأمي التي لم تستطع على بعادكَ صبراً.

أبي ومهجة روحي:

لقد تقدم لخطبتي شابٌّ يُدعى لؤي، وهو ذو خلقٍ، طيّب النفس، جميل الطلعة، قلما تجد له نظيراً، ولم أستطع أن أعطيه موافقتي إلا بعد حضوركَ، وهذا رأي أمي أيضاً.

أرجو منكَ يا أبي أن تعود إلينا، وأنا أعاهدكَ ألا أطلبَ منكَ البقاء إلى جانبي دوماً، كما كنتُ ألحّ عليكَ سابقاً، فقط عُدْ من أجل ماريا التي تموت كل يومٍ ببطء"

ابنتكَ ريم

***

كان لتوالي الأيام والأسابيع وقعٌ ثقيلٌ كالموت أو أشدّ، وفي كل ساعةٍ تنتظر ريم قدوم رسولِ أبيها الذي سيعطيهما المال الذي وعد به عادل أمها، وطال الانتظار، ولم يبنْ له أثر، حتى أنها ظنّتْ أنه لن يأتِ أبداً، وكثيراً ما كانت توصي أمها أن تسلّم الرسالة المغلّفة بعناية لذلك الشاب، إذا جاء في الأوقات التي تكون فيها بالشركة، وتكتفي ماريا بهزّ رأسها، وقد لازمتها تلك النظرة الجامدة التي لا تتبدّل لأيّ طارئ.

فما تزال ريم تماطلُ وتسوّفُ للؤي الذي ينتظر قدوم والدها، حتى جاء يومٌ، وقد فقدتْ الأمل بعودة ذلك الشاب، وقررتْ أن تُصارح لؤياً بما خُفي عنه من حقائق عندما سيأتي مساءً لزيارتهم.

وبينما هي جالسة تلوكها الأحزان، سمعتْ نقراً خفيفاً على الباب، رمقتْ الساعة التي تُشير إلى الثامنة مساءً، فتكهنّتْ بقدوم لؤي، وسرعان ما خفق قلبها، وقد ارتفع منسوب الخوف عندها لمصارحته، واكتساها مزاجٌ كئيبٌ لا تستطيع التخلص منه، فابتدرتْ الباب لتفتحه، فرأتْ نفسها وجهاً لوجه أمام ذلك الشاب المنتظر.

سألته بلهفة وقد كادتْ تتقافز:

_ هل من رسالةٍ في جعبتكَ من قبل والدي؟

هزّ برأسه علامة الإيجاب، واستلّ ظرفاً ورقياً من جيب سترته ليعطيها إيّاه، فتناولته وقبّلته مغمضة عينيه لأنه من رائحة أبيها، وما لبثتْ أن ضمتْ كلتا راحتيها، وقالتْ له برجاءٍ وتوسّلٍ:

_ انتظرني أرجوك ريثما أحضر شيئاً.

وهرعتْ إلى الداخل لتأتي برسالتها، وعادتْ مجدداً لتقول بنفس لهجة التوسّل:

_ أرجوكَ أعطِ هذه الرسالة لأبي فور رؤيتكَ له، هل تعدني؟

قال الشاب متأثراً بحالتها، وقد لاحظ لهفتها العميقة:

_ حاضر يا آنسة، سأوصلها للسيد عادل غداً صباحاً.

تنفّستْ ريم الصعداء، وودّعته، وبعد ولوجها البيت أغلقتْ الباب وأسندتْ ظهرها عليه، لتفتح الظرف الورقي، لكنها وجدتْ المال فقط دون رسالة

منه، فاغتمّتْ لذلك، لكنها قشعتْ غمّها لتشعرَ ببعض الراحة، لأنّ رسالتها ستصل إلى أبيها حتماً.
هرولتْ لتخبرَ أمها التي لم يطرأ عليها أيّ انفعال لسماع كلمات ابنتها، بل بقيتْ كما هي مومياءٌ تتنفس بصعوبة، لا حزن يبكيها، ولا فرح يضحكها.

***

بدتْ علياء مساءَ الجمعة موتورةً بطريقةٍ لا تُخفى على العيان، فهي تغالب شرور نفسها، وتدفعها ملء إرادتها، لكن لا تلبثُ هذه الشرور أن تنسكبَ انسكاباً يُعكّرُ نقاءها الذي تظهره، ويتلوّن جمالها بأصبغة الحقد متناثر اللهب، فيضفي على وجنتيها احمراراً بلون الجمر.
وبدأ تفكيرها يتخذُ اتجاهاً مدجّجاً بالخبث، وباءتْ محاولاتها في كبتِ مشاعرها المضطرمة بالفشل الذريع، وذلك عندما صرختْ بوجه عزام الذي كان يهبطُ السلالم وهو يُعدّلُ ياقةَ قميصه متجهاً إلى حيث يجلس والده، مفكّراً متأملاً حال زوجته بعيون حمراء:
_ هل صار اللجوء إلى لؤي فرضاً من فرائض صلواتكَ يا عزام؟
ألقى عليها عزام نظرةً كالمصعوق، كأن أحداً صفعه على وجهه بغتةً، فسألها مذهولاً:
_ وما المشكلة في ذهابي إليه يا أمي؟

وعادَ يرمقُ والده الذي ينزفُ حزناً صامتاً، وتابع بدهشة موجّهاً سؤاله إلى والده:

_ ما بها أمي، وما الذي يدفعها إلى هذه العصبية؟

خففتْ علياء من حدّة كلماتها، وأجابتْ على تساؤله:

_ لا أريد منكَ ملازمة لؤي، أخاف أن تتطبع بطباعه السيئة، هذا كل ما في الأمر.

انقبض قلبُ عزامٍ حتى كاد يحبسُ الدم عن عروقه، وقال بلهجةٍ غاضبة:

_ هذا الكلام لا أقبله منكِ يا أمي، ولستُ صغيراً لأتطبّعَ بطباع الآخرين، وبالنسبة للؤي فهو ليس شخصاً سيئاً كما تقولين، ولا أسمح لأحدٍ بالتدخل في شؤوني، هل هذا واضح؟

قال جملته الأخيرة بإشارةٍ من يده تحذيرية، فاضطرمتْ نارها أكثر وصرختْ:

_ هل تهدّدني يا ولد؟ ومنذ متى لا تسمحُ لي بالتدخل في شؤونك؟

وألقتْ نظرها على أحمد موجهة كلامها له:

_ أتسمع ما يقوله ولدكَ يا سيد أحمد؟

لا يريدنا التدخل في شؤونه، وأنتَ تستمتع بصمتكَ ولا تبادر بكلمة.

نهض أحمد ومشى بضع خطواتٍ مقترباً من عزام قائلاً بصوتٍ مرتجف وهو يربتُ على كتفه:

_ اذهبْ حيث تشاء يا بني، وإلى أيّ مكان تجد به راحتكَ.

وهنا ندتْ شهقةٌ من علياء جعلتْ أبصارهم مصوّبةً نحوها:

_ ما الذي أسمعه؟ أنا لا أصدق بأنك تمرّد ابنكَ عليّ، وتناصر عناده.

قال عزام لأبيه متجاهلاً تعقيب أمه:

_ لم أكنْ عازماً على الخروج اليوم، لأنّ لؤي مشغولٌ بخطيبته، وقد ذهب لزيارتها.

_ خطيبته!!

أصدرتْ علياء صوتاً يُحاكي الفحيح، وقد فغرتْ فاهاً.

وبدوره قال أحمد متفاجئاً لهذا الخبر:

_ هل خطبَ لؤي يا عزام؟ ومنذ متى؟

اتجه إلى الأريكة وجلس نصف اضطجاعه، فأخرج لفافة تبغٍ وقال لوالده الذي لحقه وجلس بمحاذاته:

_ نعم يا أبي، لقد خطبَ ريم عبد الحق، تلك الفتاة التي تعمل في شركتنا.

قالتْ علياء وهي تقاوم تهدّج أنفاسها:

_ أليستْ هي الفتاة الشقراء التي صدمتها في سيارتكَ؟

هز برأسه إيجاباً دون أن يلتفتْ إليها وسألها بسخرية:

_ كأنكِ تتجاهلين معرفتكِ بها، ألم تخبريني بمجيئها إلى هنا للتعزية؟

كانت تدركُ بأنها تتكلم دون وعي، بينما أحمد مغمض العينين كأنه يطرد شبحاً من أمامه، وأحسّ بعدم الارتياح، فهي ابنة ماريا لطفي تلك المرأة التي ظلمها، وهتكَ شرفها، ولم يأبهْ لمصيرها ذات يوم.

أفاق من شروده على سؤال عزام:

_ ما بكَ يا أبي؟ هل تشعر بالتعب؟

رفع أحمد حاجبيه متكّلفاً ابتسامةً بدتْ شاحبةً وقال:

_ لا يا بني، لقد فرحتُ بهذا الخبر، لكني أستغربُ إخفاء لؤي لخطبته عني.

ابتسم عزام وقد ظنّ بأنّ والده يشعر بالغيرة حيال حيازته مكانه في قلب لؤي فقال:

_ لم تتمْ الخطوبة رسمياً، فهو ينتظر عودة والدها من السفر.

انسحبتْ علياء من الصالون لتدلف غرفتها بوجهٍ ممتقعٍ مفزعٍ، وقد استعرتْ نيران غيرتها حتى كادتْ تُحرقُ الدنيا وما عليها.

وبعد ربع ساعةٍ لحق بها أحمد بعد أنْ طفح كيله منها، وأصبحَ مزاجها أقسى من أن يتحمله.

فتح الباب، فرآها واقفةً على حافة النافذة ترنو من خلالها إلى الخارج، فجأرَ بصوتٍ مخيفٍ وراءها:

_ أريدُ الآن تفسيراً واضحاً لكل تصرفاتكِ المُبهمة، ولن أظلّ طويلاً قابعاً تحت وطأةِ حيرةٍ تكاد تقتلني.

بدتْ بحالةٍ من الانفعال لا تسمحُ لها بالردّ على تساؤله، وبقيتْ على حالها تغلي سرّاً، لكن أحمداً اقتربَ منها، وسحبها من ذراعها بقوةٍ جعلتها تستدير إليه وتابع:

_ ما الذي غيّركِ هكذا؟

إنَ الجميع يتساءلون عن سبب شرودكِ الدائم، وطبعكِ الغامض، يفتشون عن سيدة هذا المنزل التي كانت تفيضُ حيوية، وتغمرُ الكل بحنانها ومحبتها، حتى أنا الذي عاشرتكِ عمراً كنتُ أظنّ بأني أفهمكِ من إيماءة واحدة، بتّ الآن أقف أمام لغزٍ يعجزُ العقل عن فكّ طلاسمه، ورموزه، جاهلاً جهلاً تاماً عنكِ كأني لم أعرفكِ يوماً.

فقدتْ علياء السيطرة على هدوئها الخارجي، وصرختْ في وجهه:

_ اتركْ ذراعي لقد آلمتني، أنا حزينة على شيرين، وانقلاب مجرى حياتنا ليس إلا.

احتدمَ بينهما الحديث حتى أصبح صراخاً لم ينته إلى نتيجة، وبعد قليل خرجَ أحمد صافعاً باب الغرفة وراءه، وقد أحسّ بدمائه تتجمّد حينذاك، بينما علياء انكفأتْ على وجهها فوق السرير تعضّ الوسادة بأسنانها، وتبكي بكاءً مريراً، وهي تقاوم شرّاً يتفاقم في قرارتها، وتتقلّبُ في فراشها لتنتزعَ رمحاً ناريّاً انغرس في منتصف قلبها، إنه رمحُ الغيرة العمياء، فأيّ مكانٍ عليكَ الهروب إليه عساه يخلّصكَ مما تعانيه، إلى أين ستهربُ من عدوّكَ الذي بداخلكَ، يدمركَ ويؤلمكَ كثيراً؟؟

-3-

اعتزلتْ ماريا – منذ ذلك اليوم الذي خرجتْ به من المستشفى– مهنة الخياطة، فصارتْ لا تُطيق نفسها، ولا تُطيق فعل شيء إلا الجلوس لساعات وساعات مستسلمةً بوهنٍ للكآبة التي ما فارقتها منذ صباها وحتى اليوم.

مضتْ ثلاثة أيام على إرسال خطاب ريم لعادل مع ذلك الشاب، وبدا الوقتُ يبتلعُ ماريا ويذيبها في ساعاته، ولا تبذلُ مجهوداً لإنقاذ ما بقي منها على قيد الحياة.

الساعة تُثيرُ فيها إزعاجاً إضافياً من جلبةِ سيرِ ثوانيها والتي تشير إلى الثالثة، رمقتها ماريا باشمئزاز مع رغبةٍ في تحطيمها، ليتسنى لها المكوث في هدوءٍ تام، كانت ريم حينها في الشركة، اضطجعتْ ماريا على الأريكة وفي مخيلتها يدور شبحٌ مرعبٍ محاطٌ بظلام حالكٍ.

إنّ خيالات الناس تختلف عن بعضها البعض، فللبعض مخيلةٌ لا تبرحُ عن ابتداع وتفخيم الأفكار حتى ينضجُ فيها سيناريو متكاملٌ من الأهوال والمصائب لا حصر لها، وسطَ هالةٍ من الحزن دائمة على كل ما فات وكان، وعلى جانبٍ آخر يمتلكُ آخرون مخيلةً موجّهةً فقط للجانب المشرق من الحياة فلا يضيّعوا لحظةَ استمتاعٍ بما جاد الله عليهم حتى وإنْ قلّ الفرحُ في واقعهم.

وماريا من هؤلاء الناس الذين يبتدعون في نسج الأحزان ويعيشون فيها في خيالهم.

أخذتْ ترنو إلى سقف الغرفة، تجتاحها الأفكار التي تنخرُ عظام رأسها بداء الكآبة الذي لا شفاء منه، وفجأة سمعتْ صرير الباب، فأدارتْ وجهها شطره لترى عادلاً أمامها واقفاً دامعَ العينين، كسير الطرف، فهبّتْ واقفةً بسرعةٍ تشكُّ بصدقِ عينيها، فرفعتْ يديها تفركُ جفنيها لتُقنعَ نفسها بأنها واهمةٌ وما هذا إلا طيفٌ نسجته أوهامها.

إلا أن عادلاً أخذ يتقدّم نحوها فاتحاً ذراعيه، فركضتْ إليه، وألقتْ نفسها بين أحضانه، وقد انفجرتْ بالبكاء الذي أبتْ عيناها أن تسعفها به منذ رحيله عنها، تبكي لتفرّغ كل عذابها فوق صدره الحنون.

ضمها عادلٌ بقوةٍ، وهو يقول بصوته الدافئ:

_ سامحيني يا ماريا .. سامحيني يا حبيبتي.

رفعتْ ماريا وجهها الملطّخ بالدموع وهمستْ:

_ أحبّكَ يا عادل، أحبكَ، فهل تصدقني؟ بعد دفني بسنين نفضَ حبكَ التراب وأحياني، فقبّلني لتكون قبلتُكَ شهادة ميلادي، وعانقني لأُزهرَ ربيعاً من جديد، أخرجني من بين قضبان حزني لأحتفلَ بولادة سعادتي اليوم.

كان اعترافها بحبّها له كشمسٍ أضاءتْ عمراً مديداً من ظلامٍ دامسٍ سرمديٍّ، واستحالَ قلبه –الذي ظنّه حجراً صلداً قبل تلك الساعة– إلى

فؤادٍ بحجمِ وطنٍ دافقٍ بينابيع المحبة، تطيرُ في فضاءاته الطيور مستبشرةً، حيث يطيبُ لها التغريد، فالتقتْ شفاههما بقبلةٍ سطّرتْ شوقه الدفين، وحنينه المكتوم من زمنٍ بعيد.

جلسَ عادل على الأريكة، وأقعدَ ماريا في حضنه كما كان يُقعدُ ريم في صغرها، فأحاطتْ رقبته بكلتا ذراعيها، وسألته:

_ أتدري ما الذي أصابني في غيابكَ؟

اغرورقتْ عيناه بالدمع تأثراً، وقال:

_ نعم، لقد أخبرتني ريم، وقد تمزّقتْ أعضائي واستحالتْ شظايا حين قرأتُ رسالتها.

أسندتْ وجهها على رأسه، وأنشأتْ تقول بحسرة وهي ترنو إلى أصص الأزهار:

_ في غيابكَ لطالما سقيتُ الزهور، لكنها رفضتْ أن تنمو، وكنتُ أهوى النوم في كل حينٍ علّني أراكَ في منامي، في غيابكَ بكى صمتي والجدران، وانتحبَ سريري وثيابي، وكنتُ أعتصرُ ذاكرتي لأعرفَ نفسي لكنها لم تسعفني، ولا حتى رئتيّ وجدتْ هواءً نقياً يحييها، فكنتُ أختنقُ وحدي.

قال عادل قد هيّجتْ أوجاعه كلماتها:

_ أحبكِ ماريا كما لم أحبّ أحداً، وسأفتدي عينيكِ بروحي.

_ عادل أريدكَ زوجاً وحبيباً، أريد أن تبقى بجانبي، ولا تفارقني لحظةً واحدةً.

_ سأبقى إلى جانبكِ يا نبض الفؤاد، وقرّة العين.

وامتزجتْ به، وامتزجَ بها، وغاب الزوجان عن هذا العالم مستسلمين لتيّار هواهما، متدثرين بعواطفهما.

***

عادتْ ريم مساءً بصحبة لؤي الذي طلبَ منها عدم العمل في الشركة بعد هذا اليوم، وبالطبع أذعنتْ لطلبه فهو سيغدو خطيبها، وبعد أشهرٍ سيكون زوجها، وليس مناسباً أن تعمل وتقضي طل نهارها وحتى ساعات السماء الأولى خارج المنزل.

فتحتْ ريمٌ باب الحجرة بمفتاحها الخاص، بينما يقف لؤي خلفها، لكنه تجمّد إثر صيحةٍ قويةٍ أطلقتها ريم وهي تثب راكضةً إلى الداخل لتُعانق رجلاً قد أسرع لاحتضانها، ودخل لؤي بخطواتٍ متباطئة متيقناً بأنه والدها، وما أذهله لبُرهةٍ هو بكاء حبيبته وبكاء والدها ووالدتها، لكنه أعزى سبب هذه الدموع إلى الاشتياق العميق، حتى التعبير عن الشوق يتفاوتُ بين شخص وآخر.

بعد دقائق من العناق الذي خلّفه اللقاء الحار، التفتتْ ريم إلى لؤي واتجهتْ صوبه تجذبه من يده ليصافح والدها، وقالتْ وهي تمسح دموعها:

_ إنه والدي، أعظمُ أبٍ في الدنيا، إنّه عادل عبد الحق.

تمتم لؤي:

_ شرفٌ لي معرفتكَ يا سيّد عادل.

واتجهتْ بالقول إلى والدها:

_ إنه لؤي الذي حدثتُكَ عنه في رسالتي.

تصافح الرجلان وأخذا يتبادلان التحية، وكلمات الإطراء.

بدتْ ريم عاجزة عن ضبط فرحها، فتراها تضحك بسبب وبلا سبب، مختلسةً كل حين النظر إلى أمّها باندهاش، فماريا لم ترجع كسابق عهدها، إنما تحولتْ تحولاً جذرياً، وقد خلعتْ الثياب السوداء، وارتدتْ فستاناً زاهي الألوان، وفردتْ شعرها على كتفيها كفتاةٍ في العشرين من عمرها، وليس هذا فحسب، فهي تضع قليلاً من المساحيق التي تُضفي لجمالها بريقاً خاصاً، وتجلس ملاصقة لعادل لا تفارق الابتسامة محيّاها.

لقد كانت مشاعر ريم في أوج جيشانها، تحسّ بسعادة لم تتذوقها من قبل، فصارتْ خطواتها أشبه بالقفز، لقد استطاعتْ بخطابها أن تُعيد والدها، وأن تنفخَ حياةً جديدةً في روح والدتها، حتى ماريا تغيّرتْ لهجتها مع ريم وصارتْ كلما أُتيحتْ لها الفرصة تقبّلها على وجنتيها كما لم تفعل من قبل.

شكّتْ ريم بأنها تحلم وحتى ولو كان حلماً فليس بمقدور حتى الحلم أن يكون بهذه الروعة في اللحظات التي تعيشها الآن.

إنّ من أكبر الأخطار التي تُحيق بالأبناء وترديهم إلى مرادي السوء هو الفجوة بين الأم والأب، قد لا يدركُ الزوجان هول عواقب الأمراض النفسية التي تفتكُ بشخصية أبنائهما، عندما يبني كلا الزوجين جداراً من الجفاء بينهما، فينشأ الطفلُ بنفسٍ متغلغلة بشتى العقد النفسية الخطيرة أهمها فقدان الثقة النفس وبمن حولهم، وهذا التفكك يؤثر على مستقبلهم، فلا يعودوا قادرين على بناء أسرة قويمة متماسكة خالية من المشاكل والمنغصات.

انجذبَ عادل لشخصية لؤي وأحبه، وذلك أنّ لؤياً أعطى انطباعاً إيجابياً عن نفسه بعفويته، وصدقه، وكلامه الموزون، ولمْ يُخفي عن الأسرة شيئاً، فقد تكلم عن ماضيه بمنتهى الشفافية، وشرح لهم كيف استطاع بفضل صفاء نواياه الوصول إلى ما وصلَ إليه اليوم.

وفي نهاية حديثه تقدّم إلى عادل بطلب كريمته منه، وعندما لقيَ قبولاً من عادل، وعدهم أن يأتي بصحبة والدته وأخته لخطبتها رسمياً.

استأذن بالانصراف ولحقته ريم عندما توجه إلى الباب الخارجي، وهي تهمس:

_ إلى اللقاء غداً يا لؤي.

استدار قليلاً لينظر في عينيها الساحرتين وهمس:

_ تصبحين على خير يا زهرة عمري.

وصل لؤي إلى منزله مفعماً بالسعادة والأمل، بيدَ أنّ هناءهُ لم يطل أمده، وما لبثت سعادته أن اضمحلتْ بعد أن دخل البيت ليجدَ علياء مع والدته لوحدها.

ألقى التحية عليها دون مصافحة من بعيد بوجهٍ جامد، ناشفٍ، ودخل إلى غرفته، فما لبث أن لحقه ابنه وليم ليقول له:

_ أبي الخالة علياء تريد محادثتكَ في أمرٍ مهم.

وهمّ لؤي أن يتكلم لكنه فوجئ بها تدخل إلى غرفته دون استئذان بعينين وقحتين، وتطلبُ من الصغير مغادرة الغرفة، فأطاعها وذهب مُغلقاً الباب خلفه، تلفّتَ لؤي حيرةً كأنه لا يفهم معنى لوجودها في هذا المكان.

فقال لها بفظاظةٍ وبلهجة احتقار:

_ أنا لا أشكّ مطلقاً بأنكِ فقدتِ الجزء المتبقي من عقلكِ، فلا يجدر بامرأة محترمة مباغتة شاب في غرفته هكذا، إذا كان لديكِ ما تقولينه فليكنْ في الصالون أمام والدتي وليس هنا.

فأعلنتْ متنهدةً، وعيناها تزداد وقاحةً، وبدنها يرتجفُ انفعالاً:

_ لستُ هنا لأغتصبكَ حتى تقول هذا، بل جئتُ لأهدّدكَ.

ارتفع حاجباه دهشةً وأطلقَ تصفيرةً من بين شفتيه استهزاءً:

_ بشأن ماذا؟

وسرعان ما اتقدتْ عيناها لهباً، وفحّتْ فحيحاً، وهي تشير بإصبعها محذرةً:

_ لن تتزوجَ تلك الفتاة، ولا أيّة فتاة أخرى وأنا على قيد الحياة.

انفجرَ لؤي ضاحكاً، وقد اهتزّ جسده كله إثر نوبة الضحك التي اجتاحته، وهي تنظرُ إليه شزراً، ويتناثر الحقد من بين جفنيها، لكنها صرخَتْ به ليكفّ عن الضحكِ ويصغي إليها:

_ اسمعْ أنا لا أُطلقُ النكات لتضحك، أنا جادّةٌ فيما أقول، لن أسمحَ لكَ بتمزيقي أكثر من ذلك.

أوقفْ ضحكه، وقد اصطبغَ لونه بصبغة الحنق، وقرّبَ وجهه من وجهها لدرجة أن لفحتها أنفاسه –التي لطالما اشتاقتْ استنشاقها– كان صوته خفيضاً بينما أسنانه تصطكُ غضباً وقالَ:

_ عليكِ أن تخجلي قليلاً من نفسكِ، ألا ترين حجم تفاهتكِ وأنتِ تقومين بدور المرأة الفاضلة المحترمة ذات الجاه والمال، زوجة رجلٍ محترمٍ، وأمّ لشاب كعزامٍ قدوةٌ في الأخلاق الحميدة، بينما أنتِ في الحقيقة امرأةٌ تفوحين خيانةً وغدراً.

التقطتْ ذقنه بقبضتها، وعيناها تلتمعُ فيها الدموع وقالتْ بحدة:

_ احترسْ لكلامكَ فأنا طاهرةٌ، ولستُ بخائنة أيها الوغد.

أمسكَ لؤي بقبضة يدها وأبعدها عن وجهه، وهو يبتسمُ ويُعلنُ بسخرية:

_ ما قيمة أن يكون الجسدُ طاهراً إذا كان الفكرُ عاهراً؟ صدقيني يا ابنة عمي المصون، إنّ الفكر العاهر ليس بصعبٍ عليه أبداً أن يقود الجسد بملء إرادته إلى الخطيئة والرذيلة، وأنتِ أكبر مثال على ذلك، والدليل

أنني أستطيع بلحظةٍ واحدة تعريتكِ من كامل ملابسكِ، واستباحة هذا الجسد الذي تفاخرين بطهره، وبعدها أقذفُ بكِ خارجاً لا تلوين على شيء، لكنني لم أفعل هذا وأنا في سن المراهقة عندما كنتِ تطاردينني، تقتحمين بلا خجلٍ خلوتي، فكيف بوسعي فعلُ ذلك وقد بلغتُ الرشد وكبرت؟ اعلمي يا علياء أنّ لؤياً منذ نعومة أظفاره ترفّعَ بنفسه عن الدنايا ولم يكُ يوماً محتقراً لنفسه، منكّس الرأس، منحطّ الكرامة.

كانتْ علياء تلعق شفتيها، وتُصغي باستغراقٍ، بينما قدماها تصطكانِ من فرط الإهانة التي لحقتْ بها، فتابع لؤي وقد أولاها ظهره باستخفاف:

_ عودي إلى منزلكِ، وتيقّني بأنّ طهارة الفكر أسمى في معانيها من طهارة الجسد، ولا خيرَ في نظافة وعاءٍ مملوء بشرابٍ آسنٍ، وإياكِ أن تدلفي مساجد القلوب دون طهارةٍ، فالحب كالإيمان كلاهما يستوجبُ الطهارة، وصوني زوجكِ الذي يحبّكِ، لا بل يقدّسكِ، والأهم من هذا كله تخلّي عن شروركِ التي ستطيح بكِ يوماً، وتوبي إلى الله فهو توابٌ رحيمٌ.

بدأتْ أوصالها ترتجفُ بشدة، وتنامى حقدها فزأرتْ:

_ سأجعلكَ تندمُ على ما قلته أيها السافل، ولن أستسلمَ بسهولة، وأعدكَ بأنني سأذيقكَ وجعاً ترتجي الموت كل لحظةٍ لتُشفى منه.

وركضتْ تجهشُ بالبكاء، خرجتْ متعثرة تجرّ أذيال الفشل والخيبة والشرر يتطاير من كل أجزائها، غير مكترثة بنداء زوجة عمّها العجوز لها، بل صفعتْ الباب خلفها وتوارت.

بقي لؤي بحالة ذهول لدقائق عديدة، وتمدّد في سريره يشبكُ يديه تحت رأسه، يزفر باكتئاب، وقد غزاهُ همٌّ ثقيلٌ للغاية لا حيلة له بدرئه.

إنها لم تتغير قط، لازالتْ تلاحقه، وتخنقه ككابوس كما كانت سابقاً، فماذا يفعلُ إزاء امرأةٍ لا يردعها رادعٌ عن الانقياد الأعمى المُميت إلى هوس عقلها الذي يوسوس لها بالإثم والخطيئة؟.

-4-

بعد شهرٍ من ذلك اليومِ تمتْ خطوبة لؤي وريم بحضور والديها، ووالدته العجوز، وهبة أخت لؤي مع زوجها بالإضافة إلى وليم، لقد ارتأى لؤي أن تتم في ركنٍ صغيرٍ من إحدى المطاعمِ الفاخرة بدون حفلٍ، ولم يُعلنُ عن موعد الخطوبة، أو يُخبرُ أحداً من عائلة أحمد توفيق لسببين، أولهما: النزول عند رغبة ريم كي لا يعلم والداها صلة القرابة بينهم وبين خطيبها في الوقت الراهن، وثانيهما: اتقاء شرّ تلك الأفعى علياء لأنه توقع أن تقوم بفعلٍ وضيع يُدخلُ بذور الشكّ والريبة إلى نفوس الجميع.

كل شيء حدثَ بسرعة فائقة، فخلال أيامٍ تُحصى على أصابع اليد، انقلبتْ أحوال عائلة عادل عبد الحق انقلاباً جذرياً، وانقشعَ ظلّ مارد الأحزان المخيف الذي أطال جثومه فوقهم، لتُشرقَ شمسهم تشعّ بأنوار البشرِ والبهجة.

قد أوكلَ لؤي لعادل مهمة إدارة معرضه الجديد، ولم يكتفِ بهذا، فقد أهدى ريماً منزلاً كبيراً مجهزاً تجهيزاً فاخراً في إحدى العمارات الشاهقة قرب منزله في حيّ "المزّة" ليسكنَ فيه والداها، بالإضافة إلى شراء سيارة خاصة لها، كلّ هذا الترف الذي أحاطها به كان لا يساوي ذرةً واحدةً من حُبّه وحنانه واهتمامه بها، لقد وجدتْ فيه فارس أحلامٍ يفوق قدرة تصوراتها، وطفحتْ نفسها حبّاً له وتعلقاً به.

ولم يجد لؤي سبباً لتأجيل الزفاف، فاقترحَ على خطيبته أنْ يقيموا حفل الزفاف في مدةٍ لا تزيد عن الشهر، ولكنه كان أثناء حديثه عن هذا الموضوع يزداد وجوماً وشروداً، وقد داخله شعورٌ مباغتٌ بعدم الارتياح، فسألته ريم ذات يومٍ حيث كانت تجلسُ إلى جانبه في السيارة وهما في طريقهما ليزورا والدته العجوز:

_ ما بكَ يا حبيبي؟ أراكَ تبدّلتْ في لحظاتٍ هل تذكرتَ شيئاً؟

قطّب لؤي جبينه، وقال ونظره مثبتٌ في الطريق أمامه:

_ هل توافقين على السكنِ مع والدتي، وابني وليم في البيت؟

أمْ أنكِ تفضلين أن ننفردَ في بيتٍ لوحدنا؟

غضنتْ ريم حاجبيها، وبدتْ كالمصعوقة لتقول بنبرةٍ فوقية:

_ هل تفكرُ جديّاً بأن نسكنَ مع والدتكَ وابنكَ؟ بالطبع لا أقبلُ إلا العيش في بيتٍ خاصٍ لنا وحدنا.

جمدتْ عينا لؤي، وأخذ شهيقاً عميقاً للسيطرة على همٍّ أثقله، ولم ينبس ببنتْ شفة، بينما ريم تختلسُ النظر إليه، وقد التزمتْ الصمتَ حتى وصولهما إلى منزله، دخلتْ ريمٌ يتبعها لؤي، فهرعتْ تحتضنُ والدته العجوز، وانكبتْ على يدها تقبّلها، واستدارتْ تبحث بعينيها عن وليم لتعانقه، بينما لؤي تهالكَ بجسده على الأريكة مستغرقاً بتفكيره، مشتْ ريم إلى منتصف الصالون تجول ببصرها مترقّبةً البيت زاويةً زاويةً، وتتفحص الأبواب المودية إلى الغرف، فما لبثتْ أن دخلتْ في الممر، ومن ثم

عادتْ إلى حيث تجلس أمه، وركعتْ على ركبتيها توازي حماتها التي ابتسمتْ لها فتكاثفتْ الغضون في وجهها الهرم، أمسكتْ ريم يدها، وعادتْ تلثمها ثم سألتها:

_ أتدرين كم أحبكِ يا أمي؟

هزّتْ العجوز برأسها، وقالتْ لكنتها الصغيرة:

_ نعم يا صغيرتي، أستطيع التكّهن جيداً بما تخفيه القلوب، وإنّي أجزمُ بأنّ قلبكِ أشدّ بياضاً من نداف الثلج.

رمقتْ ريم لؤياً الذي لا يزال يعالج همّه، غير مكترث لما يجري حوله، فتقصّدتْ رفع صوتها بلهجة أقوى:

_ لي شرطٌ واحدٌ لأكون زوجةً لابنكِ يا أمي، فإنْ وافقَ عليه، تزوجنا، وإنْ لم يوافقْ فلنفترقْ.

نظرَ إليها لؤي مصعوقاً، وقد أشارَ إليها بحاجبيه كي لا تتكلم بشيء قد يجرحَ أمه، لكن ريماً تجاهلتْ إشارته، وحولتْ نظرها إلى العجوز التي تُصيخُ سمعها منتظرةً سماع الشرط، وتابعتْ ريم:

_ شرطي هو أن أعيشَ هنا معكِ يا أمي، ومع وليم لأكونَ ابنةً ثانية لكِ ترعاكِ وتهتمّ بكِ، ولأكونَ أمّاً لوليم تعوضه عن حرمانه المبكر لحنان الأم.

وفي لحظةٍ انقشعَ قلقُ لؤي، واستولتْ عليه الدهشة، فهبَّ واثباً تجاهها، فأوقفها على قدميها ليحتضنها ويهصرها بين أحضانه هامساً في أذنها:

_ أتعلمين يا زهرة عمري لو أنّكِ طلبتِ القمرَ لأنزلته صاغراً بين يديكِ، وما رفضتُ لكِ أمراً، وكلّ ما داهمني من حزنٍ سببه أنني وجدتُ مبارحتي لهذا البيت صعباً للغاية، وخصوصاً وأنّ أمي امرأة طاعنةٌ في السنّ، ولن يكون بإمكانها العيش بمفردها، وابني صغيرٌ غير قادرٍ الاعتناء بنفسه، ولكنكِ الآن أزلتِ حزني وارتباكي بقلبكِ الكبير.

ضحكتْ ريم بطفولةٍ وقالت له:

_ ستكون جاهزاً طوال عمركَ لتلقّي المقالب مني، فأنا هكذا أحبّ التلاعب بأعصابكَ، لكن ليس لوقتٍ طويلٍ، فاستعدْ يا حبيبي.

قالتْ العجوز بوجه مشرقٍ:

_ أدِمْ هذا الحب والوفاق بين ولديّ يا رب مدى الدهر..

***

كانت ماريا مشغولةٌ بترتيب الأثاث الجديد في منزلهما بمساعدة عادل الذي يتذرعُ كل حينٍ بأخذ استراحةٍ، فيضمُ زوجته ويقبلها قبلاتٍ حارةٍ تنشر في أرجاء نفسها سعادة لا تُضاهيها سعادةٌ في الوجود، فليس أجمل من اخضرار عود القلب بعد أفول العمر، وتصحّر المشاعر إثر سنواتِ الحزن والضياع.

إنها الآن تُدرك أنها لم تحبُ أحداً كما أحبّتْ عادلاً، وكلّ حبٍّ خلاه ما هو إلا وهمٌ وسرابٌ، لكنه كان حبّاً مخبوءاً بين طيّات أحزانٍ ابتدعتها الأوهام، ولم يظهر للعيان من تحت أكوام الوهم إلا عندما فارقها وغاب

عنها، حينذاك ذاقتْ الحزن الحقيقي الذي تصير فيه الحياة والموت بنكهةٍ واحدةٍ، حزنٌ يسير بكَ مكبّلاً بأصفادٍ ثقيلةٍ إلى حتفكَ.

إنّ فراق عادل عنها مزّقها إلى أشلاء، قد تمضي دهوراً وهي تلملمها ولن تفلحَ لأنّ هبوب ريحٍ مفاجئة ستذري كل ما جمعته في ثواني، لقد أيقنتْ ماريا أنّ عادلاً هو الذي يوحّدُ أشلاءها ويعيد صياغتها لتكون أصلبَ من أعتى زوبعة، فهو الحياة بالنسبة لها، وهو الحب النقي في زمن الغدرِ، هو الأمان في غابات تشرّدتْ بها خطواتها، وحنانٌ سرى في أوردتها كدماء تُثمل القلب مغلّفة بدمع الاشتياق.

مضتْ الأيام، وانتهى العروسان من تجهيز كل شيء لحفل الزفاف، لكن لؤياً لم يكن مرتاحاً لإقصاء أحمد وعزام عن حياته بهذا الشكل، فهو يحبهما ويرى بأنه سيبدو في وضعٍ محرجٍ إنْ لم يوجّه لهما دعوةً، فصارح ريم بهذا، وبدورها أعطته وعداً بمناقشة الموضوع مع والديها، وستخبره لاحقاً بما سيفعلون بهذا الخصوص.

صباح اليوم التالي بينما كان والداها على مائدة الإفطار، جلستْ مرتبكة الملامح، وقد لاحظ عادل ما داهمَ ابنته من اضطراب، فسألها بابتسامته الصافية:

_ هناكَ كلامٌ وراء قضبانِ شفتيكِ، هيّا اخلِ سبيله حالاً أيتها العروس الجميلة.

تنهدتْ ريم لتخفف من توترها، وقالتْ بعد تردّد:

_ لقد أخفيتُ عنكما أمراً لا أُدركُ مدى أهميته بالنسبة إليكما.

صمتتْ وقد ألجمها التردد مرةً أخرى، فأوجسَ عادلٌ من حيرتها، وكذلك ماريا التي سألتها بخوف:

_ ما هذا الأمر الذي أخفيتهِ عنا يا ابنتي؟ هيّا قولي ولا تتردّدي.

أجابتْ بصوتٍ مرتعشٍ بعد صمتٍ قصير:

_ إنّ لؤياً هو ابن عمّ السيدة علياء.

سأل عادلٌ مستوضحاً:

_ ومن هي تلك السيدة؟

_ والدة السيد عزام توفيق...

أصاب الذهولُ كلّاً من عادل وماريا، ونظرا إلى بعضهما نظرةً طويلةً دون أن ينبسا بحرفٍ.

فاستتلتْ ريم قائلة بصوت يخنقه الرجاء:

_ لكني أقسمُ لكما بأنّ لؤياً لا ذنب له بشيء في إخفاء هذا الأمر، فأنا مَنْ رجوته كي يخفي قرابته بهم، لأنني أعلمُ بأنه لن يلاقي قبولاً منكما إنْ اطلعتما على ذلك.

وجمتْ ريم وقد راعها صمتهما، ونظراتهما الغريبة لبعضهما، وقد لاح لها كأنهما يخططان لقرار خطير في نفسيهما، فأدركتها رغبة عارمة بالبكاء، لتُعلن وصوتها يرتجف:

_ لا أرى عائقاً أمام زواجي من لؤي، فهو شخص مختلف لا أجدُ فيه إلا الخصال الحميدة.

أطرقتْ مارياً أرضاً، واكتفى عادل بهزّ رأسه مع إطلاق زفرةٍ دون أن تستدلّ ريم عن معنى واضح وجليّ لردة فعل كلّ منهما، فنهضتْ بعصبية لتدخل غرفتها، وهي تبدي تبرماً شديداً.

لحق عادل بها بعد دقائق طارقاً باب غرفتها مستأذناً بالدخول، كانت تجلسُ في سريرها محتضنة وسادتها بين يديها، ووجهها قد ازداد تقطيباً.

قعد عادل إلى جانبها واضعاً يده على كتفها، وهمسَ بعطف:

_ إنّنا يا بنيتي لا نريدُ من هذه الدنيا إلا راحتكِ وهناءكِ، ولن نقفَ سدّاً في وجه سعادتكِ، لكن أريد أن أنصحكِ خوفاً عليكِ، احذري يا ريم من تلك العائلة، ولا تقتربي منهم، وإني لا أضمُّ لؤياً إليهم بتحذيري، إنما أقصدُ عائلة أحمد توفيق، فهم أناسُ لا يأتي منهم إلا القبائح والأذى، وأنا أعترفُ لكِ بأنّ لؤياً شابٌّ رائعٌ استحوذَ على إعجابي، ولا ذنبَ له بقرابته وصلته بهم، لكن أحبّذُ ألا يجعلكِ قريبة منهم، فلا أحد في الدنيا اختبر أذاهم كأبيكِ.

وجالَ طيفُ دموع بين جفنيه، فقالتْ له وقطراتُ دمعها لا تزال عالقة بين رموشها:

_ أعدكَ يا أبي أنني سأحذرهم مدى العمر، ولن أقترب منهم أبداً.

اقتربَ عادلٌ منها وطبعَ قبلةً على جبينها هامساً:

_ ليباركِكِ الله يا حبيبتي.

فانتهزتْ ريم الفرصة لتقول لوالدها باستحياء:

_ هل هناك من ضير بحضورهم حفل الزفاف يا أبي:

_ قطّبَ عادل جبينه مع ابتسامةِ حنوّ، وأعلنَ لها وهو يداعبُ وجنتها بيده:

_ لا ضير من حضورهم يا صغيرتي.

ندتْ شهقة خافتة من جهة الباب، فالتفتَ عادل ليجدَ ماريا مصعوقة بما قاله، لكنه غمزها بعينه علامة أنه سيوضح لها لاحقاً غايته من ذلك.

عانقته ريم بطفولةٍ، وشكرته وهي تمسكُ جوالها لتخبرَ لؤياً بموافقة والدها، فتركها عادل، وأخذ زوجته مغلقاً باب الغرفة خلفه.

وضعتْ ماريا يدها على خصرها بانزعاج وسألته:

_ لماذا وافقتَ على حضورهم؟ كلّ هذا لترضيها؟ ألا تهمكَ مشاعري أنا؟

التقطَ عادل يدها، ودناها من شفتيه مقبّلاً إياها قائلاً:

_ لقد ماتَ الماضي يا حبيبتي، ودفناهُ سوياً يومَ عدتُ إليكِ ورأيتُ حبّاً انتظرته منذ سنواتٍ طافحة بالعذاب والبؤس، ولم يعدْ له أهميةٌ وقد وجدنا ضالتنا المنشودة، فهل في نفسكِ شائبةٌ من الألم الذي تجرّعتِ كؤوسه سابقاً؟

همستْ ماريا بإطراقةٍ من رأسها:

_ كلا لم أعدْ أتذوّق إلا الفرح والسعادة معكَ.

_ إذن؟

ابتسمتْ ماريا وقد توردتْ وجنتاها، واندفعتْ صوبه تضمه بقوةٍ إلى صدرها، فحملها بين ذراعيه القويتين، وبدأ يدور بسرعةٍ أخافتها، فبدأتْ بالصراخ الممزوج بالضحكِ الذي جعلَ ريم تخرجُ من غرفتها، وتقفُ مذهولةً لترى أجملَ منظرٍ في الدنيا يتمثلُ بامتزاجِ روحين في لحظاتِ سعادةٍ ونشوةٍ، وأخذتْ تدعو الله ضارعةً أن تدوم أيام حبهما.

-5-

في المساءِ ذهبَ لؤي إلى منزل أحمد توفيق، بعد أن أخبرته ريم صباحاً بموافقة والديها حاملاً معه بطاقة الدعوة.

استقبله أحمد كعادته بكثير من التهليل والترحاب، وبدوره عزامٌ خرج من غرفته عند سماعه بمجيء لؤي، جلس لؤي متجاهلاً شرار الحقد الذي ينصبّ عليه من عيون علياء، لكن هذا الشرار ما لبث أن تبدّد لحظة دعوته لهم إلى حفل الزفاف ليصيرَ قذائفَ ترجمه بلا رحمة.

وانتابه هلعٌ كبيرٌ من أنْ يلاحظ أحمدٌ أو عزام أو عفراء نظراتها العدوانية له، فهبّ واقفاً يستأذنُ بالانصراف.

لقد أبدى عزام سروراً بإطلاق ضحكةٍ عاليةٍ، وهو يباركُ له مما جعلَ أحمد يرنو إلى ولده مستغرباً، فمنذ زمنٍ لم يره سعيداً هكذا، فتنهدَ بارتياح كبير، واقتربَ من لؤي مهنئاً ومعاتباً له على انصرافه بهذه السرعة، وأيضاً عفراء تقدمتْ منه مؤيدة حسن اختياره بقولها:

_ لقد رأيتُ ريم مرتين، إنها جميلة جداً يا لؤي، أتمنى لكما السعادة.

أيّدها لؤي قائلاً مع ابتسامةٍ عريضة، وقد لاحتْ سحنة الاستحياء عليه:

_ والأجمل من هذا أني أحبها، وليس هذا فحسب، إنها الحبّ الأول في حياتي.

ورمقَ علياء التي وقفتْ تفركُ أصابعها بطريقة عصبية، وتعضُّ شفتها السفلى بغيظٍ، وأجبرتْ نفسها أخيراً أن تقول له كي لا يلاحظ أحد من عائلتها حالتها المأسوية:

_ مباركٌ يا ابن عمي.

رفع لؤي أحد حاجبيه، وتكّلف ابتسامة تحملُ كلّ معاني الاستخفاف ليردّ عليها:

_ شكراً يا ابنة عمي، وعقبى لفرحة عفراء وعزام.

أطرقَ عزامٌ بحزنٍ، وقال له:

_ انتزعوني من لوائح الفرحِ، فقد غادرني باكراً دون عودة.

وانسحبَ من وسطهم يُداري دمعاً يوشك على الانسكاب بغزارةٍ، فقد كان قلبه يبكي أضعافَ ما بكتْ عيناه.

بعد مغادرةِ لؤي اجتاحَ أحمد القلق والتوتر من فكرةِ حضور هذا الزفاف، وتجعّدتْ جبهته بغضونٍ عميقةٍ تنمُّ عن ألمٍ كبيرٍ، فكيف يجسرُ على رؤية ماريا بعد هذه السنوات، وفجأةً أحسّ بضيقٍ في أنفاسه، وتصبّبَ عرقاً، إنّه عاجزٌ عن رؤيتها، فبمجردِ أن يلمحها ستتجلي أمام ناظريه فوادح ذنوبه وآثامه السابقة، وتوصّلَ أخيراً في قرارته إلى حلٍّ يبدّد قلقه، وهو ألّا يُلبي الدعوة، ويتذرع بالمرض، فهو سيرسلُ زوجته وولديه نيابةً عنه، وتنفسَ الصعداء بعد جهدٍ، لقد رأى أنّ هذا هو الحلّ الأنسب كي لا يقع بين مخالب ضميره المتربص له.

ولم يكنْ اضطرابه وتوتره بأقلّ من توتر وانفعال زوجته التي تشتعلُ غيظاً، لكأنّ دماءها استحالتْ إلى حمم تسري في عروقها تكاد تفتكُ بكل أجزائها، وترديها أشلاءً ممزقة، فكيف ستحتمل أن تراه بجانب فتاة صغيرة وجميلة، إنها ستكون عاجزة عن ضبط أعصابها، فهي حتماً ستتصرف تصرفاً أحمقاً يودي بها إلى الجحيم، وعزمتْ ألّا تذهبَ إلى هناك هي الأخرى، ستتذرعُ بأيّة حجة، ولن ترى حبيبها وهو يتزوج من أخرى.

كان الصراع النفسيّ متأججاً في ذات الوقت بكلّ من جوف أحمد وعلياء، وكلٌّ منهما له سبب مختلف عن الآخر.

وفي الاجتماع المسائي للعائلة الذي سبق حفل زفاف لؤي وريم بيومين، بدا الجميع منشغلين بأفكارهم، كلّ منهم يحدث نفسه، لا بل يُصارعها، فكانَ محيّاهم يوشي بالعراك الشرس الذي يعتمل في دواخلهم.

وعفراء تُدير طرفها تكاد لا تعرفُ هذه الأسرة التي تبدلتْ في غضون أشهر، وبعد يأسٍ من صمتهم المقيت، انتفضتْ مزفرةً بصوتٍ عالٍ لفتَ الأنظار إليها، فابتسم عزام الذي كان يمكث بعيداً بعض الشيء عنهم، وقال لها بكآبة:

_ معكِ حقٌّ يا أختي أن تتذمري بعد أن استحال فردوسنا الذي تنعّمنا به منذ نعومة أظفارنا إلى جحيم مستعر الأوار، لكن لا تضعي اللوم عليّ

يا أختاه، فلستُ بمُلامٍ، وقد فقدتُ جزءاً من روحي، إنما العتبُ الأكبرُ على والدينا اللذين انقلبتْ أحوالهما بدون سبب واضح.

وعاد للانشغال بهاتفه المحمول كي لا يرى ردة فعل والديه من وقع كلامه، لكنّ أحمداً قال مؤيداً كلام ولده بحزن:

_ أخوكِ محقٌّ يا ابنتي، فهو غير مُلامٍ بطغيان اليأس والحزن، واجتياحهما لعائلتنا، وأنا بدوري أقسمُ أنّي جاهلٌ لما ألمَّ بنا، ومستعدٌ أن أموت لقاء معرفة الخلل الذي هدمَ دعائم أفراحنا.

جفلتْ علياء، وقد انصبتْ كل الاتهامات الخفيّة عليها، فأعلنتْ مرتبكة:

_ إنّ سعادة عزام هي سعادتنا جميعاً، وعندما يُضامُ ولدي، لا تنتظروا أن تبقى نفوسنا هانئة، وأعيننا قريرة، لقد دمرني شخصياً سوء حاله، دعونا نتناسى هذا الأمر الآن، ونتحدّث بشأن زفاف لؤي، فأنا لن ألبّي دعوته لأنني لستُ على ما يرام.

وسرعان ما أدلى أحمد:

_ وأنا أيضاً لن أستطيع الذهاب لأنّي أحسّ ببوادر وعكةٍ صحيةٍ.

رمقهما عزام باستخفاف وعدم رضا قائلاً:

_ سأحضر حفل الزفاف أنا وعفراء، رغم أنه لا يوجد شيء بداخلي إلا وينتحب، لكن لؤياً غالٍ على قلبي، ولن أخجله، وبالتالي لن أحرجكما.

ووجه كلامه إلى أخته التي ترتسمُ على تقاسيمها التعاسة؟

_ جهزّي نفسكِ بعد غدٍ يا أختي لنذهبَ سوياً.

-6-

في تمام الساعة الثامنة مساءً من يوم الخميس أول شهر أيلول، كان لؤي يقلّ عروسه الجميلة إلى صالة الأفراح، وقد تكلّلتْ سيارته بآكاليل الورود الملونة، يتبعهما والدا ريم عادل وماريا بسيارةٍ، وعزام وأخته بسيارة أخرى.

لقد زرع منظر العروسين بقلب ماريا فرحةً أطاحتْ بعهود أحزانها الماضية حتى أنّها بكتْ بغزارة من فرط سرورها.

مشتْ محاذيةً لابنتها، بينما عادل إلى جانبها يرفع رأسه بشموخٍ وافتخار، يودّ الصراخ بأعلى صوته بأنّ تلك الأميرة الفاتنة هي ابنته وحده.

وانطلقتْ الزغاريد والصيحات عند دخولهما صالة الأفراح الواسعة، لتنطلق الفرقة الموسيقية بعزف الأغاني الصاخبة معلنةً مجيء العروسين.

اختار عزامٌ وعفراء طاولةً قريبةً من لؤي وريم، وكان يحاولُ جاهداً أن يقتنصَ شبح ابتسامةٍ ينسيه ذكرى ذلك اليوم الذي تزوج فيه من شيرين، لكنه عبثاً كان يستطيع إخفاء طيفِ سعادته الزائلة، فتغمر عينيه بغتةً الدموع، وتغتال فرحه الزائف، ولم يرَ بُدّاً من شرب الخمر علّه يتخدّرُ، فيتأقلم على وضعه الجديد، ومشاركة لؤي فرحته العارمة.

جالتْ ريم ببصرها في أرجاء القاعة دون أن تتمكن من التعرّف على أحدٍ من الحاضرين، فقد امتلأتْ الصالة بالكثير من معارف لؤي وأقاربه، ولم

يكنْ من طرفها أحدٌ إلا والديها، ورغم غصّتها لهذا الأمر، إلا أن وجود لؤي إلى جانبها قشعَ عنها في دقائقَ هذه الغمامة المقيتة، لقد كان ممسكاً بيدها لا يتركها لحظةً، ويرنو إليها بنظراتٍ حالمةٍ تحمل الكثير من الحبّ والاشتياق.

وبين الحين والحين كانت تختلسُ النظر إلى عزام وأخته، وتجرفها تجاههما عاطفة جيّاشة لم تعرف كنهها، فتحسّ بالخجل الممزوج بموجة غضبٍ من نفسها، وتؤنب قلبها بقسوة معتقدةً بأنّ ما يدفعها إلى ذلك الشعور هو ما امتلأ به قلبها يوماً ما تجاه عزام، فتثور بصمتٍ، وتلعنُ تلك الأفكار التي نعتتها بالشيطانية، فلماذا بدون وعيّ تراقبُ عزام، وتتألمُ لأوجاعه الصامتة؟.

انبثق الدمع من عينيها الجميلتين رغماً عنها، وذلك لإحساسها بالذنب، فهي تدركُ أنها تحبّ لؤياً كثيراً، ولا تتخيل أيَّ رجلٍ مكانه في حياتها، إذاً ما كنه هذا الشعور الخفيّ الذي يجعلها تعطف وتشفق على عزام؟ وتتحوّل بنظرها إلى عفراء فتحسّ بحبٍّ خالصٍ تجاهها.

ضمها لؤي أمام مرأى الجميع، وقد رأى دمعها الذي أعزاه إلى حزنٍ لمفارقة عائلتها، شأنها شأن كلّ الفتيات في ليلة زفافهنّ، فضمته ابتغاء الهروب إلى أحضانه من حالة التشويش التي استبدتْ بها.

سارعتْ ماريا إلى ابنتها تكفكفُ دموعها، وهي تواري حزنها عنها، وتهمسُ في أذنها كلمات رقيقة تعطيها جرعاتٍ من الحنان الذي هدّأ من

روعها قليلاً، وعادتْ بعد برهةٍ إلى أجواء الحفلة، وقد دعاها لؤي إلى الرقص معه وسط صيحات الفرح التي تعالتْ من الصبايا اللواتي تجمّعنَ حول المنصة، فغزاها الطبع الطفولي، وبدأتْ تتمايل كثملة مفعمةٍ بالأمل والأمنيات لقادمٍ أجمل.

***

عاش العروسان نعيماً لا يعلوه نعيمُ، فرعايته واهتمامه لم يفسحا لها مجالاً للشرود ولو للحظة، لقد أضفى حبه على حياتها سحراً وبهجةً لم تتخيلها، فهي أميرته المدللة التي توّجها على عروش قلبه تأمره فيلبّي، تناديه فيحيطها بذراعيه، وأصبحَ لها الأب والأم والزوج والحبيب، ولا دأبَ له إلا إرضاؤها بكافة الوسائل، وهي بدورها تبذلُ كل ما بوسعها ليبقى سعيداً، فتهتم بوالدته أيّما اهتمام، وترعى ولده كما لو أنه ابنها، وحتى وجود عزام كل مساء صار شيئاً اعتيادياً، فقد تبدّد واضمحلَ أيّ شعور غريب أولته إياه فيما مضى، أصبحَ بالنسبة إليها كأخٍ عزيز ترتاح بقدومه وحديثه، بالإضافة إلى صداقتها الوطيدة بأخته عفراء التي وجدتْ فيها مزايا طيبة بعيدة عن التملّق والتكلّف، على عكس السيدة علياء التي تثير امتعاضها، فقد غدتْ هذه الأخيرة مبعث نفور لريم، وخاصة عندما تأتي إلى زيارتهم بكل شموخها وغرورها الظاهر، ونظراتها الغريبة وانتقاداتها اللاذعة وهجومها المقصود الذي يُسارع لؤي لردّه عن زوجته البريئة بكلّ ما أوتيَ من عزم، وبدأتْ ريم تلاحظ انزعاجه وانقباضه إثر

مغادرتها، لكنها تتردد في الإفضاء إليه بما يختلج في صدرها، وتلتزم الصمت حيال تصرفات هذه السيدة حتى لا تزيد توتره، فهو كما رأتْ ريم يكرهها بشدة، لكنه يُخفي كرهه لها، قد يكون لأجل عزام الذي يحبّه حبّاً جمّاً، وتنبسط أساريره لرؤيته كأنه جزء مهم من حياته وروحه.

إنها سيدة فوقية غامضة، هذا ما دفع عزام للحديث عنها مع لؤي ذات مساء، وقد اضطرتْ ريم لاستراق السمع، فتوارد إلى مسامعها قول عزام ممتعضاً:

_ إنّي لم أعدْ أطيق المكوث في منزلنا، لقد أصبحَ الجو هناكَ خانقاً لا يُحتمل، بعد أن عشنا عمرنا كله لم يعكّر صفونا شيء.

سأله لؤي باهتمام:

_ وما السبب في ذلك يا عزام؟ لمَ طرأ هذا التغيير؟

زفر عزام بضيق قائلاً:

_ لستُ أدري، فبعد وفاة شيرين تحولتْ أمي إلى امرأة أخرى نكاد لا نعرفها، بينما أبي يظلّ واجماً، حزيناً طوال الوقت، هي لم تعدْ تهتم لأمره أبداً كما كانت تفعل سابقاً، حتى أنها تُفضلُ البقاء أسيرة جدران غرفتها، وعندما تخرجُ لا تطلبُ منه مرافقتها، بل تذهب وحدها، تغيبُ ساعاتٍ، وهو منتظرٌ بحرقة.

تنهدَ لؤي بعمق وتمتم:

_ لا حول ولا قوة إلا بالله، لا تحزن يا عزام، آمل أن تكون غمامة سوداء ولا بدّ أن تنقشعَ، وتعود عائلتكَ كسابق عهدها.

همسَ عزام وعيناه تومضُ قلقاً: _ آملُ ذلك.

الفصل الخامس

"هَبّةُ النكبة"

-1-

وما إنْ أطلّ الربيع سنة 2011م، حتى أودعَ في جميع النفوس قلوباً ترشحُ بؤساً، لتصدحَ العصافير بألحان كئيبة لا عهدَ لهم بها، تطبعُ على ملامحهم تعابير فرحٍ ذابلٍ جامدٍ لا يتبدّل.

وقد اندلعَ بغتةً لهيبُ حرائقَ تضمرُ حقداً عظيماً على بلدٍ آمنٍ، لم يعتدْ أبناؤه على العنف والمآسي.

وشرعَ كلّ حاقدٍ وناقمٍ بنفثِ سمومه، ليثير الشغب، ويُشعلُ شرار الحقد الحارق، حيث انتشرتْ الاحتجاجات التخريبية مزعزعةً الأمان في كلّ ركنٍ من أركان الشوارع السورية، فتوجّس الناس شراً، وقد أدركوا خطورة وعواقب ما يحدث، بعد أن كثرتْ التفجيرات التي طالتْ الأماكن العامة والمزدحمة بالسكان ليتساقط القتلى بالعشرات، واكتستْ المآقي حالات الترقب والحذر لمجهولٍ قاتمٍ، وساد توقع الموت سيادة تامة.

كانت الأشهر تمضي تباعاً، والانتظار المُضنِي لبريق أملٍ بالخلاص هو حال الجميع الذين نبّهتْ المآسي التي تتمخضها الحرب في بواطنهم كوامنَ الأشجان والأحزان وهم يترقبون هول النقمة التي نزلتْ عليه، لكن

الوضع لم يكن يُبشّر بأيّ خلاص على العكس، فقد كان الدمار يتوغل أكثر فأكثر، لتبدأ مرحلة الاغتيالات لشخصيات مرموقة، وضباط في الجيش، وقامات علمية بارزة، إلى جانب اختطاف المواطنين العسكريين والمدنيين، فغدا الموتُ يطحنُ الجميع طحناً.

لم يعدْ الناظرُ يرى إلا شوارعَ شبه خالية من الغادين والرائحين، ومحالاً مغلقةً، وقد حصدَ الموتُ الكثير من الأرواح، واعتصر أكثر القلوب.

لقد دارتْ معاركٌ طاحنة بين جنود الجيش العربي السوري، وبين مجموعات إرهابية عملوا على تنظيمها، وأطلقوا على كل مجموعة تسميةً معينة تأخذُ اتجاهات عديدة، منها الديني المتطرف، ومنها السياسي الجائر بقوانينه، وأخرى تجمعُ بين التعصب الديني المذهبي، وبين السياسي، ولم يكن من روابطٍ مشتركة بين تلك المجموعات إلا رابطٌ واحدٌ هو تفتيت بنيان الدولة، وتقسيمها، والظفر بسيادتها.

ودأب الناس على حماية عائلاتهم، وأنفسهم من غدر الغادرين الذين يعيثون فساداً وطغياناً.

فأيّ همٍّ ثقيلٍ جاثمٍ على كواهلهم، وهم محاطون بأشباح الخوف والهلع، تنصبُّ كل محاور أحاديثهم في محور الوضع الذي آلوا إليه، والموت المتربص من كل ناحية، حتى غدتْ كلماتهم ملطخةً بلوعة عميقة على وطنٍ يتوعده الحاقدون بالحرق والذبح؟؟.

فالأبصارُ تجولُ مذهولةً، والأنفاسُ مبهورةٌ تفتشُ عن أرضٍ كانت فردوساً من فراديس الله أودعها على أرضه، فلا يجدون إلا أعزّاء يتلاشون، ودماءً تسيلُ، وأطراف شبان بعمر الورود تُبترُ، وقبوراً مشرعةً دوماً لأبدانٍ فتية.

وكلّ حيّ يلهث وراء آمالٍ مسروقة، وكلّ جندي يرسم على جبينه صورة كفنه قبل المضي إلى الحرب، وأمهات منطوية على أوجاعها وآباء بخواطرٍ محطمة لا جدوى من ترميمها أو جبرها.

في هذا الجو المشحون بالأسى الذي طال البلاد شهوراً طويلة، جلسَ لؤي متجهماً يتآكله القلق، يتحدث إلى عزام الذي عاد مجدداً ليقضي كلّ أوقاته المسائية عنده، يناقشا بذهولٍ مجريات الأحداث، بينما أمّ لؤي العجوز لا تصمتُ دقيقةً واحدةً، تولولُ أسفاً على حجم الدمار الذي تراه على محطات التلفاز، تحاذيها ريمٌ منصتةً إلى الأحاديث بقلبٍ واجفٍ مغمورٍ بضباب التوجّس.

كانت بعض المحطات تبثُّ وقائع المعارك الطاحنة التي تدور رحاها بين جنود الجيش، وتلك الجماعات المسلّحة المتطرفة، وتنتقل بعد حينٍ لعرض الحوارات التي تبحث في واقع الحرب والتي يناقشها محللون سياسيون.

قال عزام بغضبٍ، وقد أشاحَ وجهه عن شاشة التلفاز:

_ ما أعظمَ فخر الشيطان، وهو يضلل أرواحَ البشر هكذا!

وفجأةً قطعتْ ريم حديثه وهي تُشير إلى شاشة التلفاز:

_ دعونا نستمع إلى ما ستقوله هذه الطفلة:

تصوّبتْ الأنظارُ جميعها على الشاشة حيث تقفُ طفلة في الثانية عشر من عمرها، وقد التفّ حولها جمهرةٌ من الناس، وهي تبكي بحرقة، وعندما سألها المذيع عن سبب بكائها قالتْ وقد أمسكتْ "المكريفون" وقرّبته من فمها وسط دموعٍ غزيرة، وبدأتْ تقولُ بصوتٍ صارخٍ:

_ علمونا في مناهجنا الطيبة والغفران واللّين، وأنّ السكاكين ليستْ مباحةً إلا لقطع الخضار، والفواكه، والنارُ ملاذنا الحنون نتقي بها زمهرير الشتاء، ونطهو بها طعامنا، وفوهات البنادق سياجُ لوطننا من شرّ عدوّنا صهيون

لكننا ما تعلمنا أنَ السكين لقطع الأوردة والشرايين ورقاب بعضنا البعض

وأنّ النار تُحرقُ فرحة الأطفال كما النيران من فم التنين، وتلتهم أرزاقنا وحوانيتنا وبيوتنا الآمنة

أمسينا لا نشمّ روائح الأعياد في أشجار السرو وعقود النرجس والياسمين

نحنُ أطفالٌ هَرِمُون، لم نعدْ نبدد عبوس الدهر بقهقهتنا

يا سيدي المذيع:

_ لم يعلمونا بأنّ فوهات البنادق كوابيسَ تقتحمنا في نومنا ويقظتنا

وأنها تسرقُ الإنسان من أخيه الإنسان، وتزرعُ أشواك الفراق والبين تباً لحربٍ أطاحتْ بربيعنا، بطفولتنا ممزقةً لحفَ المحبة والألفة....
وفجأةً رمتْ "المكريفون" من يدها، وقد تشردقتْ بدمعها، وأخذتْ تركضُ مخترقةً جمهرة الناس حولها.
رمقَ لؤي زوجته التي كانت ترتعشُ، وقد اصفرّتْ وشحب لونها، فهبّ واثباً نحوها، وأحاطها بكلتا يديه مقبلاً رأسها، ليقشع رعبها متمتماً بلطفٍ:
_ لا تخافي يا زهرة عمري ، سنبدّلُ آهاتنا بزغاريد النصر، وسيتبرعمُ من سنابل القمح أبطالاً أشدّاء، ويزهر دمّ كل شهيد، وسيرى العالم بأسره علم سورية الأبية مرفرفاً، مرفوعاً بالعزّ والنصر عما قريب.
قالتْ بشفاه مرتعشة، وهي تدسّ رأسها في صدر لؤي:
_ أليس من حقي أن أحزن، وقد هاجرتْ أفراحنا، وأُعدمتْ سنوات أماننا، وسُلبَ حقنا في العيش بسلام، لقد أثكلوا حتى صباحاتنا من روائح القهوة، ألم ترى الطفولة مذعورة؟ لقد أحزنتني هذه الطفلة التي ترثي طفولتها، وتنعي بأحرّ الكلمات الطمأنينة في قلبها، وقلب كل طفل في هذا البلد.
ربتَ لؤي على رأسها مطمئناً:
_ لا يا حبيبتي سيعود كل شيء كما كان، فلا حالٌ يدوم، وسترجع صباحاتنا الهانئة مكللة بأفراحنا، وضحكة أطفالنا وطمأنينتهم، ما دمنا

نؤمن بأنّ الحق لا بدّ منتصرٌ، وسيدحر جحافل الباطل، وما دامتْ إرادتنا صلبة، ويقيننا بالله كبيراً.

سكنتْ كلماته من روعها قليلاً، وهدّأتْ من ارتجاف أوصالها، فمنذ اندلاع الحرب غزتها الكآبة، وكتمتْ خوفها في جوفها، مما أدى بها إلى الإجهاض مرتين جرّاء حالتها النفسية المتردية ، استأذنتْ منهم، ودخلتْ غرفتها لترتاح قليلاً.

***

أما ما كان من أمر أحمد توفيق، فقد وقعَ بين براثن المرض والهزال، وقد تفاقمتْ أوجاعه النفسية بحيث أردته معتكفاً في سريره، معتصماً بصمته، يجد مشقة بالغةً بالردّ على أيّ تساؤل أو استفسار مما أقلق عزاماً قلقاً كبيراً، فأصبح يلازمه مع أخته، ويراقبان صمته، وكآبة عينيه بكثير من التوجس والخوف، لقد بدأ شرار الغضب يتأجج في أركان نفس عزام تجاه والدته لإهمالها الواضح له، وخروجها اليومي من المنزل، ضاربة بعرض الحائط حالة زوجها.

وصمم عزام أن يجابهها حال عودتها إلى البيت، وأخذ يدور حول نفسه منتظراً عودتها لأنها تأخرتْ أكثر مما ينبغي، فقاده ملل الانتظار للخروج إلى الشرفة المطلة على الشارع الرئيسي، وراح يفكر عميقاً بما يجب عليه قوله لها، وكيف سيستشف ذلك السرّ الخفي الذي قلبَ حياتهم رأساً على عقب، لكن سرعان ما ارتعدتْ فرائصه وقد لمحها تنزل من سيارة

أجرة بكامل أناقتها، فما الذي دفعها للذهاب بسيارة أجرة وهي تمتلك سيارة خاصة بها، وأخذ يسأل نفسه وقد اعتمره شكّ رهيب من وجود أمرٍ خطير يتوارى عنه.

وثبَ إلى الصالة بسرعة ليفتحَ لها الباب، وهو يكظمُ غيظه، جفلتْ علياء وهي ترى ابنها متسمّراً على عتبة الباب يحدقُ بها تحديقاً غريباً، فسألته بلهفةٍ:

_ ما بكَ يا عزام؟ لم تنظر إليّ هكذا؟

ظلّ بصره يمتحنها، وهو يحاول إخفاء شكوكه حول تصرفاتها، فبادرها قائلاً:

_ أريد معرفة سبب تقصيركِ المفاجئ مع أبي الملقى كجثةٍ هامدةٍ، ولماذا اختفى اهتمامكِ به؟

دفعته بيدها بازدراء لتفسحَ لنفسها مجالاً للدخول، وقطبتْ حاجبيها بانزعاجٍ غير مكترثة لسؤاله، فصاح متذمراً وهو يلحق بها:

_ لم أعدْ صغيراً لتعامليني بعدم اكتراث، أريد جواباً شافياً لما يحصل هنا في هذا البيت، وما معنى أن تركني سيارتكِ في المرآب وتذهبي في سيارة عمومية؟

تشنجتْ مكانها، وحاولتْ تمالك أعصابها، وإلا سيفتضح أمرها، فاستدارتْ صوبه بعيونٍ دامعة لتستدر عطفه، وهي تقول بانكسار:

_ سيارتي خالية من الوقود، وهذا ما اضطرني للذهاب بسيارةٍ عمومية، صمتت هنيهة، وتابعتْ بلهجة باكية:

_ أنا السبب في كل ما يحدث يا بني، ولا تظنّ أنني غير مهتمة بحال زوجي وحبيبي، فأنا أفتديه بروحي، لكنني مريضة، وأخضعُ للعلاج حالياً، فمنذ وفاة شيرين أحسستُ بتلفٍ في أعصابي، وكآبة تفترس حنايا جسدي، لذلكَ رأيتُ أن أزور طبيباً نفسياً علّه يخرجني من سراديب هذا الاكتئاب اللعين.

أخذ عزام يتأملُ وجهها، ويمتحنُ قسماتها، فلم يستشف منها صدقاً، لكنه أبدى تأثره لحالها، وقال لها:

_ سامحيني يا أمي، قد أكون جائراً في معاملتي معكِ.

بذلتْ علياء أشد ما يمكن بذله من اعتصار مقلتيها، لتُثبتَ صدقَ ما تفوهتْ به أمام ولدها، وهرولتْ إلى الغرفة مصدرةً أنّاتٍ خافتة، فتحتْ الباب فوجدتْ عفراء واقفةً بجانب سرير أبيها ترنو إليه بحزنٍ.

اقتربتْ علياء من الزوج المحطّم، وارتمتْ عليه تغمره بالقبلات، وتتمتمُ بكلمات الاعتذار:

_ سامحني يا حبيبي، لقد أهملتكَ طويلاً، ولكنني مرغمةً على ذلك.

وراحتْ تختلسُ النظر إلى عزام الذي وقفَ خلفها صامتاً، وتابعتْ سيل أكاذيبها:

_ لقد أخبرتُ عزاماً بما أصابني طيلة الفترة الماضية، فأنا مريضةٌ يا أحمد.

وما إنْ تفوهتْ بهذه الجملة حتى انتفض أحمد، وحاول الجلوس متكئاً على مرفقيه، وقد بدا متعباً، فسألها بصوتٍ مرتعشٍ:

_ أتكونين مريضة، وأنا آخر من يعلم بهذا؟

ما بكِ يا حبيبتي وممَ تشتكي؟

أخذتْ تجففُ ركني عينيها برؤوس أناملها من دموعٍ خالية من أيّ معنىً، وقالتْ:

_ لا تخف يا حبيبي لقد شارفتُ على الشفاء لأنني واظبتُ على الذهاب إلى طبيب نفسي ماهر، وزال خطرُ الاكتئاب الذي ألمَّ بي منذ أشهر.

جذبها أحمد إليه، وضمّها إليه كالظامئ المتعطش لقطرات من حبها، وأخذ يقول بحرقة:

_ كدتُ أموتُ قهراً يا حبيبتي، لقد رهنتُ عمري كله من مهدي إلى لحدي لأجلِ عينيكِ، كان من الصعب استئناف قلبي لنبضه بعد أن اصطدمتْ خفقاته بصخور صدّكِ ونفوركِ.

شهقتْ علياء وصاحتْ وهي تضع كفها على خدها:

_ نفورٌ!

وما لبثتْ أن تدانتْ منه، وتابعتْ:

_ وهل يطيبُ لي عيشٌ بدونكَ يا أحمد؟ هل من مخلوقٍ في الدنيا أغلى منكَ على قلب علياء؟ لا تقلْ هذا يا قرّة عيني، ومهجة روحي، فأنا بجانبكَ دائماً، وسأكون كما تحب أن أكون.

كانتْ عفراء تنصتُ لهما ودموعها تكاد تطفر من مقلتيها بعكس عزام الذي لم يقنعه ما تجود به أمّه من عواطفٍ بادٍ زيفها للعيان، فتركَ الغرفة، وخرجَ وهو متخبطٌ يحاول الإمساك بطرف خيطٍ يرشده لما خُفي عنه، ولم يشعر بنفسه إلا في مرآب منزلهم، لقد كان مخزن الوقود ممتلئاً في سيارةِ أمه، ولم يفاجئ بذلك لأنّ حدسه أكد له ذلك قبل أن يصل إلى المرآب، لقد زاد يقينه بأنها تُخفي أشياءً كثيرة على درجة كبيرة من الأهمية، لكنه لم يواجهها بكذبتها، وسيحتفظ بالكتمان لأمرٍ بدأ يعتملُ في داخله.

مضى أسبوعٌ على هذه الحادثة، وخلال هذا الأسبوع لم تخرج علياء من منزلها أبداً، كانت تقضي أغلب أوقاتها بجانب زوجها، وتبالغ كثيراً في الاهتمام به خصوصاً بحضور عزام الذي أصبحتْ نظراته تبعث الريبة في نفسها، وبدوره عزام خفف من زيارته لبيت لؤي، وقد أكل القلقُ أفكاره، وأكثر ما خشيه هو أن يُلاحظ أحدٌ همّه الذي داهمه بتكاثر الظنون والشكوك حول والدته.

-2-

وفي صباح يوم الثلاثاء من شهر حزيران 2012م، كان لؤي قد أوصلَ ريماً إلى كلية الآداب بسيارته لأنه لم يعدْ يسمح بخروجها وحدها في تلك الأجواء الموتورة.

أوصاها أن تنتظره حالما تنتهي من تقديم امتحانها حتى يعيدها إلى المنزل.

لم يشأ لؤي حرمانها من الذهاب إلى الجامعة، لأنه صار يخشى عليها من وحدتها التي تُضاعف خوفها، فرأى أن تلتقي بصديقاتها، وتطردُ شبح الرعب عنها، ومن ناحية أخرى كان لا يريد أن يقف أمام رغبتها في إكمال دراستها حسب قولها لتسعدَ والديها.

أنهى لؤي بعض الأعمال المترتبة عليه في المعرض، وأخبرَ عادل بأنّ عليه الذهاب إلى الجامعة ليعيد ريماً إلى المنزل، لكنه عندما وصلَ إلى هناكَ لم يجدها تنتظره كما اتفقا، استلّ هاتفه المحمول ليتصلَ بها، لكن خطها كان مقفلاً، فعزا ذلك إلى أنها لا تزال في قاعة الامتحانات، وطال وقوفه أمام باب الجامعة وهو يراقب الطلبة الغادين والرائحين علّه يجدها بينهم، لكن لا أثر لها، فشرعتْ عيناه تتقد وجلاً، وقلبه يصعّدُ من ضرباته، وتوجّسَ شراً، فخرجَ من سيارته، وقد تطيّر من تأخيرها.

وبعد بحث مضنٍ دام لأكثر من ساعةٍ، وسؤال الطلبة في قسمها عنها استولى عليه الرعبُ الذي جعلَ فرائصه ترتعد بشدة، وبدأ يستقصي عنها

من كل من يعرفونها ومن لا يعرفونها، وعندما كانوا يقابلونه بالنفي يطير صوابه أكثر فأكثر، فيتمتم كالمجنون:" ربما عادتْ وحدها إلى البيت، قد تكون خرجتْ باكراً من امتحانها ولم تحتمل انتظاري".

اتصل بولده وليم فأخبره بأنها لم تعد بعد، أقفل الخط بتوتر، واتصل بماريا علها تكون عندها، وعندما أعلنتْ أنها لم ترها وقف متسمراً، وقد اشتعلَ رأسه بلهيبٍ أحرقَ كل تفكير إيجابي حول اختفائها، ركب سيارته واتجه إلى المعرض، وفي الطريق إلى هناك كان يعاود الاتصال برقمها كل دقيقة فيجد خطها مقفولاً، وما يلبث وجهه أن يحتقنَ، ويعصف به الخوف مبدداً رؤيته.

وصلَ إلى المعرض وتدافع من سيارته يتراكض إلى الداخل باتجاه مكتب عادل الذي وقف فجأة وقد انفتحَ الباب بقوة.

قال لؤي، وعيناه تقدحان شرراً:

_ لقد اختفتْ ريم يا عمي، لربما أُختطفتْ.

شهقَ عادل كمن اقتنصتْ روحه في لحظة، وصاح مزمجراً:

_ ماذا تقول؟ أُختطفتْ ابنتي؟

واستل هاتفه لكن لؤياً جمّده مكانه بصرخة يأسٍ:

_ خطها مقفول، ولم أجدها في أيّ مكان.

أحسّ عادل بزحف الموت بطيئاً يسري في أجزائه، وخرج يركض يتبعه لؤي، واستقلا سيارة لؤي غير آبهين لرنين ماريا على كلا الهاتفين، فما

إنْ يصمتُ رنين هاتف لؤي حتى يجلجلُ هاتف عادل، واتجها مجدداً إلى كلية الآداب ليبحثا عنها، لكن محاولاتهما باءت بالفشل، ولم يتوصلا إلى أيّة معلومةٍ تفيدهما، حتى الذين كانوا برفقتها أكدوا أنهم شاهدوها آخر مرة تقف على موقف الجامعة بجانب إحدى النساء المنقبات.

كان عادل أثناء التحريات لا تجفّ دموعه لحظة، بينما ماريا لا تنفك تتصل به وهو حائر لا يعرف ما سيقوله لها، لكنه أجبرَ نفسه، وردّ عليها مغالباً صراخ أعماقه، قالتْ له بذعرٍ:

_ عادل أين ابنتنا ريم؟

ردّ بصوتٍ مرتجفٍ:

_ لا تخافي يا ماريا، فلن يعيش عادل لحظةً قبل أن يجد ابنته، ثقي بي يا حبيبتي.

وأغلقَ الخطّ يبتلعُ قهره ويغصّ بدموعه، ورمق لؤياً الذي كان يقود السيارة بسرعة جنونية متجهاً إلى مركز الشرطة لتقديم بلاغٍ باختفاء ريم عبد الحق.

أسبوعٌ مضى على اختفائها، وما زال اختفاء ريم المريب يثير القلق ويقض مضاجع والديها وزوجها، وبدأ الحزن ينسجُ على وجوههم أوشحةً سوداء، وطفحتْ عيونهم بالمدامع الحارة، وكأنّ زلزالاً عنيفاً زلزلَ الأرض تحتهم فتصدعتْ، وأمطرتْ السماء فوقهم فواجعَ دهورٍ سلبتْ ذخائر

نفوسهم، وأقامتْ حدوداً بينهم، وبين هناء العيش وصفوه، يتخبطون مشتتين وكأنهم في كابوسٍ مرعبٍ يحيط ساعاتهم وأيامهم.

كان الجميع مجتمعين في منزل لؤي، ماريا في سرير ريم تُنازعُ البقاء، وكلّ حينٍ تستسلم لغيبوبةٍ بهذيانٍ غير منقطعٍ، يلازمها عادل وقد أتلفه وأهرمه الحزن، وعفراء ابنة أحمد توفيق تعتني بها، وفي الصالون يتهالكُ لؤي على كرسيه، يرشحُ قلبه بؤساً لم يذقه في عمره، ينامُ على كرسيه دون أن يخلعَ ملابسه، ولا حذاءه غير مكترث بالأضواء والضجيج حوله، وعندما يفيق تلازمه سحنة اليأس والقنوط، يدخّنُ بصمتٍ ويلقي أعقاب سجائره كيفما اتفقَ، بينما أمه العجوز تئنّ بصوتٍ خافتٍ، فيأتي أنينها مرتجفاً، متحسرةً على كنتها التي اختطفتها يد الغدر، حتى وليم لا ينقطعُ بكاؤه.

وكانت نهال صديقة ريم تلازمهم طوال الوقت في تلك المحنة، تراقب العائلة المفجوعة بأسىً كبير، وتكفّلتْ بإعداد الطعام ورعاية العجوز وماريا إلى جانب عفراء، وعزام لا يفارقهم أبداً.

كان الحزن مسيطراً لا سبيل للفكاك من أصفاده الثقيلة، والذي يزيده تفاقماً تصريحات الشرطة كل يوم عن عدم وجود أثرٍ أو دليل يقود إلى مكان ريم، والتحريات لا زالتْ قائمة.

وخرجَ في صباح الأسبوع الثاني عادلٌ بهيئةٍ مخيفةٍ، وقد جحظتْ عيناه، واحمرّ وجهه، وقال لنهال التي كانت تنظف الطاولة من آثار الطعام:

_ أرجو منكِ الاعتناء بوالدة صديقتكِ يا ابنتي ريثما أعود.

رمقه لؤي بعينه المتورمتين وسأله بانكسار:

_ إلى أين يا عمي؟

لم يلتفتْ عادل بل ظلّ نظره مثبتاً إلى الأمام، وعيناه تشعان صرامةً وشرّاً تجعلانه يبدو وكأنه على أهبّة الهجوم، وعفراء خلفه تقول بصوتٍ أنثوي ناعم:

_ لن نبرحَ أنا وأخي من هنا حتى تعود ريم، وسأعتني جيداً بالخالة ماريا يا عمي.

نهضَ عزام واتجه إليه، وضع يده على كتفه، لكنّ عادلاً بدا كتمثالٍ حجريّ لا يشعر بشيء، فبادره عزام:

_ لم يبقَ مكانٌ إلا وبحثنا فيه يا عم عادل، ابقَ هنا فلنْ يجدي بحثُكَ نفعاً.

زأرَ عادلٌ وكأنه يقاوم حتفه:

_ لا لن أعود إلى هنا إلا وأنا ممسكٌ بيد ابنتي، وأقسمُ بحياتها أنني لن أعيش وأذوق طعم حياةٍ تخلو من وجودها.

وابتدر الباب ليخرجَ ويصفعه بقوة وراءه.

وعاد عادل عبد الحق إلى التسكع مجدداً، لكنه تسكعٌ من نوعٍ آخر، يختلفُ عن تسكعه فيما مضى، فقد عايشه قبلاً مستجدياً الحبّ ولا يتذوقه، شاحذاً له ولم يلقَ منه ولو نزراً ضئيلاً، مفتقراً لكل شيء لا

يمتلك إلا أسمالاً بالية، والآن كتبَ عليه القدر التسكع وهو ممتلئ بالحب وقد جاد عليه دهره بكل أنواع الترف والنعيم.

طفقَ يسلكُ الدروب ويعود من حيث أتى، وقد وطأَ كلّ الطرقات والأزقّة، باحثاً عن ابنته، حتى إنْ استولى عليه التعب الشديد قصدَ إحدى الحدائق العامة، ورمى بجسده الضخم على أحد المقاعد الخشبية، خائر القوى، معاوداً في الصباح ما بدأه بكل إصرار وعزم.

فلتحيا الرجولة على أعتاب صدركَ أيّها الرجل الذي بلغَ منه الوفاء لامرأةٍ أحبها مبلغاً لا تدركه العقول، فكيف له بالتقاعس والخنوع وقد خطفوا ابنته التي رباها ورعاها منذ كانت في المهد، وأحبها حبّاً لم يحبه لأحد إلا لحبيبته ماريا.

***

في مساء ذلك اليوم جاءتْ علياء في أجملِ حلّة، وأبهى هندامٍ لزيارتهم برفقة أحمد الذي بدا مرتبكاً للغاية.

بدتْ هادئة ولم تتأثر بجو الحزن الطاغي، فقد جلستْ ونظرات الاستخفاف بين جفنيها، وخُيّلَ للؤي أنها تبتسمُ له وتغمزه غمزاً وقحاً، وتراءى له بين قسماتها تعبيراً لا يبشر بالخير، لكنه نسفَ ما أوحى به خياله وأشاحَ عنها.

لقد بدتْ مغتاظةً من تكاتف ولديها عزام وعفراء مع عائلة لؤي، وبعد صمتٍ طويل نفثتْ سمّها المخزون في جوف فمها، فكانت كلماتها كوقعِ انفجار مباغتٍ بعد صمتٍ ثقيل حين قالتْ:

_ أعتقدُ يا ابن عمي أنّ تلك الجماعات الإرهابية قد زهقتْ روحها منذ أول يوم لاختطافها، ويجب عليكم التسليم بذلك.

سرى في بدن عزام ما يشبه الماء المثلج، ورمقها بغضبٍ بعد أن هبَّ واقفاً، بينما أحمد ضغط على يدها لتصمتَ عن قول مثل هذا الكلام أمامهم، لكنها رفعتْ حاجبها بعدم اهتمام، وتابعتْ موجهة حديثها لابنها المنفعل:

_ وعلامَ غضبكَ أنت؟ ألمْ تفقد زوجتكَ وهي في ريعان شبابها؟ مَنْ منّا يستطيع مجابهة الأقدار؟ وهل أخذَ امرؤٌ من الدهر ميثاقاً قبلاً بالعيش كما يحبّ ويشتهي لنقفَ الآن مندهشين، وقد حنث الدهر بعهوده، ومزّقَ مواثيقه؟.

قالتْ لها والدة لؤي، وقد أزعجها ما صرّحتْ به:

_ هل جئتِ لتخففي وطأةَ المصيبة عن ابن عمك، أم لتزيدي من لوعته وقهره يا علياء؟

أيّدتْ عفراء قول العجوز بقولها:

_ جدتي معها حق يا أمي، ليس بوسعكِ الجزم بأن ريم قد ماتت إنها قد تكون.....

وصمتت وقد غصّتْ بدموعها عندما لمحتْ انسياب الدمع من عيون لؤي الجامدة التي لا يرفّ لها جفن حتى لا يغيب لوهلة طيف ريم بوجهها الطفولي الذي بات يحول بين جفونه واغتماضها، وصارتْ أفكاره تعود أدراجها إلى الوراء، وقد مضى بذاكرته إلى ذلك اليوم الذي سبقَ زوجاه عندما اقتحمتْ علياء غرفته ووعدته بأنها ستذيقه وجعاً يرتجي منه الموت كل لحظة، لقد تبدّتْ صورة وجهها المحتقن حقداً رغماً عنه، لكنه نفضَ من رأسه ذكرى ذلك اليوم، ورفضَ رفضاً قاطعاً أن يشكّ بأنها قد تكون نفذتْ وعيدها، فهي امرأة وهذا العمل الشائن فوق مقدرتها، ومقدرة عشر نساء مثلها.

كان وجودها مقيتاً وثقيلاً عليه، وخصوصاً وهو في حالة يُرثى لها، حالةٌ يتأرجح فيها بين الحياة والموت.

بعد ساعة كأنها دهر لا ينتهي نهضتْ لتغادر مع زوجها، وهي ترمق عفراء التي فهمتْ ما ترمي إليه بنظراتها فقالتْ لها ابنتها:

_ سأبقى مع أخي هنا ريثما تتعافى السيدة ماريا.

فوجئ أحمد من كلام ابنته فقال لعزام:

_ هل ستبقى أنت هنا طويلاً؟

ردّ عزام بلهجة جافة:

_ نعم يا أبي لن أتركَ لؤياً في هذه الحالة حتى تعود زوجته، وأرجو منك أن تلتزمَ بالشركة مدة غيابي.

هزّ أحمد رأسه بالإيجاب، وتقدّم بضع خطوات ليداني لؤياً الذي نهضَ بتثاقل ليودعه فقال له أحمد بأسىً:

_ تحلّى بالصبر يا عزيزي ولا تقنط قنوطاً يودي بحياتكَ، إنّ فرجَ الله قريب.

همس لؤي بكلمات متقطعة، وهو ينقل طرفه بين أحمد وعلياء:

_ لقد ذقتُ يا صديقي وجعاً أتمنى الموت كل لحظة من فرط ألمي.

أطرقتْ علياء أرضاً لتُخفي نشوة انتصارها التي تشعُّ من لحاظها، واستدارتْ دون أن تنبس بحرف.

لحقها أحمد وهو يرتعد لأنه توارد إلى مسمعه من الغرفة صوت هذيان ماريا التي تنادي ابنتها بحرقةٍ تُذيب أصلاد الصخر.

مرّتْ أعوام كثيرة لم يسمع صوتها، وما أشبه صوتها الآن بصوتها يوم وقفتْ محطمة أمامه تتضرع لحظة رحيله كي لا يتركها.

أمسكَ بياقة قميصه يشدّه مستجدياً هواءً يبدّد اختناقه، وسارع في خطواته هارباً من صدى أنينها الذي مزّق وجدانه تمزيقاً، وأرغم دلو مآقيه أن يطفح.

بعد ذهابهما أسندتْ عفراء جدتها العجوز، وأدخلتها إلى فراشها لترتاح، من ثم عرّجتْ إلى غرفة ماريا لتجلس إلى جانبها وقد انتصفَ الليل.

ساد الصمت بين لؤي وعزام لدقائق لكن الأخير قطعه بالقول:

_ ربما يتصل الخاطفون طلباً للمال يا لؤي، فقد شاعَ مؤخراً انتشار حوادث الاختطاف وهدفها الحصول على المال.

قال لؤي وأمله بذلك يكاد يتلاشى:

_ هذا أملُ غريقٍ في عمق محيطٍ بقشة عائمة، فلو كان ما تقوله صحيحاً لما انتظروا كل هذا الوقت.

_ لا تيأس هكذا يا لؤي، فهم سيحتاطون كي لا يكتشف أحدٌ مكانهم، وأنا متفائل بأنهم سيطلبون فديةً لقاء تحريرها.

صرخَ لؤي ألما وهو يغمض عينيه:

_ آهٍ يا لؤي لو كان الأمر كذلك، فسأدفعُ لهم كل ما أملكُ مقابل شعرة من ضفائرها.

تأوه عزام وقال:

_ وأنا مستعدٌ لأفديها بكل ثروتي، المهم أن تعود.

وأخذ لؤي ينشجُ نشيجاً مريراً، وينتحب بقلبٍ محروقٍ قائلاً وسط دموعه:

_ ريمٌ يا منية النفس تعالي وانظري ما فعل غيابكِ بي، تعالي يا زهرة عمري انفخي بهذا الجسد السقيم بعضاً من حياةٍ، بعضاً من شعورٍ.. آهٍ يا زهرة عمري.

ومدّ يده يجذبُ عزاماً محتضناً له وتابع:

_ آهٍ يا أخي وولدي ورفيقي لو تعلم كم أكتوي، فيما مضى كنتَ تقول لي بأنني رجلٌ لا يعير للأشياء بالاً، ولا أُعظّم أيّ أمر مهما كان فادحاً،

حتى أنك خلتني لا أشعر بالألم، وكنتَ صائباً لأنني ما كنتُ يوماً قد أحببتُ ذلك الحب الذي كنتَ تقصده، فالحب بقدر ما هو نعمة وارتقاء إلى الجنة، فهو أيضاً نقمةٌ، الحب هو حالة تقمّص فرحٍ لا يلبث أن يجردنا بعد أن يتملّكنا من كل شعور فرح. لا أحد يعرف ريماً كما أعرفها، ولا عين تراها كما أراها، إنها طفلتي التي أخاف عليها من مرور النسيم، فما عساني أفعل وهي الآن عرضة للخطر في أيادٍ لا يحكمها إلا الظلم والطغيان، أتراهم استباحوا عفافها وطُهرها، ومزّقوا طفولتها بسيوف بغيهم؟؟.

كان عزام يحتضنه ويبكي هو الآخر لأنه عاش نفس الحالة، وذاق من العذاب ما ذاقه لؤي، ذاق الموت مراراً، لا بل أصعب من الموت ذلك الحب المتلبّس عباءة الوجع والذي يقبعُ أبداً تحت نخيل الغياب.

انفلتَ عزام من بين ذراعي لؤي، وأخذ يمسح دموعه الغزيرة قائلاً بصوتٍ كدّره الحزن:

_ إنّي أتمزقُ حزناً عليكَ، ولكأنّ مصيبتكَ هي مصيبتي، لكن هناك فرق بيننا، فأنت لازلتَ تمتلكُ أملاً بعودتها، يدفعكَ أن تعيش لأجله، أما أنا فقد حشرتُ آمالي في ثنايا كفنها، وكم بكتْ مقلتاي غيابها دقائقَ وهي حيّة ترزق، فما حالي اليوم وهي بالأجداث قد رقدتْ؟.

بدأ لؤي يلحّ بالشراب على نفسه، ويكرعُ كؤوس الخمر كرعاً يتلف خلاياه إتلافاً وتمزيقاً، وظنّه بأنه ينعشها ليغدو الحزن خفيفاً في وطأته قليلاً.

قضى المنكوبان بالليل كله بكاءً ونحيباً على أحبّةٍ فارقوا أيامهم، ففي الليل تتجلّى آلامنا، وتنطق مواجعنا، ويُرفع الستار عن جراحنا لتتفجّر ينابيع مآقينا الخامدة الملتهبة.

-3-

لمْ يَعُدْ عادل إلى البيت كما وعدهم، وماريا لم تزلْ طريحة الفراش، ما إنْ تستيقظ حتى تحيطها المخاوف والتخيلات المريعة حول مصير وحيدتها المجهول، فتارةً تتخيلها مقيّدةً بسلاسل حديدية تُدمي أطرافها، جائعة، مريضة، واهنةٌ في غرفةٍ مظلمةٍ، وتارة أخرى تتخيل مجموعة من البغاة يمزقون ثيابها ويغتصبونها بلا رحمة، وما إنْ يتراءى لها ذلك حتى تزعق كالمجنونة، وتلطم وجهها بقوة محاولةً تمزيق لحم صدرها بأظفارها، وتظلّ على هذه الحالة حتى تهرعُ نهال وتحقنها حقنة مهدئة تُدخلها في سباتٍ عميقٍ يُغيّبها عن الواقع المحتشد بالتخيلات المرعبة.

ومضى الأسبوع الثاني على اختفاء ريم، واستبدّ بهم اليأس من قبس أمل صغير بإيجادها.

كان الوقت مساءً، استأذنتْ نهال للذهاب إلى بيتها، فأشار لؤي إلى عزام ليوصلها، فنهض عزام وقال للؤي:

_ سأوصل نهال إلى بيتها، و سأذهب إلى منزلنا، إنْ احتجتَ لشيء اتصلْ بي، ستجدني عندكَ حالاً، فأنا مرهق جداً وبحاجة للراحة.

وخرج برفقة نهال، بينما جلس لؤي على الأريكة شاخصَ البصر قبالة والدته التي ترنو إليه بكآبة صامتة، أحسّ بدوار عنيف، فأحاط رأسه بكلتا يديه يعتصرُه الألم، فهرعتْ والدته إليه، وجلستْ بجانبه وقد اجتذبته

إلى حضنها علّها تخفف من قهره قليلاً، فنهضتْ عفراء لتحضر لهما شايا ساخناً، لكن صراخ ماريا جعل الجميع يتجمدون، فهرع وليم إليها، وما لبث أن عاد ليقول لوالده:

_ الخالة ماريا متعبة جداً إنها تلطم وجهها.

استقام لؤي، وحاول النهوض إنما وجد مشقة في ذلك بسبب وهنه، ودخل إلى الغرفة ليستطلع حال ماريا.

وقف بجانب السرير، وأمسكَ يدها التي استحالتْ لقطعة جليد، كانت ماريا متشنجة وجاحظة العينين، وقد حامَ طيف ابنتها أمام ناظريها، وما لبث أن تلاشى فارتخت شيئاً فشيئاً، وأغمضتْ عينيها إغماضة كاملة وفي حلقها تسري مرارة لا تزول، لكنها ما لبثتْ أن فتحتْ عينيها مجدداً لتسأله:

_ أين عادل؟

تنهدَ لؤي مكابراً على نفسه، وأجاب دونما تردد:

_ ذهبَ ليبحث عن ريم، وهو واثق كل الثقة بأنه سيجدها.

ارتسمَ شبح ابتسامة على قسماتها وهمستْ:

_ أنا أثق به ثقة لا ريب فيها، وأعلمُ أنه لن يخذلني أبداً.

أعادتْ إغماض جفنيها، وشبح الابتسامة لا يزال كأنه نفحةَ طمأنينة لفحتْ قلبها الملطخ بالبؤس والتعاسة، وطفقتْ تردد بصوت خفيض:

_ ما خذلني يوماً، ولن يخذلني.

طأطأ لؤي رأسه، وعاد بخطوات بطيئة إلى الصالون يحاول اقتناص قبس من الطمأنينة التي أحسها في نفس ماريا، وتهدئة روعه بذيل أملٍ صغير، لكنه فشل بمحاولاته.

بدا متعباً حد الانهيار، وقد أتلفه توقّع السوء، وأنهكتْ مخيلته الأفكار الداكنة التي تموج وتوغل في ضياعه وتشتته، كان مضطجعاً على الأريكة ساهماً ينظر إلى والدته الكئيبة دون وعي، وفجأةً رنّ هاتفه، فخفق قلبه بشدة خفقةً كادتْ تنتزعُ أضلاعه ظناً أنهم خاطفو ريم، لقد كان رقماً مجهولاً، ردّ على الاتصال بلهفةٍ ليُصدمَ بصوت علياء، واكتسى وجهه الاشمئزاز، والامتعاض عندما سألته بصوتها المغناج:

_ كيف حالك يا ابن عمي؟

ردّ باقتضاب، وكأنه صُفعَ على وجهه:

_ الحمد لله أنا بخير، لم أمتْ بعد.

قهقهتْ بفجور لا مثيل له معقبةً:

_ لا تظنّ بأني متأثرة على حالتكَ، أو حزينةٌ على أميرتكَ الضائعة، ربما بهذا انطفأتْ جذوة نيرانٍ أحرقتني لسنين طويلة، و سأكون سعيدة وأنا أراكَ خانعاً ذليلاً أمام حذائي، فلا أحد بمقدوره أن يتجرأ على علياء الحسيني، وسأدمّر كل من يحاول ذلك حتى ولو كنتَ أنت الشخص الذي أعبده.

كان نظر لؤي مركّزاً على عفراء التي كانت تراقبه، فلم يستطع الردّ على تلك الأفعى في حينها رغم رغبته الجامحة بتحطيم جمجمتها وخنقها حتى الموت، فاكتفى بقفل الخط في وجهها، عاجزاً عن إطلاق صرخةٍ مدوّية ترتجّ لها أركان الدنيا بأسرها.

لقد أدركَ الآن بدون أدنى شكّ أنها وراء اختفاء ريم، ولم يعدْ هناك احتمال ولو ضئيل بعكس ذلك.

أحسّ بدمائه تغلي في مراجل جسده، فانتفض كالمسعور وجأر بصوتٍ مخيف وسط ذهول أمه وعفراء:

_ عليكِ اللعنة، سأقتلكِ بيدي أيتها الخائنة.

التقطَ مفتاح سيارته عن الطاولة بخفة، واتجه صوب الباب ليخرجَ، وقد صمَّ أذنيه عن نداء أمه وعفراء، وعن بكاء ولده الذي أصابه ذعرٌ شديدٌ.

كان يقود سيارته بسرعة جنونية غير آبه لنتائجها الفاجعة التي قد تودي بحياته نهائياً، ولا حتى لإشارات عناصر شرطة المرور الذين كانوا يشيرون إليه ليتوقف وهو يجتاز السيارات والحواجز بهستيرية.

وصل إلى بيت أحمد، فالتقى بعزام أمام البيت كان لتوه قد وصل وإلى جانبه والده يهمّان بدخول المنزل، لكنهما تسمرا في مكانهما، وهما يجدان لؤياً أمامهما والشرر يتطاير من عينيه عاصفاً كزوبعةٍ تريد تدمير كل ما تصادفه في طريقها، ركض لؤي متجاهلاً ذهولهما ودهشتهما، واجتازهما

متجهاً إلى باب المنزل يطرقه بكلتا يديه ويصرخُ مزمجراً كنمرٍ جريحٍ نازف الأعضاء:

_ افتحي أيتها الفاجرة، سأقتلكِ.

لحقَ به أحمد وعزام وقد صدمهما منظره، فصاح أحمد به:

_ ماذا يحدث يا لؤي أخبرني؟

ومن تقصد بالشتيمة؟

قدحه بنظرات نارية، وقال له بلهجة آمرة، وقد احمّرتْ عيناه، فغدتْ كبركتين طافحتين بدمٍ قانىء:

_ افتحْ لي الباب هيّا.

أمسكه عزام من كتفيه وقلبه يختلجُ رعباً، فجأر به لؤي يهدّد مشيراً بأصبعه:

_ افتحا لي هذا الباب وإلا سأحطمه.

فتح أحمد الباب بيدٍ مرتعشة، فدفع لؤي جسده حالما انفرج الباب ودخلَ صارخاً ملء حنجرته:

_ أينَ أنتِ يا علياء؟ هيّا جابهيني الآن، فأنا أمامكِ ، حاربيني وجهاً لوجهٍ، وكفاكِ قتلاً لي في الخفاء.

هبطتْ علياء السلالم مذعورة، وقد هلعتْ من منظره، وجمدَ الدم في عروقها من نظراته الشزراء التي غزرتْ كالسهام في كل مسامة من مساماتها، فهجمَ عليها صاعداً بخطوتين ما بقي من السلالم، وأمسكَ

بيدها يجرها خلفه إلى الأسفل وهي تترنحُ، فاندفع عزام إليه ليبعده عنها، وانقضّ أحمد عليه فلطمه لطمةً على وجهه، انبثق على أثرها الدم من فتحتي أنفه، فابتعدَ مرغماً عن علياء، لكنه زعق في وجه أحمد بصوتٍ أجشّ تردد صداه في أركان المنزل:

_ اسألْ زوجتكَ الفاضلة أين أخفتْ ريم؟

إنها المسؤولة الوحيدة عن اختطافها.

تلعثم أحمد وتشوهتْ ملامحه من الذعر، وقد راعه ما نطق به لؤي، فقال بصوتٍ متهدجٍ مرتجفٍ:

_ هل جننتَ لتتهمَ علياء بتلك الفعلة المشينة؟

أتراكَ فقدتَ عقلكَ وصوابكَ؟

كيف لكَ أن تظنّ بابنة عمكَ ظن السوء؟

وأنشأ عزامٌ يردد النظر بين أمه ولؤي، فقد كان إزاء ما يقوله لؤي بين مصدقٍ ومكذبٍ، واستحالتْ الأرض تحته كمبخرةٍ يتلظى فيها البخور محترقاً بجمرٍ متوهّج، فرمق أمه التي تذرفُ دموعاً غزيرة لم يعدْ أصلاً يُصدّقها.

قالتْ علياء موجهة كلامها لزوجها:

_ أرأيتَ بأمّ عينكَ هذا الوقح الذي يُلصقُ بي تهمةً دنيئةً كهذه؟

واستدارتْ شطر عزام قائلة:

_ أرأيتَ أنتَ أيضاً يا ولدي ذلك النذل الذي تحبه وتعتبره أخاً لك كيف يتكلم مع والدتكَ؟

زفر لؤي زفرةً خرجتْ كالزئير من أعماقه، وصاح بها صيحةً أجفلتها:

_ لا يناسبكِ دور البراءة أبداً، وسأفضح الآن أمام زوجكِ وولدكِ كل ما كنتِ طيلة أعوام كثيرة تلهثين وراءه وتخططين له، سأقول لهم كل شيء، ولن أرحمكِ إنْ لم تعترفي بفعلتكِ وتطلعيني عن مكان ريم، فلا تتظاهري بأنكِ ملاك بينما أنت شيطانٌ.

فغر أحمد فاهُ، وتقوس حاجباه، ليسأل لؤياً متقطع الأنفاس:

_ تفضح كل شيء!

قل ما الذي تريد فضحه بخصوص علياء.

صرختْ علياء صرخةً مدوية، وهجمتْ على لؤي كذئبةٍ مفترسة، تحاول غرز أظفارها بوجهه لتمنعه من الإفصاح بشيء يدينها:

_ اخرسْ أيها المعتوه، وإلا قتلتكَ.

لكن عزاماً استطاع إمساكَ يديها الممدودتين باتجاه وجه لؤي وصرخ بها بغضب:

_ دعيه يتكلم، واخمدي غضبكِ قليلاً.

لكن قبل أن يتفوه لؤي – الذي كان لا يزال أنفه نازفاً– انقضّ عليه أحمد متأثراً بهياج زوجته الثائرة الحانقة كوحشٍ كاسرٍ يريد اقتناص روحه من بين جنبيه، وأخذ يصفعه دون وعي، ويكل له الشتائم وسط حرائقٍ تنشب

في أرجاء كيانه، فحال بينهما عزام الذي تلقى بعضاً من صفعات والده الهائج كثورٍ جريح، ونجح بعد جهدٍ في إبعاد والده عن لؤي الذي لم يأتي بأي حركة دفاعية تصد هجوم أحمد عنه، ولكأنّه لا يشعر بأي ألم، فقد كان دمه يتوهج حقداً وانتقاماً من تلك الأفعى.

صرخَ أحمد وهو يحاول الانفلات من بين يدي عزام، وهو يلهثُ بإعياء:

_ لقد كانت علياء محقة كل الحق بوصفكَ بأنكَ نذلٌ ووضيعٌ، وأنا كنتُ كالأحمق أغالطها الرأي وأعارضها بشدة، لقد تأكدتُ الآن بأنك تستحق كل هذا النفور والبغض منها وأكثر من ذلك.

وهنا انفجرَ لؤي ضاحكاً بسخرية ممزوجة بحنق ليعلنَ له:

_ تبغضني وتنفرُ مني؟ منذ متى؟ إنّ كل ما فعلته منذ نعومة أظفارها وما اجترمته في حياتها بسبب هوسها المجنون والمدمر لي.

حملقَ عزام مستنكراً ما أدلى به لؤي، وصاحَ معترضاً:

_ قفْ عند هذا الحد يا لؤي، إنكَ تلطخُ شرفنا، ولن أسمحَ لكَ بذلكَ مهما بلغتْ معزّتكَ عندي، فقد وصلتْ بك الحماقة إلى حدٍّ لا يُطاق.

خفف لؤي من حدّة لهجته وهو يرمقُ عزاماً الذي يذوبُ قلبه حبّاً له وقال:

_ سأغادر من هنا، وستظهرُ لكم الأيام ما خُفي في طياتها من حقائق يشيب شعر الرضيع لها وتقشعر لها الأبدان، وأقسمُ بالله الواحد الأحد إنْ

لم تظهرْ ريم، فسأدمرُ كل بنيانكم، وأُحطمُ أفراحكم، وأمزّق لذاتكم، ولن تجدوا مهرباً من شروري وأحقادي.

كان يهدد ويتوعد بينما عيناه مثبتتان على علياء التي ترتجفُ من رأسها حتى أخمص قدميها، واستأنفَ متابعاً بلهجة أسىً:

_ سأُقدمُ بلاغاً للشرطة ضدكِ، وأُثبتُ للجميع أنكِ أنتِ وراء اختطاف ريم.

صاح عزام متذمراً:

_ وما دليلكَ على هذا الهراء؟

ابتسمَ بسخرية مجيباً على تساؤل عزام:

_ قد لا أملكُ دليلاً مادياً ملموساً، ولكن الذي جعلني متأكداً هو تهديد والدتكَ المصون لي قبل زواجي بأيام عندما اقتحمتْ غرفة نومي على مرأى من والدتي وابني ضاربة عرض الحائط بكل الأخلاقيات، وكانت تستشيط غضباً وشرّاً وحقداً لأنني سأتزوج، ووعيدها بأنها ستجعلني أتذوّق وجعاً أتمنى الموت منه في كل لحظة، واتصالها بي قبل مجيئي إلى هنا وهي تنثر على مسامعي كلمات الشماتة.

أخذ نفساً عميقاً، وخطا بضع خطوات، لكنه استدار إليهم ليقول:

_ لطالما داريتُ منذ زمنٍ طويلٍ على ملاحقاتها الكريهة لي، وسترتُ جنونها علّها تهتدي إلى الصواب لأنها أولاً وأخيراً ابنة عمي، من دمي ولحمي، وحتى بعد زواجها ابتلعتُ الكثير من الأحزان وكل هذا بسبب

حبي العميق لكَ يا أحمد ولولدكَ عزام، أما سألتَ نفسكَ يا أحمد لم تغيرتْ زوجتكَ مذ وطأتُ هذه البلاد؟

على كل حال أنا أعتذر منكَ ومن ولدكَ، فأنا أُقدر وقع الصدمة القاسية عليكما، لكن لن أقفْ مكتوف الأيدي وأنا موقنٌ بأنّ هذه المجرمة هي التي اختطفتْ زوجتي البريئة التي لا ذنب لها.

وتابع خطواته خارجاً من منزلهم تتساقطُ نفسه وابلاً غير منقطعٍ من الحسرات، إلى أن وصل إلى منزله.

سادَ صمتٌ عميقٌ بعد رحيل لؤي في منزل أحمد توفيق، كان صمتاً أشبه ما يكون بسكونٍ مخيفٍ يخيّمُ في ليل مقبرةٍ تحوم في أجوائها الأشباح مترنحةً مترنمةً بألحان الموت.

فعزامٌ لا يريد تصديق كلام لؤي، لكنه هو نفسه ساورته الشكوك، وافترسه فكّ الظنون لما بدا من غرابة في مسلكها وتصرفاتها الأخيرة.

اقتعدَ الأريكة الكائنة في الركن الداخلي من الصالون، وصار يعود تدريجياً إلى الوراء، أما علياء فقد مزقتْ جلباب الصمت بتشهقها وبكائها، فقعدتْ على حافة الدرج تنتحبُ قائلة:

_ هذه ثمار معاملتي الطيبة له ورعايته واهتمامي به كأخٍ لي، لقد اعتبرَ كل هذا هوساً وافتتاناً به، وينعتني بالخيانة، واصماً إياي بالعار، لا أعلم سبب كرهه وحقده عليّ، كل ما أعلمه أنه لم يحبني يوماً مذ دخلتُ دارهم وأنا فتاة صغيرة يتيمة، لقد كان يمتعض من وجودي ومقاسمتي له ولأخته

الغرفة، وحتى من رعاية عمي لي كان يتضايق، آهٍ يكاد رأسي ينفجر، أنا لا أُصدق ما حدث.

هرع أحمد كخروفٍ مبلل يحتضنها، ويبتدر يديها لثماً وتقبيلاً، يبكي لبكائها، ويهدأ من روعها قائلاً:

_ لن أسمحَ لمخلوقٍ أن يمسّ طرفكِ يا حبيبتي، وسأقطع لسانه إنْ تجرأ ثانية وتفوه بما يزعجكِ، لكنني أجزمُ أنه فاقد الصواب بسبب اختفاء زوجته، ورغم كل هذا لن أسامح تجرؤه عليكِ، ولن أغفر له ما بدر منه من حماقات تجاهكِ فثقي بي.

ضمته بخبثٍ، وهمستْ له:

_ ليس لي نصيرٌ في هذه الدنيا إلا أنتَ يا حبيبي، وهذا المنافق يدّعي بأنني أحبه، يا لسخفَ تفكيره! كيف ذلك وأنا لم يخفقْ قلبي يوماً إلا لكَ وحدكَ!

قاطعها أحمد دونما تفكير:

_ هُسْ لا تقولي شيئاً، فما أنا بمجنونٍ لأُصدقَ عنكِ هذه السخافات.

وتركها ناهضاً ليتوجه إلى عزامٍ بلهجةٍ آخرة وجادة، خالعاً عنه سحنة الخروف المبلل:

_ قمْ واذهبْ إلى بيت ذلك السافل، وأحضرْ أختكَ من عندهم، وإياكما أن تدوسَ قدماكما عتبة داره من الآن فصاعداً وإلا غضبتُ عليكما حتى آخر يومٍ في عمري، أفهمتْ؟

لم يلتفتْ عزام إليه، فقد بدا غارقاً في تفكيرهِ متأملاً، فصرخ أحمد صرخةً أجفلته وأرغمته على النظر إليه:

_ أنا أتكلمُ معكَ، فانظرْ إليّ، وقفْ احتراماً لي.

نهض عزام متثاقلاً، وثبتَ نظره عليه بشرودٍ دون أن يتلفظ بحرفٍ، فتابع أحمد رافعاً إحدى حاجبيه:

_ اعتباراً من هذا اليوم سننسى عائلة لؤي الحسيني، ونقاطعهم مقاطعةً أبدية، وكل مَنْ يُخالف أوامري سأطرده شرّ طردةٍ، و أتبرأ منه، تحركْ وأحضرْ أختكَ من هناك، هيّا.

ذهبَ عزامٌ منفذاً أوامر والده، لقد كان بحالةٍ من الصدمة جعلته كالمختلّ عقلياً لا يعرفُ من يصدّق، فهل يصدقُ لؤياً الذي يتهمُ والدته بجريمة شنعاء لا يقترفها إلا من ماتت ضمائرهم، وقستْ قلوبهم كفراً، متجردين من الرحمة، وأنها تعشقه منذ زمن طويل، وتستميتُ بحبه لدرجة الهوس كما يقول، أم انه يصدّق أمه التي يحبها حباً لا يتصوره عقلٌ، أمّه التي لطالما تباهى بها وبأخلاقها وإخلاصها وحبها لوالده، إنّ ما حدث اليوم أكبر بكثير من حجم استيعابه حتى يكاد يصيبه بالجنون.

وصلَ إلى بيت لؤي منهك القوى، قرعَ الباب منتظراً، وبعد دقيقة فتح وليم الباب، فطلبَ منه عزام مناداة عفراء، وظلّ واقفاً في الخارج لا يجرؤ على اجتياز عتبة البيت الذي كان يحبه كثيراً ويأنس كل الأنس فيه.

أخذ الصبي يتقافز إلى الداخل، وجاءتْ بعد قليل عفراء قسماتها مشحونة بالحزن تبدو بهيئة مختلفة لم يرها بها من قبل.

ظهر خلفها لؤي كسير الطرف، خامد العنفوان متخماً بالكآبة، لكن عزاماً أشاحَ ببصره عنه، وقال لأخته:

_ هيا يا عفراء لنعدْ إلى منزلنا.

همّتْ عفراء بالكلام لتعترض على أمر أخيها، لكن لؤياً سبقها بالقول:

_ عودي مع أخيكِ يا عفراء، نحن سنتدبر أمورنا لا تهتمي.

دخلتْ عفراء منكّسة الرأس لتحضر حقيبتها من الغرفة، فقال عزام:

_ ليتني متُّ قبل ساعات من الآن، ولم أشهد ما شهدته من كوارث، لقد حرمتني من قربكَ الذي كان بالنسبة لي نافذة أملٍ أرفّه بها عن نفسي مما ألمّ بي من حزنٍ وآلام، وتأملتُ أن أتوكأ عليكَ لأعود وأمشي من جديد في سبل الأيام الوعرة، لقد حرمتني أيضاً لذة العيش في كنف عائلتي التي بتّ أشك في نزاهتها، قتلتني أنتَ بيديكَ يا لؤي، يا من كنتَ أحب خلق الله إلى قلبي.

قتلتني مذ قتلتَ بي الثقة بكل من حولي، فأنت إنسانٌ لا يرَ الخير إلا بنفسه، ويبقى الآخرون في نظركَ تماثيلَ للشرور عليكَ بهدمها، تراقبُ ظلماتهم وسوادهم، وكأنكَ النور الوحيد الخالي من الحلكة، صدقني إنْ قلتُ لكَ ليس المكوث في جهنم بأسوأ مما أنا فيه الآن.

بكى لؤي بحرقةٍ وهو ينصتُ إلى مواجع عزام التي مزّقتْ وجدانه، ولبث جامداً محاطاً بكآبته التي تترجمها دموعه الغزار، ولم ينبس بحرفٍ وهو يراقبُ عزاماً وعفراء وهما يغادران منزله، تاركاه متمرجحاً بين ألسنة نيران لا تطفئها أعتى أمواج المحيطات، لقد خسر سعادته التي أخذتها ريم معها في جعبة غيابها المفجع، وخسر عزاماً الذي يؤثره على نفسه، ومكث بين مخالب الهمّ لا يلوي شيئاً، فلا هو قادرٌ أن يقدّم بلاغاً ضد ابنة عمه لمجرد التخمين، لربما يكون تخمينه خاطئاً وما وعيدها إلا شظايا غضبٍ متأججٍ من هوسها المجنون، ولا هو بقادرٍ أن يبقى مشلولَ الإرادة مكتوف اليدين وزوجته بين أيدٍ آثمةٍ تسومها العذاب الذي لا يحتمله إنسان، هذا إنْ لم تكنْ قد زُهقتْ روحها وماتت.

-4-

مرّ يومان آخران والحال لم يتغير، وعادلٌ لا يردّ على مكالماتهم ولم يبنْ له أثر، وبقي لؤي كخشبةٍ يابسةٍ لا يتحركُ فيه إلا صدره الذي ينبئ بأنه لا يزال على قيد الحياة، أما ماريا فلا تكفّ في أوقات استيقاظها عن مناداة ابنتها بحرقة قلب أمّ مفجوع ومثكول، ولا تنفكّ عن سؤالهم عنها وعن زوجها عادل.

بينما الأم العجوز قد تورّمتْ جفونها من البكاء على مصيرٍ أسودٍ أحاطَ بولدها وزوجته.

وقفَ لؤي عند حافة سرير ماريا يتأملها بحزنٍ بالغٍ، ويلوكه الأسى، وقد تذكر ذلك اليوم الذي رآها فيه لأول مرة في المستشفى، واستعادَ في مخيلته المنهكة تقاطيع ريم التي تشبه تقاطيع والدتها إلى حدّ كبير، لم تكنْ من معجزةٍ تزيل تلك الغصة العالقة وسط حلقه، وصار لنحيبه صدى يُصدرُ أنيناً خافتاً جعل ماريا تفتح عينيها ببطء، وتنظر إليه في ريبةٍ.

انتبه لؤي لنفسه واعتذر منها قائلاً:

_ المعذرة لقد أيقظتكِ، لكنني مرغماً، فأنا أشعر بالاختناق وبحاجة لأحادثكِ علّنا نخفف قليلاً من جبروت هذا الحزن الثقيل.

طلبتْ منه ماريا أن يساعدها في الجلوس ففعل، ووضع خلفها وسادة كبيرة، سحب كرسياً وداناها من سريرها وما إنْ جلس عليه حتى باغتته بسؤالها:

_ أين عزام وعفراء لم أعدْ أراهما هنا؟

أغلقَ لؤي عينيه بحسرةٍ عند ذكر عزام، وهاجتْ مواجعه، فأجابها:

_ لقد قطعوا علاقتهم بنا جميعاً.

فوجئتْ ماريا بردّه، وسألته باهتمام:

_ وما سبب القطيعة يا لؤي؟

أحسّ في تلك الأثناء برغبة شديدة للبوح لها بكل شيء، علها تشير إليه برأي يعينه على إيجاد وسيلة ليصل إلى صبوته، فطفقَ يحدثها بكل ما كان ومضى، وقد وجّه تكشيرة ساخرة إلى ذكريات تعيده إلى أنقاض ماضٍ سبق أن حطمه بما فيه الكفاية، كان يتكلم وقد تجعّدتْ جبهته بغضونٍ عميقةٍ تنمّ عن ألمٍ، وكل حين يمسكُ رأسه الذي أرهقه الصداع، ويكمل مع صعوبةٍ في استحضار تفاصيل حكايته، ولم يخفِ عنها أيّ شيء مهما ضؤلت أهميته، لقد شرح لها معاناته الطويلة وبشاعة المواقف التي تعرض بسبب رعونة علياء الحسيني، وإصرارها على الحصول عليه بأيّة طريقة.

كانت ماريا تصغي إليه باهتمام ودهشتها تتعاظمُ وتتفاقم، وقد اطلّعتْ على دناءة ووضاعة المرأة التي غدر بها أحمد فيما مضى لأجلها، لقد

أيقنتْ ماريا بأنّ امرأة مثل علياء تحملُ هذا الكيد العظيم، وتعشق بهوس أبعد غوراً من الجنون لهي قادرة على تدمير كل من يقترب من معشوقها، ولن تتوانى عن تقطيع ابنتها إرباً إرباً لتبرد نار غيرتها العمياء، فندتْ عن صدرها شهقة رعبٍ، وقد وصلتْ إلى تلك القناعة، وهمستْ بفمٍ يتراقص ارتجافاً:

_ إنها بلا شكّ المسؤولة عن اختطاف ابنتي، وقد تكون قتلتها ودفنتها لتبعدها عنكَ، وتأخذ بثأرها منك إثر إهانتكَ لها.

وسرتْ في أرجائها قوة عاصفة جعلتها تُزيحُ اللحاف عنها بقوة، وتنهض من السرير بلمح البصر، وطلبتْ من لؤي أن يأخذها إلى بيت أحمد توفيق حالاً.

حاول لؤي أن يثنيها عن رأيها، ويشرح لها بأنه لا فائدة تُرجى من استجدائهم، لكنها أصرّتْ وألحّتْ وقالتْ بحدة:

_ إنْ لم توصلني إلى هناك، فسأذهبُ وحدي.

أذعنَ لؤي مرغماً لإرادتها، وانتظرها في سيارته ريثما تنتهي من ارتداء ملابسها.

خرجتْ ماريا قاصدة بيت أحمد توفيق برفقة لؤي الذي وقف منتظراً على مقربةٍ من المنزل، ولم يشأ أن يقترب حتى لا يظنّ أحمد بأنه استخدمَ حيلة ليدين بها علياء.

كانت أطراف ماريا مقرورة، وقلبها يخفق بشدة كمن يُساق إلى مقصلته، لكنها لم تتردد في المضي إلى الشخص الذي لم تتصور يوماً أن تلتقيه ولو مصادفةً.

قرعتْ جرس الباب، وقد استجمعتْ شيئاً من قواها الواهنة، وانتظرتْ انفراج أسارير الباب، وقد أحسّتْ بأنها وقفتْ لدهورٍ مديدة قبل أنْ يُفتح، وتظهر الخادمة تسألها عن هويتها وبغيتها من المجيء.

قالتْ ماريا بتحدٍ واضح في نبرتها:

_ قولي للسيد أحمد توفيق أنّ ماريا لطفي تحتاجه لأمر هام، غابتْ الخادمة لدقائق، وتراود إلى مسامع ماريا صوت خطواتٍ تقتربُ رويداً رويداً، وعندما صارتْ قبالتها، بدا مبهور الأنفاس ولم يسعفه لسانه على نطق حرفٍ واحدٍ.

قدحته ماريا بنظرات تحملُ في شرارها كرهاً كبيراً وموجةً كثيرة لو تجسدتْ شيئاً ملموساً لكان جبلاً شاهقاً مشتعلاً بالحمم وأذابته في رقّة عين عن وجه البسيطة.

قالتْ وقد كتمتْ بغضها بلهجةٍ يتخللها بضع غصّات:

_ لا ضير أنكَ قتلتَ ماريا في يوم من الأيام، لكن الله شفاها من غدركَ، وأرسلَ لها من نفخَ بها روحاً ثانية، وها أنا أمامكَ أحيا من جديد، لكن الذي سيقضي عليّ قضاءً مبرماً لا براء منه هو أن تقتلَ ابنتكَ.

قالَ أحمد بإعياء، وقد عجزَ عن فهمِ ما ترمي إليه:

_ ما بها عفراء؟ وأيّ شر يحيق بها؟

ارتسمَ على وجهها شبحُ حزنٍ يستدعي الشفقة، وأجابتْ:

_ لا أقصدُ ابنتكَ عفراء، إنما أقصد ابنةً زرعتها في جوفي ورحلتَ، ابنة كانت ثمرةَ ليلة من الخطيئة في يومٍ أسودٍ مشؤوم كالقدر الذي كتبَ لي معرفتكَ.

رفع حاجبيه، وفتح عينيه بذهولٍ غير مستوعبٍ لما قالته، فتجاهلتْ ماريا دهشته وتابعت:

_ لقد اكتشفتُ بأنني أحملُ جنيناً في أحشائي بعد رحيلكَ، و كنتُ على أهبّة الانتحار لولا ظهور عادل واستعداده لتحمّل مسؤولية فعلتي، وتبنّى ابنتي معاهداً الله أن يربّي ريماً ويعتبرها ابنته، ولم يحنث بما وعد، إنه كان ولا زال أعظم أبٍ في الدنيا لريم، وقد رهنَ سعادته وراحته لأجل أن نعيش أنا وهي، ولا تظنّ بأني جئتكَ لأفرضَ عليكَ شيئاً، كرميها على عاتقكَ مثلاً، لا ليس هذا مرادي، لأنكَ لستَ أباً لها إلا بالدم الذي يسري في عروقها، فأبوها الحقيقي هو عادلٌ الذي نزفَ ليالٍ طويلة ليطعمها ويكسوها، وهي لا تعرف شيئاً عن حقيقة نسبها، ولا أريدها أن تعرف، أو تقف على هذه الحقيقة الشنيعة.

صمتتْ ماريا تلتقطُ أنفاسها، وقد وهنتْ ركبتاها، فتقوستا، وركعتْ أمامه، وقد انهارتْ قواها، فانفجرتْ باكية جعلتْ قلبه يقطرُ دماً عليها:

_ جئتُ أتوسلكَ وأتضرعُ لك أن تُعيد لي ابنتي، ارأفْ بها أرجوكْ.

أخذَ نور عينيه يخبو شيئاً فشيئاً، وانكفأ لونه واصطكتْ ركبتاه، وكاد يسقط أرضاً من حقيقة مباغتةٍ شلّتْ أعضاءه وتفكيره.

تابعتْ ماريا توسلاتها بدموعٍ حارقة:

_ دعْ زوجتكَ تطلقُ سراحها، جئتكَ لتنقذها من براثن امرأةٍ تدفعها غيرتها المجنونة إلى إيذائها، كنْ رجلاً لمرة واحدة في عمركَ، وأعدْ لي وحيدتي.

كان أحمدٌ يغالبُ حالة إغماء تزحف إليه، وصار رأسه يتلوّى، وقد عجزتْ قدماه على حمل جسده فقال بصوتٍ متقطعٍ خافتٍ:

_ أقسمُ لكِ يا ماريا بأنّ علياء بريئة كل البراءة من ادعاءات لؤي، لا تصدقيه يا ماريا أرجوكِ، وأعدكِ بأنني سأعمل كل ما بوسعي لأعيد لك ريم، لن أدعكِ تتذوقين المزيد من الآلام، لكن عندي رجاء.

قاطعته ماريا بقولها:

_ لا تكملْ يا أحمد، لن يعلمَ أيّ مخلوقٍ بأنّ ريماً ابنتكَ أليسَ هذا رجاؤكَ؟

ذرفَ دمعاً حاراً من عينيه الذابلتين وقال لها:

_ سامحيني يا ماريا، فأنا لم أكنْ رجلاً ولو لساعة معكِ.

قالتْ ماريا وهي تهمّ بالانسحاب خائرة القوى:

_ قد أسامحكَ عندما تعود ريم إلى أحضاني، ساعتئذٍ سأصفح عنكَ صفحاً جميلاً.

وتركته في حالة يُرثى لها، حيث دلف إلى الداخل يلتفتُ يمنة ويسرةً ليطمئنَ بأنّ علياء لم تسمع ما دار بينه وبين ماريا من حديث، استحقرَ نفسه في نفس الوقت، لقد جعله كلام ماريا شقياً يتقطع قلبه إلى أشلاء، وقد وقفَ على حقيقةٍ أنّ له ابنة لا يستطيع الاعتراف ببنوتها لأحدٍ.

دخلَ إلى غرفة الطعام ليفرغَ دموعه المحبوسة ويبكي ما شاء له أن يبكي لأنه مشلول الإرادة أمام حبّ علياء، هذا الحب الذي يجرّده من رجولته نهائياً.

عادتْ ماريا إلى حيث ينتظرها لؤي الذي سمع كل شيء، فقد تسلل خفية ووقف وراء جدار المنزل على مقربة من ماريا وأحمد، فجمد لسانه في جوف فمه، وراعه ما سمع، وأذهله أن تكون ريم ابنة صديق عمره أحمد توفيق وأختاً لعزام وعفراء، وأكثر ما صدمه هو كمية الغدر الذي لحقتْ بماريا تلك المرأة المسالمة العاقلة، وشناعة سلبه لشرفه بكل جبن لأجل من؟ لأجل علياء التي تمتلئ مكراً وتفوح خيانةً، وقادرة على تحطيم أوطانٍ آمنة وإزالتها عن خارطة الكون في لحظاتٍ بغدرها.

ألجمه تجلّي هذه الحقائق المرعبة، وهو مكسور الفؤاد، ومفجوع بزهرة عمره ومنتهى آماله، لكنه لم يفصح لماريا عن وقوفه على الحقيقة التي اطّلع عليها، وذلك كي لا يحرجها، خصوصاً بعد أن سمع استعطاف أحمد لها كي لا تخبر أحداً بنسب ابنتها الحقيقي، ووعدها له بإخفاء

الأمر، واستعظمَ نذالة أحمد الذي جلّ ما يخشاه عطف وحب زوجته المزيفين.

أمضى كل المسافة سارحاً ساهماً يحدثُ نفسه بأنه لا فرق بين أحمد وعلياء أبداً، فكلاهما دمرا أشخاصاً أبرياءَ بسبب هوسهما، أحمد غدر بالسيدة ماريا وتركها لعبة في يد الأقدار، تتجرعُ كؤوس العذاب ليلهث ككلب وراء معشوقته التي سلبت لبّه، وجعلته كخاتم في بنصرها تديره كيفما تشاء، ومشاعرها بعيدة عنه بعد السماء عن الأرض، وعلياء أيضاً توصّلتْ إلى خطف إنسانة بريئة وأذاقتها ألوان العذاب، ولربما قتلتها بوحشية لتعدو ورائي، وتغتصب قلبي اغتصاباً غير مشروع، وأنا بعيدٌ بعواطفي عنها بُعدَ الفردوس عن قيظ سقر، فما هذا الهوس الذي يدمر كل ما حوله؟ ولكن حتماً سيتقلص مداه، وسيحيل صاحبه إلى أجزاء صغيرة تنثرها رياح عابرة في نهاية المطاف.

ولا زال لؤي غارقاً في تفكيره حتى وصلا البيت، فدخلتْ ماريا الغرفة مغلقةً الباب وراءها، وظل لؤي طوال الليل يأخذه فكره يميناً ويساراً ويعود ليرفعه إلى أعالي السماء، فما يلبث أن يقذفه إلى أعمق أعماق الهاوية حتى لاحَ الفجر وغلبه النعاس.

ونامَ عميقاً من كثرة الإنهاكِ والتعب والسهر الطويل.

***

كيف للأيامِ أن تجور بجبروت ثقل الانتظار بحيث تحاصرنا من كل الجهات أمواجُ الحزن العاتية، ونقفُ في حيّزٍ ضئيلٍ من يابسةٍ مهددة كل حين بالغرق فينا، متى تنقضي آجالنا بما نحملُ من أكداس شوقٍ يعصفُ بوجداننا، ويتركنا ننتظر الموت وأمانينا بعيدة المنال، قصيّة عن رغباتنا وتطلعاتنا؟

مضى شهرٌ على نكبة عائلة لؤي، وعادل عبد الحق، والضياع يحكمُ توجهاتهم، حتى عائلة أحمد توفيق تفرّق شملها، واستوطنتْ الكآبة الخرساء نفوسهم، فقد غفتْ نشوة أحمد الذي ظنّ أنها عادتْ إليه بعودة المياه إلى مجاريها بينه وبين علياء حسب اعتقاده، فباتَ ملتحفاً بجلابيب الهمّ، وقد اعتقله بنير الماضي الذي لم يقمْ فيه للمشاعر الإنسانية أيّ اعتبار، وجاء اليوم الذي انتصبَ ضميره يتفرّس به، يوبخه ويلعنه حائماً فوقه كالغراب الناعق في مجاهل نفسه المعتمة حيث تزأر سباعها، وتنبح كلابها، فيرتمي بإعياءٍ شديد متمنياً لو أنّه الآن ميّتٌ يُبكى عليه.

فكيف له أن يهنأ وينام قرير العين، وقد نزلتْ به نازلةٌ أثلجته حتى جمدتْ دماء عروقه، وقد اكتشف بأن له ابنة مخطوفة أوغلَ سنيناً بظلم أمها، وظلمها هي أيضاً، حيث ولدتْ ونشأتْ وغدتْ في عز صباها، وعاشتْ زمناً عيش المقلين البائسين، بينما هو وعائلته مترفين أبعد حدود الترف.

إنّ ماريا لطفي كانت ولا زالتْ شوكةً مغروسةً في صميمه تدميه، وعاجزٌ أن يئنّ من ألمه أو ينقلبَ باكياً نادباً، ولكنها ما لبثتْ الآن أن تحولتْ إلى مدحلةٍ تسحقُ وجدانه وتطحنهُ بينما جوارحه تصهلُ صهيلاً يطردُ كل شعاعٍ للفرحِ بداخله يرديه صريعاً لا يملك لنفسه نفعاً يُرجى.

لقد آن أوان العقاب الذي انتظره طويلاً من الله على خطاياه، وبدأتْ جذوة النار تندلع لتفجعه بكل غالٍ على قلبه، لم يكن على علمٍ بما استترَ وراء حجبِ الغيب من خفايا القدر.

وعزامٌ أصبحَ يخرجُ إلى الشركة صباحاً ولا يعود إلى البيت حتى ينتصف الليل، فيرجع مطرقاً يهطلُ الحزن من قسماته لا يفارق خلوته حتى تثاؤب الفجر.

لقد فات الأوان لتصلح علياء ما دمرته، لتقوّم بنيان ما حطمته عثراتها، أو لتتداركَ استهتارها زمناً بالقيم والمبادئ، لم يعدْ من فرصةٍ أمامها وقد تهاوى كل شيء، فهي الآن وحيدة تنهشها الوحدة بعد أن تهدمتْ مملكتها وهي ترى زوجها الذي لطالما كان صاخباً يتوهج حيوية متشحاً بالصمت مؤثراً وحدته على الحديث معها كما كان سابقاً، وولدها الذي يهربُ منها كما يهرب المرءِ من كابوس مرعبٍ يتراءى له في نومه ويقظته.

حتى عفراء صارتْ قابعةً في البيت لا مؤنس لها إلا وحشتها وقسماتها الجادة التي وأدتْ من بين طياتها البسمات، فهي لا تنفكّ تتخيل بيتهم

قبراً ضيقاً زالَ منه نبض المحبة والألفة بعد أن كان كإحدى رياض الجنة.

لم تفقْ علياء من غمرة جنونها إلا وقد أدارتْ العجلة لتصل عائلتها إلى حياةٍ حافلةٍ بصنوف الشقاء وبالبؤس.

الفصل السادس

تبسم الجراح

-1-

ما أعظم لحظات انقشاع السحب الداكنة التي ما فتأتْ تمطرنا محنٍ وفواجعٍ! ونحن قابعون منكمشون، لا أبواب مفتوحة أمامنا، لا منافذ أملٍ، لا شيء إلا صدوعٌ تتسعُ لتودي بنا إلى لحدنا، عراةٌ بلا لحافٍ يغطي عوراتنا المكشوفة، ما ألذّ طعمَ اليسر بعد عسرٍ ثقبَ آمالنا! وما أروعَ العثور على طرف حبلٍ نتمسّكُ به ليشدنا إلى فوق ونصعد من قعر بئرٍ ضيقٍ وعميق منسيّ وسط بيداء قاحلة! وإيجاد ضالتنا بعد تعبٍ من الترحال مضني ظلّ لوقتٍ طويل يلحّ علينا بكل خطوةٍ، يصمّ آذاننا صدى عبارته بأنّ "لا أملْ لك فعدْ من حيث أتيت".

ليس بوسع لغةٍ بكلّ بلاغتها وصف لؤي وهو يفتح باب منزله الذي كان يُطرقُ بعنفٍ كأنّ الطارق يركلُ خشبه بنعله، ليجد أمامه عادل عبد الحق مشعث الشعر كوحشٍ بري، منتفخ الأوداجِ، عيناه مكسوة بعروق حمراء، وقد حملَ بين يديه ابنته ريم التي كانت في غيبوبة تامة تتدلى أطرافها كميتةٍ ورأسها ملتوٍ إلى خلف، ينسدلُ شعرها كشلالِ ذهبٍ فقدَ بريقه.

بينما عزام إلى جانبه خائر القوى مسلوب الإرادة، متورم الأجفان كأنه لم يذقْ للنوم طعماً منذ شهورٍ عديدة.

في حينها أحسّ لؤي بشراسة العراك الطاحن ما بين الموت والحياة في أعضائه، ذلك العراك الذي جعلَ كل جزءٍ منه يخبو وتنعدم فيه الحركة، لقد عجز عجزاً تاماً عن الانفجار إمّا فرحاً أو ألماً.

لقد كانت المفاجأة أعظم من إبداء أيّة ردّة فعل إلا الوقوف كصنمٍ مقطوع الأنفاس، خافق القلب، ولم يشعر إلا وقد انهمرَ جسده على الأرض بغتةً.

هرعَ إليه عزام يمسكه، وينادي ملء صوته على وليم الذي خرج مصعوقاً مع جدته لتوه من غرفتها ليحضر لأبيه الماء كما طلب منه عزام.

وصوت عادل يهدر كالرعد المخيف:

_ ماريا أينَ أنتِ؟ تعالي يا حبيبتي لقد وفيتُ بوعدي لكِ.

انفتحَ باب الغرفة لتثبَ ماريا بسرعة، وهي تصيح وتبكي مبحوحة الصوت، وأمسكتْ برأس ابنتها الحاضرة الغائبة، وضمته بروحٍ ظمآنة، همس لها عادل:

_ جهزي لها السرير لأدخلها.

مددها عادل على السرير بمساعدة ماريا، وغطتها أمها وهي تئنّ أنيناً مؤلماً متمتمة بكلمات الامتنان العميق لربٍ رحيم.

بينما السيدة العجوز تبذلُ ما شاء لها أن تبذل من الدموع، وترفع وجهها المتهدل إلى الأعلى حامدة الله على انفراج صدورهم وانشراحها.

ركضَ عادل مسرعاً لاستدعاء طبيب يتولّى مهمة فحص ابنته، في تلك الأثناء بدأ لؤي يستعيد وعيه شيئاً فشيئاً وهو مستلقٍ على الأريكة في الصالون، ولاحَ له وجه عزام يتأمله بحزن، سأله لؤي بصوتٍ متقطع:

_ هل ما رأيته حقيقةٌ أم سرابٌ يا عزام؟

أجاب عزام بقلبٍ منفطرٍ أسىً:

_ إنما هو حقيقة يا صديق العمر، فاطمئنْ، وقرّ عيناً بعودة محبوبتكَ.

قال لؤي بجهدِ مَنْ يجد مشقةً في التنفس:

_ كيف استطاع العم عادل إيجادها؟ ومن الذي اختطفها؟ وكيف؟ وأين؟

وضعَ عزام راحة يده على فم لؤي، وأجابه:

_ سنتحدثُ عن هذا كله في حينه، المهم الآن أن نعتني جميعاً بريم عنايةً فائقة حتى تستعيد كامل صحتها وقوتها.

سأله لؤي وقد داخله الارتياح قليلاً:

_ هل أدخلتموها إلى المستشفى؟

هزّ عزام رأسه بالنفي وأعلن:

ليستْ بحاجة لذلك، لقد ذهبَ العمّ عادل ليحضر لها الطبيب، وسيأتي لها بكادرٍ طبي إذا لزم الأمر، لكنني أجزمُ لكَ بأنّ سبب إعيائها ناتجٌ عن إضرابها الطويل عن الطعام.

صاحَ لؤي وهو ينهض واثباً غير مكترث بالدوار الذي يلفّ رأسه:

_ وما أدراكَ أنتَ يا عزام؟ ربما تعرضتْ لأذىً جسدي لا نعلمه، هيّا ساعدني على النهوض فأعضائي كلها تخاذلتْ وتهدّمتْ.

قال عزام وهو يمسكه لينهض على قدميه:

_ بعد قليل سيحدد لنا الطبيب ما ينبغي علينا فعله، اطمئن.

***

ارتمى لؤي بجانب ريم التي كانت لا تقوَ على أن تدير نظرها على أحدٍ، فقد بدأتْ تفتح جفونها بإعياء بالغٍ، ولا تلبث أن تغمضها، وقد ارتخى جسدها بالكامل، وكسا جلدها اصفرارٌ باهتٌ.

أحاطها لؤي بذراعه، ودفنَ رأسه بين تموجات شعرها المفرود، ليطلقَ العنان لدمعه المحبوس، وأخذَ ينشجُ نشيجاً محزناً، بينما ماريا تبتدر يدها فتلثمها بحرارة، وتضعها على صدرها، وهي تناشدها ضارعةً أن تكلمها ولو كلمة واحدةً تشفي غليل احتراقها.

ولمّا يزالوا على هذه الحال حتى وصل الطبيب ومعه ممرضةٌ، وأمرَ الجميع بمغادرة الغرفة باستثناء زوجها، فانصاعوا لأوامر الطبيب، وخرجوا لينتظروا في الصالون.

جلسَ عادل محتضناً زوجته التي ترتجف وترتعدُ فرائصها، وطفق عزام يذرعُ أرضَ الصالون جيئةً وذهاباً مشغول الفكر واجمَ الوجه، شاخصاً ببصره إلى أبعد بكثير من مكانه، مجتازاً جدران البيت غير آبهٍ

للضوضاء حوله، ولا بكلام الجدة العجوز وأسئلتها التي لا تنقطع عن كيفية العثور على ريم.

ظلّ عزام وعادل ملتزمان الصمتَ، حتى أنّ عادلاً لم يردّ على إلحاح ماريا في الأسئلة عن المكان الذي وجدوا فيه ريم، وعن هوية مختطفيها، وكان إلحاحها يزيد وهجَ الغضب بين جفنيه فيكزّ على أسنانه حتى تصدر صريراً، ويتجهمُ تجهماً مخيفاً يغيّر كل ملامحه، فيردّ بحنقٍ مكبوتٍ، وهو ينقّل النظر بينها وبين عزام:

_ ستعرفون كل شيء في حينه يا عزيزتي.

خلال الأيام التي أعقبتْ ظهور ريم، وبعد تصريحات الطبيب بأنها سليمة، خالية من أيّ أثرٍ لعنفٍ أو اعتداءٍ، وتأكيداً لتصريحاته تمّ إخضاعها للفحص الدقيق والشامل في مستشفى خاص، حيث أكدّ الأخصائيون كلام الطبيب، وأوعزوا حالتها إلى قلّة التغذية مصاحباً ذلك حالتها النفسية السيئة.

ولاقتْ عناية كبيرة في المنزل تحت إشراف الطبيب الذي داومَ على زيارتها كل يوم صباحاً ومساءً.

واستردتْ عافيتها سريعاً، وقد أحاطوها بعطفهم ومحبتهم، لكن مسحة الحزن لم تفارق سحنتها، وطيف الدموع يلوحُ بين جفنيها لا يغادرهما أبداً، كانت حينها تريد التحدث عن الحادثة تحت إلحاح من لؤي وأمها فتغصُّ وتتشردقُ بدمعها وتتوقف عن الكلام، وتومئ برأسها علامة "كفى

لا أريد إحياء ذكرى مرعبة تحطمُ كياني"، فينصاعا لرغبتها ولا يلحا عليها، فهما سيصبران حتى تبرأ وتبلّ من أوجاعِ نفسها المحطمة.

إنّ خيالها لا ينفكّ يعود ويصوّر لها شبح ذلك اليوم عندما خرجتْ من الكلية لتنتظر قدوم زوجها.

كانت تجتاز الشارع إلى الناحية الأخرى لتستظلّ بفيء إحدى الشجيرات، عندما جاءت ووقفتْ على مقربة منها امرأة منقبة ولا زالتْ تدنو منها حتى التصقتْ بها، حينها نظرتْ ريم إليها نظرةً كلها تساؤل، وأشاحتْ عنها تهمّ بالابتعاد عنها، وقد امتلأتْ نفسها ريبةً منها، فباغتتها المرأة بمنديل مخضّبٍ بمادة مخدرة، وغابت عن الدنيا، وبعدها لم تفقْ إلا في ذلك القبو الموحش المظلم مقيدةَ القدمين واليدين، تأتي كل يوم تلك المرأة تسقيها رشفة ماء، وتحاول أن تحشي فمها بقطعة خبزٍ مغموسةٍ بزيت، لكن ريماً تجاهد حتى لا تبتلعها وتلفظها من بين أسنانها وتبدأ النحيب بأوجع كلمات عسى أن يحنّ قلبها، وترأف بشبابها.

لكن المرأة القاسية ما إنْ تسمع بكاءها حتى تعود لإغلاق فمها بقماشٍ تفوحُ منه رائحة الرطوبة، وتلّفه حول رأسها لتحزم به لسانها فلا تقوَ على الصراخ.

لم تلحظْ ريم كل تلك المدة أيّ رجلٍ في ذلك القبو رغم أنه كان يتوارد إلى مسامعها حديث هامس يتلوه سعال جاف، وتتوزع الأصوات مختلطةً فيما بينها بحيث لمْ يعدْ بالمستطاع التمييز بين صوت وصوت.

كانت تضيعُ في غابات وأحراش الحيرة، فكيف استطاعتْ تلك المرأة خطفها في شارعٍ لا يخلو لحظةً من العابرين؟

ألم يرها أحد المارين؟

ألم يلاحظ أحدٌ أنها اختطفتْ؟

كيف تسنى لها فعل ذلك؟

إنه لغزٌ لم تفهمه أو تستوعبه، فهي بالتأكيد استخدمتْ حيلةً ذكية جداً لتنفيذ جريمتها.

-2-

في إحدى المساءات جلسَ عزامٌ مع لؤي في الصالون بينما العجوز ووالده وليم يتابعا التلفاز، وعادل وماريا في الغرفة مع ابنتهما.
التفتَ لؤي إلى عزام الذي بدا قاتماً متجهماً:
_ لقد أصابني بفقدان ريم مسٌّ من الجنون، فخرجتْ عندئذٍ من لساني أقوالٌ جائرةٌ على غير إرادة مني، وأخطأتُ عندما تجنيتُ على والدتكَ.
أغمض عينيه حسرةً وتابع:
_ فانظرْ إلى أيّ حدّ من الحماقة يمكنْ أن يودي الحزنُ بالإنسان، لقد كانت روحي في صقيع، بينما دمائي تسري مشتعلة في عروقي، وإنني الآن مكللٌ بالخجل من نفسي وأريد طلب صفحكَ وعفوك، ولن أرتاح حتى تغفر لي ما تفوهتْ به يا صنو روحي.
بدا عزام مكدّر النفس، معكّر المزاج، فتنهدَ بعمق ليريح صدره من ذلك الانقباض الرهيب، وهمس بغصة:
_ ماذا صنعتُ أنا يا الله حتى غرقتُ في هذا الشقاء كله؟
وأطرقَ أرضاً كالمهزوم يستجدي دمعه علّه يسعفه قليلاً ليحس بضئيلٍ من الارتياح، وتابع كلامه ولازالتْ تلك الغصّة تقف في حلقه:
_ عشتُ سنيناً خلتْ لم أحسدْ أحداً على عيشه، وتجرعتُ السعادة حتى الثمالة، أهنيء نفسي فيها كل لحظة لأنني وسط عائلة مثالية، متنعماً بالثراء، منشرحاً برفاهية لا يطالها إلا أبناء الملوكِ، ابنٌ لرجلٍ لا أحبُّ

أكثر منه مخلوقاً في الدنيا، وأمٌ طالما شمختُ برأسي عالياً لأنها أنجبتني، وتزوجتُ من فتاةٍ لم يخلق الله في النساء أحبّ منها إلى قلبي، ففجعتُ بها وأودتني فاجعتي بها إلى كره طفلي الوحيد الذي أوكلتُ أمر تربيته لامرأةٍ غريبة ترعاه وتهتم لأمره، وكلما أنبّتُ نفسي ووبختها لابتعادي عنه، أذهبُ إليه وأقتربُ لأحنو عليه فأرى في مخيلتي وجه شيرين الشاحب وأسمع صراخها وعذاباتها فأهرعُ هارباً مذعوراً مبتعداً عنه وأنا فاقدٌ كل حواسي أقربَ للموت مني إلى الحياة، والآن يا لؤي ماذا أنا؟؟

لستُ سوى كلبٍ شاردٍ بين الأزقة يبحث عن سعادته ولا يجدها، فقدتُ احترامي لأسرتي حتى غدوتُ لا أطيق النظر في وجه أحدهما، أو التحدث معهما.

رفعَ رأسه والتفتَ إلى لؤي قائلاً بابتسامة أقرب إلى البكاء:

_ لا تقلقْ أنا لم ألمكَ على ما بدر منكَ، ولستَ بحاجةٍ لصفحي وغفراني، وإلا لما رأيتني هنا بجانبكَ.

ونهض على قدميه معلناً:

_ لقد انتصفَ الليل ويجب عليّ أنْ أذهبَ الآن، وإنْ احتجتَ لأيّ شيء لا تتردد في الاتصال بي، ستجدني أمامكَ على الفور.

اعترضَ لؤي قائلاً:

_ لم ينتهِ حديثنا يا عزام، ألمْ تعدني بأنكَ ستخبرني كل شيء.

أجابَ عزام وهو يحث خطاه دون أن ينظر إليه:
_ أجل سأخبركَ كل شيء، ولستُ بحانث وعدي، فقط أمهلني إلى الغد.
_ كما تشاء يا حبيبي، كنْ بخير أرجوك.
خرج عزام وأغلق الباب خلفه لا يجدُ إثباتاً واحداً أنه على قيد الحياة من تزاحم الآلام وتشابكها في نفسه.

***

وصلَ عزامٌ إلى البيت فوجدهُ خالياً، والإنارة خافتة شاحبة، وهمَّ بصعود السلالم لكنّ أصوات تنهيدات عميقة وخافتة أوقفته فصار يلتفتُ باحثاً بعينيه عن مصدرها.
لقد كان والده مسجّى الجسد على أريكة منفردة في ركنٍ قصيّ ملقياً برأسه إلى الوراء كأنّه على موعدٍ قريبٍ مع حتفه، اتجه عزام إليه، وسأله بصوتٍ خفيض:
_ هل أنتَ على ما يُرام يا أبي؟
استقامَ رأسُ أحمد بعض الشيء، ورمقَ ولده بنظرة ساهمة تحملُ حزناً عميقاً وقال:
_ اطمئن يا بني أنا بخير، أشعرُ بصداعٍ خفيف سيزول حالما أشربُ فنجاناً من القهوة.
وصدحَ صوتُ علياء من خلفه:
_ مساءُ الخير يا عزام، تعالَ واشربْ القهوة معنا.

استدار عزام إليها قائلاً وهو يحكّ طرف حاجبيه:

_ لا أنا مرهقٌ وبحاجة للنوم.

وضعتْ علياء الفناجين أمام زوجها على الطاولة، وجلستْ لتضعَ ساقاً على ساقٍ، وتشارك أحمد شرب القهوة.

قال عزام وهو لا يزال واقفاً:

_ أبي لقد عثروا على ريم زوجة لؤي منذ مدة.

نهضَ أحمد بخفة وصاحَ وقد ردّتْ روحه:

_ هل أنتَ متأكدٌ؟

في تلك الأثناء انتفضتْ علياء كأنّ عقرباً لسعها فانسكبتْ القهوة على فخذيها وصرختْ من الألم، وهبّتْ واقفةً والذعرُ يتطاير من عينيها.

تابعَ عزامٌ، وهو يراقبُ حركات أمّه:

_ نعم متأكدٌ وهي في المنزلِ منذ أسبوع، وقد كانت في حالة يُرثى لها، لكنها الآن قد تعافتْ واستعادتْ شيئاً من قواها.

تنفسّ أحمد الصعداء وأدمعتْ عيناه بعد أن داخله شعورُ مَنْ أزاحَ ثقلاً كبيراً عن أضلاعه، وطفقَ يقول لابنه:

_ إنه ليسعدني هذا الخبر يا بني، رأفةً بوالدتها المسكينة وبـ ... وكاد يقول "بي" لكنه توقفْ عن الكلام، وقد خشي أن يُفصحَ عن فرط سروره الداخلي الذي جعلَ قلبه يتراقص جذلاً بسلامة ابنته، وحاول التحكم بتعابيره المنبسطة، وزرعَ تعبيراً مزيفاً من الوقار، وهو يرمق علياء التي

جمدتْ جموداً مخيفاً، وظنّ بأنها تستعيد كلمات لؤي الجارحة بحقها فقال لها:

_ رغم سروري بظهور ريم، إلا أنني لن أسامحَ لؤياً لأنه اتهمكِ ظلماً بذلك الفعل المشين، ولن أُغير موقفي منه أبداً.

لم تنبسْ علياء بحرف، إنما انسحبتْ إلى غرفتها وهي تقول:

_ سأُغيّر ملابسي وأضعُ مرهماً للحروق فقد اكتوتْ ساقي من انسكاب القهوة الساخنة.

لأولِ مرةٍ في العمر يتغافل أحمد عن الاهتمام بآلامها، فلو أنها احترقتْ هكذا فيما مضى لأقام الدنيا وأقعدها على رؤوس كل من في المنزل، لقد استحوذتْ قضية ريم ومعرفته بأنها ابنته على كل اهتمامه.

استأذنَ عزام من والده ليذهب وراءها مغلقاً باب الغرفة خلفه، لكن لحاقه بها أثار رعبها وخوفها، فابتدرته محاولة التماسك:

_ ما الأمر يا بني، هل من خطب؟

أجاب عزام بسخرية واضحة:

_ جئتُ لأطمئنَ على ساقكِ، فقد ساءني احتراقكِ بقطرات القهوة نتيجة إخباري لكِ عن ظهور ريم.

اضطربتْ وأشاحتْ عنه حتى تداري توترها، وقالتْ بصوتٍ مرتجفٍ:

_ لا تقلقْ إنها حروق طفيفة.

قال لها عزام بلهجة قاسية ممزوجة بالحزن:

_ نعم حروقك يمكن إزالتها بقليل من المرهم أو برشة ماء باردة، لكن وأسفاه على من تكون حروقه بليغة لدرجة أنها تشوي أعضاءه شيّاً لا تشفيه ثلوج جبال الألب أو مياه المحيطات كلها كجروحي أنا.

أغمضتْ علياء عينيها بامتعاض وهي تكتم ألمَ صخرةٍ جاثمة على صدرها، ولم تعقّب على كلامه، لكنه سألها سؤالاً أطاح بصوابها:

_ أمي هل لكِ أن تخبريني كم دفعتِ ثمن المنزل الذي اشتريتهِ للأشتر؟

صُعقتْ من وقع سؤاله، وأحسّتْ بأنّ الأرض تحت قدميها قد مادتْ، وتزلزلتْ حتى كادتْ تتهاوى أرضاً، حاولتْ أن تقول شيئاً لكنها تلعثمتْ، وجاءتْ كلماتها متقطعة وقد احتقنَ لونها:

_ ماذا تقول؟ عن ماذا تتحدث؟ أنا لا أفهم شيئاً مما تقوله.

ابتسم لها ابتسامة تخفي وراءها الكثير، وقال بخبث:

_ سأُعيد ما قاله لؤي آخر مرة هنا " لا يناسبكِ دور البراءة" لقد انكشفَ لي كل ما اجترمته، ويجدر بكِ أن تعترفي على الأقل أمامي حتى أفهم دوافعك التي أجبرتك على هذه الجريمة، فأعالج الأمر قبل استفحاله، وقبل أن يودي بكِ إلى حبل المشنقة.

صرختْ علياء في وجهه وقد استذأبتْ:

_ اخرسْ ولا تتكلم بكلمة، فأنتَ تتكلمُ مع والدتك، ولستُ رفيقةً لكَ، أو موظفة عندكَ، اغربْ عن وجهي الآن.

فقلّصَ عزام قبضة يده اليُسرى، وضربَ بكل ما أوتي من قوة مرآة الخزانة فتداعى زجاجها، وتحطّم من قوة ضربته العنيفة مُحدثاً صوتاً قوياً ولم يسلم عزام من فعلته، فقد شقّتْ إحدى قطع الزجاج يده، وتدفق الدم من جرحه مما أثار رعب علياء ليس خوفاً عليه، إنما من وهج غضبه وشراسة نظراته.

دخلَ أحمد مذعوراً ليرى ولده بهذا المنظر المريع، وزوجته التي جثتْ في تلك الأثناء على ركبتيها، ليتعالى نحيبها وصراخها في وجه عزام، وهي تغطي وجهها خوفاً من نظراته التي تُعرّي أفعالها ونواياها.

_ اغربْ عن وجهي أيها النذل الحقير، لمْ أكنْ أتوقع أبداً أن تغدو عدواً لي بتحريضٍ من ذاك السافل القذر، يا ويلتاه أيّ قدرٍ حالكِ الجبين تصدّى لي، وأنا قاصرةٌ عن فعلِ أيّ شيء لأجابهه؟

جأر أحمد الذي توسط حينها ولده وزوجته:

_ ماذا يجري هنا؟

ولم جرحتَ يدكَ هكذا؟

ودنا منه ليمسكَ كفه النازف، إلا أنّ عزاماً سحبَ يده بعنفٍ، واستدار عنهما ليخرج قائلاً بحنق:

_ اسألْ زوجتكَ عما يجري، فليس لدي ما أقوله.

ورمقَ أمّه باستهزاء متابعاً، وهو يشير بإصبعه مهدداً:

_ لكن أحبّ لفتَ نظركَ إلى أنكِ لن تنجي بفعلتكِ، فالشرطة لن تُغلق ملف اختفاء ريم بسهولة، إنهم سيحققون باختطافها، وستدانين أنتِ وأشتركِ الكلب ذلك.

وخرج من الصالون ليشعل سيجارةً تخفف قليلاً من اضطرابه، بينما جثا أحمد قبالة علياء التي كانت لا تزال راكعة تبكي بحرقة، أمسكَ بيديها ليبعدهما عن وجهها ويتوسلها أن تخبره عما دار بينها وبين عزام، فجحظتْ عيناها وانفجرتْ في وجهه ولمّا تزل الدموع تنهمر من عينيها بغزارة:

_ إنّ ذاك الوغد لؤي حرّض ولدي عليّ، وسيطر على كامل عقله، حتى نسي أنني أمّه التي أنجبته، وتعبتُ في تربيته.

سألها أحمد بصوتٍ مرتجف:

_ أيكون عزام قد بلغتْ منه الحماقة هذا الحدّ؟

ووقفَ واثباً إلى الصالون ينال منه الغضب الشديد، فرأى ولده ساكناً يدخن بشراهة، ولا يزال جرحه نازفاً ، فصرخ في وجهه:

_ هل جننتَ حتى تتمادى هكذا مع والدتكَ؟

أنسيتَ أنني لا أسمحُ لمخلوق بإزعاجها، ولو بحرف واحدٍ حتى ولو كنتَ أنت؟

فأية وقاحة أصبحتَ فيها بعد مرافقتكَ الطويلة للؤي الذي لم يقمْ وزناً لصداقةً أو قرابةً؟

التفتَ عزام إلى عفراء التي تهبط السلالم بسرعة، وهي تسأل بخوف شديد:

_ ما الخطبُ يا أبي؟

ما هذا الصراخ الذي يملأ أركان البيت؟

لم يعرها والدها اهتماماً، فوقفتْ مشدوهة تنظر إليهما بحيرة، وما لبثتْ أنْ شهقتْ بذعرٍ لمرأى الدماء المتدفقة من يد أخيها، والتي غطّتْ بقعةً كبيرة من الأرض، فسارعتْ لتأتي بالضمادات والمعقم.

خرجتْ علياء من الغرفة بخطوات مترنحة، منهكة، ولا زالتْ آثار الدموع على جفنيها، فنهض عزام واثباً باتجاهها، لكنها أشاحتْ عنه تكفكف دموعها وتتشهق، قال لها عزام بصوتٍ أقل عصفاً:

_ يؤسفني جداً أنكِ أمي التي جئتُ من أحشائها إلى هذه الدنيا.

واستدار مولياً لها ظهره، ففاجئه والده بصفعةٍ قويةٍ على وجهه مرفقةً ببصقةٍ، لكنه لم يأبه لهذه الصفعة والبصقة بل توقعها، وأكمل خطواته مشعلاً لفافة تبغٍ ثانية.

هرولتْ عفراء وطلبتْ من أخيها أن يمدّ يده لتمسحَ دماءه، وتعمل على تعقيم جرحه، ولم تنتظر موافقته، فشدّتْ يده عنوةً، وبدأتْ تجفف الدماء، وتضع المحلول الكحولي على طول الجرح وتعقبه بوضع مرهم مرمّم، وهو فاقدٌ لأيّ شعور إلا شعور المرارة والخذلان.

احتضنَ أحمد زوجته ودخلا إلى الغرفة، بينما ظلّتْ عفراء وأخيها في الصالون.

لم يغمض لأحدٍ منهم جفنٌ تلك الليلة، فقد طرد ما حدث النعاس من وسط جفونهم، وساءتْ حالة علياء التي أبتْ الانصياع لطلب أحمد بالخلود إلى فراشها، بقيت موتورة تدور في أرجاء الغرفة يستبد بها خوفٌ كبير يكاد يوقف نبضات قلبها.

اتجهتْ إلى الحمام، وقد أخفتْ هاتفها بين طيّات فستانِ نومها، وأخذتْ تتصل بأحدهم، لكنها تعود وتغلق هاتفها وقد راعها أن تجدَ الرقم مقفلاً.

تولّد في صدر أحمد شكّ وذلك لارتيادها الحمام في فترات متقاربة، فانتظر ريثما دخلتْ الحمام، وأخذ يتلصص عليها من ثقب الباب، فرآها تضع الهاتف على أذنها وما تلبث أن تنظر إليه بوجومٍ، وتتمتم بكلمات السباب والشتائم.

عاد أحمد مملوءاً بشكّ مريب حول تصرفاتها الغريبة، فما الذي يعنيه دخولها الحمام، وإجراء مكالمة هاتفية من هناك، وما هذا الخوف الذي يطلّ من عينيها وهي ترمق هاتفها و تلعنُ شخصاً مجهولاً؟

وفور دخولها الغرفة أوهمها بأنه مستغرقٌ في النوم، وصار يراقبها من بين جفنيه المطبقتين نصف إطباقة، فيرى ارتجافها وتضرعها الصامت الذي تشير إليه ملامحها وعيناها، لقد غدا على يقين بأنها متورطة بخطف ريم، كما قال عزام، وتصاعدتْ الدماء إلى رأسه، وقد وصل به

التفكير إلى هذا المنحى، واستعاد بذاكرته كل كلمةٍ قالها لؤي، وعاد إلى الوقت الذي تلقتْ به نبأ ظهور ريم كيف اندلقتْ القهوة بفعل صدمتها، وقسوة عزام الذي لا شكّ وأنه واقف على حقيقة مخيفة لم يشأ الإفصاح عنها، فولده ما كان يوماً جاحداً وعاقّاً، إنه مثال للتربية القويمة، ورفعة الأخلاق، ودماثة الطبع، فهل يتحول في أيام معدودة إلى ولد سيء الخُلق عديم الاحترام؟ وهل حبّه لعلياء وهيامه بها جعله أعمىً وغافلاً عن أخطائها؟ إنه يكاد يفقد صوابه، فهو لا يعرف كنه ما يجري من وراء ظهره.

ساد الهدوء أرجاء المنزل برّمته بعد أن صعد ولديه منذ قليل إلى غرفهما، كانت لا تزال علياء شاخصة في الظلام ترتجف من فرط رعبها وتوترها، وبعد أن اطمأنتْ لخلوّ الصالون من ولديها، واستسلام أحمد الوهمي لنومٍ عميقٍ، مشتْ على رؤوس أصابعها، وفتحتْ الخزانة لتستلّ بعض الملابس، وتسلّلتْ خارج الغرفة، فعلم أحمد بأنها مصممة على الخروج.

رمقَ ساعة هاتفه التي كانت تشير إلى الثالثة والنصف فجراً، نهض بهدوءٍ يتعقبها، وفتح الباب بحذرٍ شديد حتى لا تسمع صريره وخرج يتوارى خلف جدار الممر.

كانت قد انتهتْ من ارتداء ملابسها، لكنها تلتفتْ برأسها في كل الجهات لتطمئنَ بأنه لا رقيب عليها، أخذتْ مفتاح سيارتها من فوق الرف

الخشبي في الصالون، ووضعتْ هاتفها في حقيبة يدها الجلدية، وخرجتْ متسللة كلصٍ محترفٍ.
تقدّم أحمدٌ إلى الباب يريد اللحاق بها، فجاءه صوتُ عزام من خلفه:
_ ستذهبُ إلى الأشتر لتعرفَ كيف استطعنا تحرير ريم من بين مخالبه.
وجمَ أحمدٌ لما أفصح عنه عزام، وقال له بلهجةٍ آمرةٍ:
_ هيّا لنذهب ونتأكد من ذلك.
قهقه عزامٌ مقاطعاً وأعقب:
_ بعد كل ما رأيته تريد أن تتأكد؟ أيّ عمىً أصابك يا أبي، وأنت مصمم على تصديقها بينما كل الحقائق جلية أمام عينيك؟ على كل حالٍ لن نلحقَ بها فوراً، سنتركها تذهب إلى هناك ونتعقبها بعد قليل، فإنْ لم تكنْ أمام بيت الأشتر، فسأنكبّ على قدميكَ وقدميها طالباً صفحكما أتراهن؟
تنهدَ أحمدٌ بعمقٍ، وأغمض عينيه غير مستوعبٍ لما يجري، حائراً ماذا سيفعل، لكنه أدركَ صدق ولده، ونفاق زوجته.
فتح أحمد الباب وهرع إلى كراج السيارات الخاص بمنزلهم، ووقف أمام سيارة علياء التي كانت تهمّ بالخروج، اقتربَ عزام من نافذة سيارتها قائلاً بسخرية لاذعة:
_ لن يفيدكِ بشيء الذهاب إلى بيت الأشتر، لأنّ العمّ عادل باختصار كسرَ له ظهره، وفقأ له إحدى عينيه، وقد يكون الآن في عداد الأموات، فلا تُحمّلي نفسكِ عناء ومشقّة الطريق إلى هناك.

نزلتْ من سيارتها، وتسمّرتْ أمامهما موقنةً بدنو أجلها، وفظاعة نهايتها، غيرُ قادرٍ أيّ يراع وصف حالتها تلك الأثناء.

أمسكها أحمد بعنفٍ من يدها، وأخذ يجرّها إلى الداخل يتبعه عزام، رمى بها على الأريكة، وقد تحوّل إلى شخصٍ تراه علياء لأول مرة، وصاح بها بصوتٍ مشبعٍ بالقهر:

_ سنينٌ ولم استطع اكتشاف خيانتكِ، هذا أمرٌ لا يُصدق، أن أحبّ امرأةً ما هي إلا أختٌ للغدرِ، وأمٌّ للرياء، الذي ماتَ بي الآن أوجعُ من أن يُقال.

ووقفتْ غصة في حلقه منعته من الكلام لبرهة، لكنه استجمعَ أشتات كيانه المتناثرة وتابع:

_ أكثر من عشرين عاماً وأنا أسيرُ مكفوفاً على طرقاتٍ معبّدةٍ بغدركِ تودي بي إلى مقتلي، وأبني بساعديّ أسوار سجني، كنتُ طيلة هذا العمر أبرهنُ وأعلّل صدق خرافاتكِ، وأُقنع البحرَ بكلّ حججي بأنّه لا شطآنَ يستلقي عليها الموجُ إلا صدركِ، ولا ميناءَ ترسو فيه سفنٌ متعبةٌ إلا جفنيكِ، لا سماء .. لا هواء.. لا شمس بدون أنفاسكِ.

كانت دموعه تجري فتلسع صفحة وجهه من حرارتها لكنه قاومَ وأكملَ بحرقة أكبر:

_ وا خجلتاه من سخرية البشر على سذاجتي يا علياء، ومن حلمٍ اشتهيته طويلاً فغدا سوطاً يجلدني بلا رحمةٍ، فهلا قلتِ لي أين أخبئ عاري؟

وأين أُكرمُ جثة ظلّي وأدفنه حتى لا يمثلني شيء، وحتى أتجرّد من أوردتي، وأشرب نبيذ التلاشي والغياب لأنسى قلباً خفقَ لغادرةٍ مثلكِ حتى الموت ذاته عاجزٌ أن يجعلني أنسى عمقَ جرحِ غدركِ لكبريائي.

أمسكَ عزام بيد والده المفجوع بآماله وسعادته وقال له:

_ ما أصعبَ أن أسقيكَ كل هذا الوجع بيدي، لم أكنْ أريد إطلاع أحدٍ على ما اكتشفته خوفاً عليكَ أنتَ بالذات من الصدمة، ولأنكَ رجلٌ طيبٌ لا تستحقُ هذا الغدر كله.

نظر إلى والدته التي تئنّ أنيناً خافتاً، وتبكي مصيرها الأسود، وأشاحَ عنها قائلاً كأنه يُحدّثُ نفسه:

_ في أحيانٍ كثيرةٍ تكون الطيبة جواز سفر لبعض الناس كي يدلفوا مدنَ الروح، ويعيثوا فيها فساداً وطغياناً.

قاطعه أحمد وكأنه يُدلي باعتراف:

_ قد لا أكون طيباً كما تظن يا ولدي، وهذا المصير أكبر دليل على أنني كذلك.

لم يعلّق عزام على ما قاله والده، وتابع كلامه:

_ حتى لؤي لم يعرف حتى الآن أنها وراء اختطاف زوجته، وهو نادمٌ لأنه اتهمها ويشعر بتأنيب الضمير، ولا السيد عادل والدها الذي ساعدني على تحريرها لم يقف بعدُ على مَنْ دبر مؤامرة الخطف، لقد داريتُ جريمتها رغم أنها تستحق أن تُرمى في غياهب السجون إلى حين

انقضاء أجلها، ولكنني تمزقتُ إلى أشلاء يا أبي ولم يكن بمقدوري أن أشي بها وتنهي يف السجن كالمجرمين، لم أستطع يا أبي لأنها أمي، لكن عاجلاً أمْ آجلاً ستنكشفُ جريمتها عندما تعلم السلطات بظهور ريم عبد الحق.

قال أحمد بحزنٍ لا يوصف:

_ في هذه اللحظة أعلنُ نهاية زواجي منكِ يا علياء، وسأغادر هذا المنزل للأبد.

وهنا جحظتْ عينا علياء وكأنّ صفعة عنيفة أيقظتها وهرولتْ راكعة أمام أحمد تمسكُ بقدميه وتقول:

_ إني أتضرعُ إليكَ، لا بل يجدر بي تقبيل أقدامك ومسح دموعي بحذائكَ، أتوسل إليكَ يا أحمد لا تتركني وتبتعد عني لأني سأموت قهراً إنْ فعلتْ، أليس حبكَ شفيعاً لي؟ وها أنا بين يديكَ ذليلة، خاضعة، ومصيري معلّق بين أصابعكَ، فأنت القادر على إحيائي أو قتلي، لقد أغواني الشيطان، واقترفتُ ما اقترفته لكنني أعدكَ بأنني سأكون كما تشاء؟ وإذا كنتَ لا تقبلني حبيبة أو زوجة فاقبلْ بي جارية عند قدميكَ.

رمقها أحمد وسط دموعه وقال لها:

_ هل يكفي اعتذاركِ تعويضاً عن كل ما صنعتهِ بي؟ إنّ قراري قراراً مبرماً لا رجوع فيه.

وتابع وقد حطمه الأسى تحطيماً موجهاً كلامه إلى عزام الذي كان يرمق أخته عفراء التي اقتعدتْ إحدى السلالم وهي تغطي وجهها بيديها وتبكي:

_ خذني يا بني الآن إلى شقتكَ التي اشتريتها لكَ عندما تزوجتَ من شيرين، فأنا لن امكث في دارٍ تجمعني بهذه المرأة مدى العمر.

صرختْ علياء بتوسل:

_ لا تهجرني يا أحمد أرجوك، سأموت لتوي إنْ فعلتْ.

قال عزام لأبيه:

_ وأنا أيضاً سأسكن معكَ يا أبي مع ولدي الصغير، فروحي فيها ما يكفي ويزيد من الشقاء والبؤس.

نهضتْ علياء تدور حول نفسها وهي تلطم وجهها باكية وتقول:

_ ماذا صنعتُ بنفسي؟ لماذا دمرتُ حياتي وأغلى ما أملك؟ لا تتركوني وحدي، إنني أنازع الحياة فارأفوا بحالي.

دخل أحمد يجمع ملابسه وأغراضه في حقائب، وصعد عزام إلى غرفة المربية التي تنام عند ولده الصغير ليوقظها ويأخذها معه إلى الشقة التي سيقطنها مع والده.

وبقيت علياء تضرب وجهها براحتيها وتناجي الله بأمرّ الكلام علّه ينتشلها من هذا الكابوس الفظيع وتعود لتصرخ:

_ هل سأبقى وحدي هنا؟ هل سأعيش في قصرٍ مهجور بدون زوجٍ يرعاني وأبناءٍ كانوا قرة عيني وهنائي؟

فجاء صوت عفراء التي دنتْ منها، وربتت على كتفها قائلة:

_ أنا سأبقى معكِ يا أمي، ولن أتركِكِ، اهدئي قليلاً.

-3-

أما ما كان من أمر عزام قبل العثور على ريم، وقطع علاقته بمنزل لؤي بأمرٍ صارمٍ من والده، أنه انقلبَ حاله، وهرم قلبه من الحزن الصامت، فقرر ألا يستسلم لوبائه النفسي، وصمم أن يجردَ سيفه البتار ليقصم رقبة شكوكه ويرتاح من هواجسه المريبة التي تقضي مضجعه وتحرمه لذة العيش، إنه سيثبت لنفسه أنّ أقوال لؤي وادعاءاته كلها ترهات لا تمت للواقع بصلة انطلقتْ من جوف فمه في لحظات ضعف وقهر وهو ينازع الحياة التي خلَتْ من حبيبته.

ولمعتْ في رأسه فكرة مباغتة وهي أن يزور صديق طفولته قاسم الذي يشغل منصب ضابط في المخابرات ليستعين به بأمرِ مراجعة شركة الاتصالات واطلاعه سرّاً على الأرقام الواردة والصادرة في جوال والدته من شهرين وحتى الآن.

اجتمع بصديقه الذي فرح بلقائه كثيراً وطلب منه هذا الأمر، لكن قاسم أفهمه بأنه لا صلاحية لهم بالتجسس على أرقام إلا بدافع أمني اضطراري، لكن بعد إلحاح عزام وإخباره بأهمية هذا الأمر له شخصياً وافقَ أن يعمل ما بوسعه ليأتيه بقائمة الأرقام دون وضع خط والدته تحت المراقبة.

ومرّ ثلاث أيام وقاسم لم يخابره وكاد أن يفقد الأمل بنجاح خطته، لكن مساء اليوم الثالث من لقائه بقاسم اتصل به ليأتي إليه.

ذهب عزام مسرعاً إليه وأعطاه قاسم كل الأرقام الواردة والصادرة من رقم والدته منذ ثلاث أشهر وحتى صباح يوم أمس.

وبعد عودة عزام إلى البيت دخل غرفته وأخذ يتمعّنها، كانت الأرقام كثيرة وأغلبها لمعارف والديه، لكنه لاحظ وجود أرقام مجهولة تكررتْ كثيراً قبيل اختطاف ريم، وبعد التقصي والتمحيص بمساعدة قاسم عن أصحاب تلك الأرقام لم يجدْ أي شيء في أغلب الأرقام ما يثير الشك، إلا أنهم توصلا إلى رقم واحد كان لشخصٍ يُدعى عمرو السعيد الملقب بالأشتر، واستطاعَ عزام الاستدلال إلى مكان ذلك الشخص ومعرفة سجل كامل عنه، فقد كان هذا الشخص من أصحاب السوابق في السرقات وقطع الطرق، وقضى نصف عمره في السجون.

لم يتوانى عزام عن الذهاب إلى بيت ذلك الشخص، فهو معروف في منطقته بأنه من أصحاب السوابق والشبهات، وكان ذهاب عزام إلى هناك مخاطرة كبيرة لم يحسب لعواقبها حساب لكنه لم يرتدع عن كشف الحقيقة حتى ولو دفع من أجلها حياته، لقد كانت الحياة والموت لديه سيان.

وبالفعل وصل عزام إلى بيته الكائن في ريف دمشق، في البداية ارتسمَ الخوف على وجه الرجل الذي بدا بمظهرٍ قذرٍ وجسم ضخم، ويدين كبيرتين، طلب عزام أنْ يحادثه وحده دونما وجود أحد وقال بلهجة مطمئنة:

_ أنا ابن السيدة علياء، وقد أرسلتْ لكَ هذا المبلغ لقاء ما قدمته لها من خدمات.

نظرَ إليه الرجل في ريبة وأنكرَ معرفته بها إنكاراً شديداً جعلَ عزام يزداد ثقة أنّ هناك علاقة وثيقة تربطه بأمه، فليس بعسير على عزام استقراء الوجوه والاستدلال من ملامحها على مكامن الكذب، فتظاهر عزام بعدم الاهتمام لإنكاره وقال له:

_ كما تشاء لكن لا تتأمل في عودتي مجدداً لأعطيكَ هذا المبلغ.

قال الرجل وقد سال لعابه على رزمة النقود التي أظهرها عزام من جيبه:

_ وما الذي يُثبتُ لي أنكَ ولدها؟

أخرج عزام بطاقته الشخصية وجعلها على مستوى عينيه، فقرأ المعلومات لكنه خشي أن يُعلنَ على الفور بمعرفته لها، فقال لعزام:

_ أريد منك أن تكلمها أمامي لأطمئن.

ابتسم له عزام وربتَ على كتفه وهو يثني عليه حرصه الشديد على إخفاء أمر علاقته بوالدته، فبادره قائلاً:

_ طبعاً هذا حقكَ وأنا سعيد جداً لحرصكَ، سأتصل الآن أمامكَ، لكن لن أستطيع أن أقول لها شيئاً بشأنكَ لأن والدي بجانبها وستكون في وضع لا تُحسد عليه وقد تصبّ غضبها عليكَ وعليّ، إنّ هذا الموضوع محصور بيني وبينها لا أكثر.

اطمأنَ الرجل لكلامه وهزّ رأسه موافقاً.

اتصلَ عزام بأمه على مسمع الرجل الذي افترَّ ثغره ببلاهة وهو يسمع صوت السيدة علياء، وتأكد من أنّ هذا الشاب هو ابن السيدة التي تتعامل معه بدون أدنى شك.

قال لها عزام:

_ كيف الحال يا أمي؟

ردتْ علياء :

_ بخير يا حبيبي.

همس عزام وهو يراقب ملامح الرجل التي انبسطتْ:

_ كل شيء على ما يرام يا أمي..

ردّتْ علياء وهي تظن بأنه يسألها عن أوضاعها:

_ إن شاء الله يا عزام.

وأخذ يسألها عن عفراء ووالده وختم حديثه معها بقوله:

_ معي أمانة سأوصلها لصاحبها وأعود على الفور.

ردّتْ علياء التي كانت تتعطش لعودة عزام معها كما السابق غير مكترثة لما يقول:

_ نعم يا حبيبي لا تتأخر.

وهنا ارتاح الرجل وقال لعزام:

_ أهلاً وسهلاً بكَ في بيتكَ يا بني تفضلْ بالدخول.

دخل عزام إلى بيت الرجل الذي يدل أثاثه على فقر مدقع، وأخذ يجول ببصره في أرجاءه وقد فاح منه روائح خمرٍ ممزوجة بروائح العفن الرطبة أشعرته بالغثيان.

وأخذ يجأر بصوته وينادي زوجته التي خرجتْ تلبسُ نقاباً أسوداً لا يُظهرُ منها شيئاً إلا عيناها، وطلب منها الأشتر أن تحضر لضيفه كأس نبيذ، فسارع عزام واعتذر عن الشراب، واكتفى بطلب القهوة.

كان اجتذاب المعلومات التي تفيد في العثور على ريم من ذلك الرجل مهمة غاية في الصعوبة، فهو لن يستطيع سؤاله عما خفي حتى لا يثير شكوكه، وقد أوضح له عزام أنه مشترك بتلك المؤامرة، لكنه قال له بعد تفكير:

_ أشكرك يا عم عمرو لأنكَ أسديتَ لنا تلك الخدمة التي لن ننساها لك مدى الحياة.

هزّ الأشتر رأسه بفخر وقال:

_ السيدة علياء غمرتنا بفضلها وكرمها، ولن أتخاذل لحظة عن تقديم روحي فداءً لها، فهي التي اشترتْ لنا هذا البيت، وأنقذتنا من التشرد هنا وهناك، لقد كان صاحب هذا البيت يهددنا بالطرد كل حين.

تنهد الأشتر بعمق مع ابتسامة ارتياح وقال:

_ إنها صاحبة فضل علينا، ولن أسمحَ لفتاة سخيفة كتلك أن تكون سبب تعاستها.

أومأ عزام برأسه وحاول أن يبدو عارفاً بكل شيء، وإلا افتضح أمره، فقال بكآبة مصطنعة:

_ أجل يا عم عمرو إن تلك الفتاة كانت سبباً في تعاستنا جميعاً، وخلصتنا من شرورها، وكم تمنيتُ لو استطعتُ سحقها تحت قدميّ بلا رحمة.

قال الرجل وقد ضاقتْ عيناه علامة شرّ ينتويه:

_ وأنا كذلك يا بني كنت أنوي قتلها، ورمي جثتها للكلاب الضالة تنهشها، لكن تعليمات السيدة علياء تقضي بأنْ لا نمسها بسوء، فقط اكتفتْ بحسبها لمدة شهرين في غياهب الظلام، وبعد ذلك أمرتني أن أُطلق سراها فقط لتعاقبها، فكم هي سيدة نبيلة وذات خلق رفيع لترأف بها وقد أحالتْ حياتها إلى جحيم كما قالتْ لي.

أحسّ عزام بالاختناق، وبدأ يتصبب عرقاً لكنه قاوم ثورة بركانه الذي يغلي بحمم مشتعلة في صميمه وقال له:

_ أوه لقد كدتُ أنسى شيئاً مهماً أوصتني أمي أن أبلغكَ إياه، إنها تخشى أن يكتشف أحد مخبئها ويعمل على تحريرها، ساعتئذٍ ستكون رقابنا عرضة للشنق.

قهقه الأشتر وبانتْ أسنانه السوداء التي تبعث على الإقياء، وقال بصوتٍ يجاهد على خفضه ولا يفلح بذلك:

_ إن مكانها يستحيل على الشيطان التكهّن به، فكونا مطمئنين.

تظاهر عزام بالقلق وأردف:

_ إنّ الشرطة تبحث عنها في كل مكان، وأتمنى أن يطمئن قلبي، وقلب أمي، لهذا بعثتْ لكَ هذا المبلغ معي.

اقتربَ الرجل من عزام ففاحتْ رائحة كريهة من جوف فمه دفعته على حبس أنفاسه مؤثراً الاختناق على تحمل هذه الرائحة وقال:

_ لقد أمضيتُ وقتاً طويلاً وعانيتُ كثيراً لأصنعَ قبواً في هذا البيت، وجاهدتُ حتى لا يبنْ له أثر.

تنهد عزام متظاهراً بالارتياح الشديد وقال للرجل وهو يعاود انتشال رزمة النقود:

_ حلال عليكَ هذه النقود أيها الرجل الوفي.

أمسكَ الأشتر بالنقود وأخذ يلثمها ويشمها ويتمتم بكلمات الشكر والدعاء له وللسيدة علياء.

ومضى عزام في حديثه مع الأشتر الذي أخبره عن ماضيه المشين، وسنوات سجنه وأنه بعد كل هذا الشقاء الذي عاشه قد تاب عن فعل المعاصي، وآثر العيش فقيراً على أن يجترمَ أيّ جرمٍ، لولا أن السيدة علياء توسلتْ إليه وطلبتْ هذه الخدمة، وأغرته بالمال الكثير وبدأ عزام يجمع منه معلومات عن ساكني بيته وعن البيوت المحيطة به، وعندما اطمأن بأنه يعيش مع زوجته وحفيدته التي ماتت أمها منذ سنتين وأوكل والدها أمر تربيتها لجدها ليسافر خارج البلد نهض يستأذن الذهاب، وقبل

مغادرة عزام بيت الأشتر حذره تحذيراً شديداً ألا يحاول الاتصال بوالدته إلا إذا هي بادرتْ بالاتصال، ورضخ الأشتر لأوامر عزام وهو يقول له:

_ لا تقلق بهذا الشأن، فالسيدة علياء حذرتني قبلاً.

***

قضى عزامٌ ليلٌ طويلٌ تقضمه الأفكار، وتنغص حياته، كان عليه الاتصال بعادل عبد الحق ليقتحما بيت ذلك المجرم وتحرير ريم بأسرع ما يمكن قبل أن يعلم الأشتر بحقيقة مجيئه ويأخذ تدابيره، فيكون عزام مضطراً لإعلام الشرطة، وتعريض أمه للسجن رغم أنها تستحق أن تُسجن مثل الأشتر وتنال عقابها على جريمتها، وصار يتساءل لم عليه أن يرأف بها وقد انجلتْ أمامه حقيقتها، إنّ كلام لؤي كان صائباً بأنها مهووسة به لدرجة أنها قادرة على زهق أرواحٍ دون أن يرفّ لها جفن وبدأ الصراع يعصف برأسه فعقله صاخبٌ ناقم عيها وقراراته تنصبّ في إنزال أشد العقوبات عليها، لكن قلبه ينزف ألماً إنْ أبلغ عنها ورآها بعين الخيال في زنزانتها وحيدة ترتجف، فيعود ليقنع نفسه إشفاقاً على قلبه بأنها تعاني مرضاً نفسياً وليست بكامل وعيها، لقد أتلفه التفكير وقرر أن يعاقبها على طريقته التي تعادل ألف سنة في زنزانة منفردة.

وفي مساء اليوم التالي خرجَ وهو يخبئ مسدسه بين طيات ملابسه، وقد وضع في سيارته عصا غليظة، وسكيناً حادة، واشترى حبلاً طويلاً، وأشرطة لاصقة، وجعل يتصل بعادل عبد الحق الذي لم يرد أي مكالمة

من أي إنسان مهما يكن، فارتأى أن يرسل له برسالة نصية مضمونها "عم عادل أرجو أن توافيني إلى أول الشارع الذي يودي إلى بلدة "المعضمية"، فقد وجدتُ خيطاً يوصلنا إلى ريم، وأرجو منكَ ألا تبلغ أحداً الآن".

وركن عزام سيارته حيث واعد عادل، يمصّ سجائره مصّاً ليتأكد أنه ما زال يمتلكُ صدراً يستقبل نسمات الحياة ولا يختنق.

وفجأة اتصل عادل وقد تسلّم رسالته، كان صوته مرتعشاً فقال:

_ أحقاً يا عزام ما قلته؟ هل عرفتَ مكان ابنتي؟

قال عزام مطمئناً :

_ تعالَ فوراً إليّ وستكون بين أحضانكَ اليوم بإذن الله.

بعد نصف ساعة من الانتظار، جاء عادل يستقل سيارة أجرة، ولولا نبرة صوته لما عرفه عزام، لقد كانت هيئته مخيفة وكأنه هارب من غابة مليئة بالوحوش وقد ناله ما ناله من هجمات شرسة، جعلتْ منه مفترساً كنمرٍ متوحش متأهبٍ ليمزقَ لحوماً، أخذ عزام يشرحُ له خطة الهجوم، وقد أفهمه بأنّ ذلك الشخص قد اختطفَ ريم بغية أن ينال المال لقاء تحريرها، ولم يذكر له مؤامرة والدته.

وصلَ عزام إلى أمام بيت الأشتر، بينما عادل مختبئ في مقعد السيارة الخلفي يقبض على العصا منتظراً علامةً من عزام ليدخل البيت.
طرق عزام على الباب طرقاً خفيفاً، ووقفَ بانتظار أن يفتح له الأشتر، بعد دقائق فتح الأشتر وقد ارتدى سروالاً واسعاً للنوم، وقد فوجئ بمجيء عزام الذي ابتسم له بخبث قائلاً:
_ لدي رسالة من والدتي إليكَ يا عمّ عمرو.
أفسح له الأشتر مجالاً ليدخل وهو يدير طرفه خارجاً ليطمأنَ لخلو الطريق من مترقبين، جلس عزام وأبدى رغبته بشرب القهوة، فاستدار الأشتر ينادي زوجته، لكنه قبل أن يهمّ بمناداتها أمسك عزام بمسدسه ليضربه ضربة عنيفة من أخمصه جعلته يترنح زائغ العينين، فأعاد الضربة مجدداً، حتى تكوّمَ جسد الأشتر على الأرض كخرقةٍ بالية، خرجتْ زوجته هلعةً جراء الجلبة التي أُحدثتْ، فأشهر عزام مسدسه إلى رأسها، فكتمتْ صرخةً كادتْ تنطلق من بين شفتيها، وأعطى علامة لعادل علامة من هاتفه، فأمر عزام المرأة أن تفتح الباب وفوهة المسدس مصوبةً إلى رأسها، بينما هو ينقل بصره بينها وبين الأشتر خوفاً من أن يعود ذلك الأخير إلى رشده، فتحت المرأة الباب، فاندفع عادل إلى الداخل، وأوعز إليه عزام بتكبيل الأشتر، وشدّ وثاقه إلى الأريكة، ووضع شريط لاصق على فمه، كان عادل يعمل بخفة كأنه مختصّ بهذه

الأمور، واتجه إلى المرأة وفعل بها ما فعله بزوجها، إلا أنه لم يغلق لها فمها، فهي على أية حال لن تتجرأ وتصرخ والمسدس مشهّر على رأسها.

قال لها عزام بغضب:

_ أين خبأتما الفتاة؟

جمدتْ المرأة ولم تفه بحرف، فجأر بها عزام مهدداً:

_ إن لم تتكلمي فسنذبح حفيدتكِ أمامكِ وأقطعها على مرأى منكِ.

جحظتْ عينا المرأة، وخافتْ من وعيد عزام الذي أشار برأسه لعادل لإحضار الطفلة من الداخل، فقالتْ وقد خالط صوتها البكاء:

_ أرجوك لا تفعلْ، إنها طفلة بريئة لا ذنبَ لها بخطايانا.

_ إذنْ قولي أين أخفيتم ابنة هذا الرجل التي لا ذنب لها أيضاً، وإلا قتلتكم جميعاً وحررتها.

استسلمتْ المرأة لأوامره، وقالتْ:

_ في الغرفة المجاورة تحت السجادة سترى منفذاً سريّا للقبو، ما إنْ ترفع القطعة الحديدية حتى يظهر سلم تستطيع النزول إليه بسهولة، أشار عزام إلى عادل الذي هرع إلى الداخل، وما لبثتْ الطفلة أن وثبتْ من باب الغرفة وقد استيقظتْ مفزوعة تبكي بصوتٍ عالٍ، فصرخ بها عزام ونهرها، فأخذتْ تحتمي بجدتها المكبلة وتداري وجهها بفستانها، وقد تكورتْ فزعاً بوضعية جنينية خلف جدتها المقيدة.

وجاء صوت عادل عميقاً وبعيداً يطلب من عزام موافاته، فأسرع عزام يضع شريطاً لاصقاً على فم الطفلة المذعورة، ويكبل لها يديها، وقدميها رغم استيائه من هذا التصرف، إلا أنه يريد اتقاء كل الأخطار التي قد تواجههما.

دخلَ عزام وأذهله منظر الفتحة الكبيرة، وأخذ يحدق فرأى عادل يحمل ريم وقد أغمي عليها، وجعل يصعد بصعوبة على السلالم، يحملها بيد ويمسكُ باليد الأخرى حافة السلم حتى أصبح عزام قريباً منه فانتشلها من يد عادل ووضعها على السرير في ركن الغرفة، وبعد أن صعد عادل لاهثاً اتجه إلى ابنته وأخذ يبكي بحرقة قطعها صوت عزام الجهوري:

_ لا وقت لنا يا عم عادل لنبكي الآن، هيا اخرج ريم وضعها في مقعد السيارة الخلفي.

حملها وخرج بها مسرعاً كما أمره عزام بينما وقف عزام أمام الأشتر وزوجته يرمقهما وهو حائر ماذا يفعل بهما، وما لبث عادل أن عاد إليه وقد التقط العصا التي كان قد رماها من يده حين دخل الغرفة الداخلية.

وأخذ يتقدم بخطوات باتجاه الأشتر وقد استوحش أكثر مما ينبغي، دخل عزام ليحضر كأس ماء ليرشقه في وجه الأشتر كي يستعيد وعيه.

وما إن جاء حتى رأى عادل وقد فقدَ صوابه بالكامل وصار ينهال عليه ضرباً مبرحاً وعلى زوجته، فأمسكه عزام بقوة قائلاً:

_ قد تصيبُ بعصاك الطفلة البريئة التي لن نأخذها بذنبهما.

هدأتْ ثورة عادل وهو يشاهد الرعب المرتسم في عيون الطفلة ودموعها التي تطفر بحرارة، فهذا المنظر أكثر ما يهزّ وجدانه ويقوّض من عزيمته.

كان الأشتر قد استعاد وعيه، لكن لا يقو على تثبيت رأسه، فجعل يميل يمنة ويسرة، متأرجحاً بين الوعي واللاوعي.

قال عادل لعزام:

_ لنأخذهم و نسلمهم للشرطة يا بني.

وجمَ عزام من اقتراحه، وقال له بصوتٍ مرتجفٍ:

_ سأتدبر هذا الأمر لكن ليس الآن، علينا أن ننقذَ ريم فهي بحاجة لعناية كبيرة، وهذا الوغد وزوجته سيبقيان مكبلان هكذا إلى حين مجيء الشرطة، هيا بنا.

تقدم عادل من الطفلة التي أخذتْ تدير وجهها بسرعة جنونية، وقد ظنتْ بأنه يريد بها شراً، فحملها بين ذراعيه وأدخلها إلى الغرفة، وفكّ وثاقها مهدداً إياها بقوله:

_ إياكِ أن تخرجي من هنا أيتها الصغيرة، وإلا قتلتكِ، أفهمتِ؟

هزتْ الصغيرة رأسها وهي تتشهق وتكتم شهيقها بكفها خوفاً منه.

وخرجَ مغلقاً الباب وراءه بإحكام، وصار يرتجف كالمجنون الذي ضلّ سبيله في غابة قاحلة، التقط العصا من جديد وحلّ الوثاق الذي يربط الأشتر بقوائم الأريكة، وشدّ جسده الضخم إلى الأمام ليسقط أرضاً ويديه

إلى الخلف مربوطتين، وانهال بعصاه على جسده، ولم يكتف بالعصا فصعد بكل ثقله على ظهره وأخذ يركله حتى أصدرتْ عظامه صريراً قوياً من تكسّر الفقرات تحت وطأة قدميه، وعاد ليعصر رقبته عصراً وقد داس عليها عادل وهو ينوء تحته يكاد يلفظ أنفاسه، بينما زوجته يطفر الرعب من بين عينيها، وقد تحجرتْ دموعها خوفاً مما سيؤول حالها هي أيضاً، لقد أفرغ عادل كل حنقه بجسد الأشتر وكانت آخر ضربةٍ من نصيب عينه اليسرى، فتدفق الدم غزيراً منها، فقال له عادل وهو يلهث تعباً:

_ يكفيكَ أن تقضي عمركَ بعينٍ واحدةٍ، وقد تركتُ لك عيناً واحدةً لتبقى خائفاً عليها من الانطفاء إنْ عاودتْ نفسكَ وهمّتكَ على السير في دروب المعاصي.

قال له عزام:

_ يكفيه هذا القدر يا عمي، دعنا نذهب الآن من أجل ريم.

لكنه قبل أن يغادر نظر إلى زوجة الأشتر نظرة حقدٍ وقال لها:

_ ليس من شيمنا أن نضرب النساء والأطفال، ولكن أحذّركِ أنني سأغدو زنديقاً مثلكم وأتخلى عن شيمي إنْ أتيتما بأيّ فعلٍ مشين يوماً ما.

وأمسكَ بيد عادل يحثه على الذهاب، وغادرَ الرجلان بدون اكتراثٍ لمصير ذلك المجرم وزوجته.

في طريق العودة قال عزام لعادل الذي جلس في الخلف محتضناً ابنته:

_ أرجو منكَ يا عمي ألا تتكلم عن الذي حدث معنا مع أيّ إنسان، حتى أسوّي بعض الأمور التي تحتاج إلى إصلاح.

تعجبَ عادل من طلب عزام، وتوجس بأمرٍ خطيرٍ، لكنه لن يخذله بشيء ما دامَ قد عمل على إنقاذ ابنته وإعادتها إلى حضنه مجدداً، ووصلا إلى منزل لؤي كما تقدم ذكره.

-4-

لم تكن علياء لتهتم بعد كل ما حدث معها إنْ باتت في منزلها أمْ في غياهب السجون، وقد تركها زوجها وولدها ورحلا عنها.

كان همها الأكبر هو أن تعود الحياة إلى أرجاء بيتها كما كانت، وتعود لتنعم بدفء زوجها الذي كان يعاملها كأسمى منزلة من البشر، لقد خسرتْ كل شيء حتى نفسها، لم تفكر بعواقب شرورها، وبمصيرها الأسود، كانت تعدو وراء شيطان نفسها الذي يوسوس لها فتنقاد خلفه كالعبد المطيع، وها هي وحيدة ينهشها الندم ولكن هيهات أن ينفع الندم بعد فوات الأوان، لقد رُميتْ بين جدران هذا البيت منبوذة من الجميع، لا يؤنس وحدتها أحد، بالكاد تجلس معها عفراء التي غدتْ بعد رحيل والدها وأخيها تعتكف غرفتها، والخادمة وداد تتدبر أمور المنزل، فهي لم تعتد أن تجلس مع أحدٍ من أفراد العائلة.

إنّ مصيرها الآن هو أصعب بكثير من الحكم عليها بالسجن المؤبد لأنّ وجودها في البيت يجسد ذكرى لكل ما فقدته فيه من سعادة وأمان، حتى باتَ كل ركنٍ فيه يهيّج أحزانها ويستفزّ عبراتها، فتنهض لتتفحص أثاثه ورياشه وجدرانه، وتجثو أمام اللوحة الرخامية التي حفر لها أحمد صورتها في ذلك الحفل احتفاءً بعيد زواجهما عندما تجمهر الناس مبهورين الأنفاس ما بين حاسد ومذهول لحب أحمد العميق لها.

وهي الآن في حالٍ يُرثى له من الضياع والتشرد والوحدة القاتلة.

وكان أحمد أيضاً كاسف البال لا يجد لذة للعيش وقد غدرتْ به المرأة التي كان هواها مالئاً كيانه ووجودها علّة وجوده، وأخذتْ ترنّ كل حين جملة عادل عبد الحق التي ما فارقته كل تلك السنين الماضية عندما فرّ هاباً ليتركَ ماريا مسلوبة الشرف، محزونة الفؤاد، لقد اقتصّ منه الله قصاصاً لم يكن ليتصوره، ورأى أحمد أن يخبر ولده عزام بحقيقةٍ طالما جاهد على إخفائها خوفاً على مشاعر علياء، لكنه اليوم لا يجد سبباً لإخفائها، إنه على الأقل سيبرئ ذمته أمام الله، ويعوّض ابنته ريم ما عاشته من شقاء وبؤس.

وأخذ يسردُ إلى عزام كل ما كان من أمره منذ ذاك اليوم الذي تزوجَ بأمه وأنجبته، وإرغام جديه له على طلاق علياء، وكيف التقى بماريا وزيّنَ لها الدنيا بأبهى زينة لتنجرفَ في حبه انجرافاً أثملها وسلب جوهرة عفافها، لقد كان يعترف لابنه المصعوق من هول ما سمع وكأنه وراء قضبانٍ في قاعة المحكمة، يقرّ بكل خطاياه ودمعه يتهاطل كسحبٍ أثقلها ما في جوفها، فتمخضّتْ بوابلٍ من مطرٍ ليفرغ جوفها وترتاح.

لم يحتملْ عزام أكثر فهبّ واقفاً، والشرر يتطاير من قسماته كنمرٍ مفترس، وقال لأبيه الذي لا يزال يبكي بحرقة عما اقترفه في ماضيه:

_ يا الله ما الذي أسمعه؟ إني لا أجد فرقاً بينكَ وبين زوجتكَ، فأنت غدرتَ وهي غدرتْ، أنت اقترفتَ جرماً عظيماً، وهي فعلتْ مثلكَ، فلماذا كنتما تؤديان أدواراً لا تشبهكما، وتضعان الأقنعة الزاهية، بينما تخفيان

كل هذه الشرور في نفسيكما؟ لماذا ربيتمونا على الفضيلة وأنتما تفقدانها، وعلى الوفاء بالعهد وأنتما حنثتما بعهودٍ مقدسة، وترى نفوسكم في أوقات اللذة صارخةً "خذوا حلالكم الذين به تتباهون واتركونا مع لحظات الخطيئة الممتعة" وما إنْ ترتحل متعةُ خطاياكم حتى تتشبثون بكل ما أوتيتم من قوة بحلالكم المزعوم، تتوارون خجلاً مما اقترفتموه.

شردَ عزام قليلاً، وتابعَ بقسماتٍ محزونة:

_ لو رأيتَ العمّ عادل الذي ربّى لكَ ابنتكَ كيف استماتَ للعثور عليها كأنها من لحمه ودمه، لخجلتَ من نفسكَ، وانتزعتَ من جنبيكَ صفة الأبوة، لو رأيتَ وفائه لزوجته ماريا التي حطمَتْها يديكَ يوماً ما، لما شعرتَ بالخذلان تجاه غدر علياء لكَ، كلاكما غادران، ولكننا نستعظمُ غدر المرأة ونسميه خيانة، ونغضّ البصر عن فواحش الرجل لأنه يغسل ما علق به من آثار البغي، لو يدري المرء بأنّ الفأس التي قصم بها جذوع غيره لا شكّ وأنها ستعود لتقصمَ جذوعه يوماً، لبتر يده قبل أن يمسك فأسه و يعيث فساداً بغيره، ولما تجرأ على ارتكاب المعاصي.

صاحَ أحمد تخنقه العبرات:

_ أقسمُ لكَ أنني لم أعلم بأنّ ريم ابنتي إلا عندما جاءتْ ماريا بعد حادثة اختطاف ريم وأخبرتني.

قاطعه عزام بحدة:

_ وبعد أن أعلمتكَ السيدة ماريا، ماذا فعلتْ؟ وما كان موقفكَ؟ أنا سأجيبُ عنكَ، لقد جُبنتَ وتخاذلتَ بسبب ضعفكَ أمام أمي، فهل أنتَ أبٌ بمقدوره إحراق الأرض وما عليها في سبيل نجدة أبنائه؟

صمتَ عزام يبتلع قهره وقال بسخرية تخالطها المرارة:

_ سأنصحكَ نصيحة رغم أنكَ كنتَ أنتَ الناصح لي في كل أموري، لكن اقبلها مني عسى تنفعك، دعْ هذه الحقيقة مطمورة كما كانت، لأنها ستكون فاجعة لريم أن تسلبها الحياة أعظم أبٍ في الدنيا لتورثها أبٍ تخلى عنها، وعن أمها في أشدّ الحاجة له، وأؤكد لكَ أنها لن تقبلكَ أباً، سترفضكَ بشدة، بل وستحقد عليكَ حقداً لا ينطفىء ما دامتْ حية.

ودخل عزام إلى الغرفة التي تقيم بها المربية مع ولده، وصار يتأمله ويمتحنه من رأسه الصغير إلى أخمص قدميه، فتركته المرأة معه وخرجت، حمله عزام، وأخذ يقبله بحرارة وقلبه منفطر، وبدأ دمعه يسيل ندماً لأنه ابتعدَ عنه كل هذه المدة، وطفق يقول له بينما الطفل يبتسم ويناغي:

_ سامحني يا صغيري، لن أفارقكَ بعد الآن، سألازمكَ لحظة بلحظة، وأعطيكَ كل الحنان الذي فقدته، ولن أكون أباً يشغله الألم، والذكريات المريرة عن منحكَ دفء حناني.

وضعه في السرير، وخرج يقصد بيت لؤي، وما إنْ وصل عتبة البيت حتى سمع صدى الضحكات تتردد إلى الخارج، لقد عادتْ سعادة تلك

الأسرة بعودة ريم، وفي لحظات نشأ في صدر عزام شوق عارم ليراها وقد عرف أنها أخته، طرق الباب، ففتح له وليم الذي عانقه مذ دخل.

وقفَ ملقياً التحية على الجميع، ونظر إلى ريم التي استعادتْ ابتسامتها، ولم يشعر بنفسه إلا وقد اندفع نحوها واحتضنها قائلاً:

_ الحمد لله أنكِ بخير يا أختي.

نشفَ الدم في عروق ريم، واسترقتْ النظر إلى لؤي الذي أدمعتْ عيناه، لم يكن يشعر بأنّ عناق عزام لريم بشيء غير مستحب أو غريب.

أبعدته ريم بهدوءٍ وقد توردتْ خجلاً لتقول له:

_ شكراً لكَ يا عزام، أنا مدينة لكَ بنصف حياتي.

أمالَ رأسه بطريقة هزلية وسألها:

_ ولمن تدينين بالنصف الآخر؟

أجابتْ وهي ترمق والدها بعيونٍ طافحة بحبٍ كبير:

_ لأعظم أب في الدنيا عادل عبد الحق.

استدار عزام باتجاه عادل وتقدم منه قائلاً:

_ ريم محقة يا عم عادل، فهل تسمح لي أن أعانقكَ؟

تقدم عادل وضمه بكل حرارة وهو يتمتم:

_ لولاكَ لما استطعتُ اقتفاء أثرها، فلكَ الفضل الكبير يا بني، لأنكَ أعدتَ لي الحياة بعودة ريم، ولأنكَ جعلتني أفي بوعدي لماريا، فما اعتدتُ يوماً أن أخذلها.

وبعد أن شربوا الشاي وتجاذبوا الأحاديث، قال لؤي:

_ لكن لم تقلْ لي يا عزام، لماذا لم تبلغ الشرطة عن ذلك المجرم حتى الآن، إنّ إخفاء أمر ظهورها فيه مسؤولية كبيرة، ويجب علينا إبلاغ الشرطة عن ظهورها غداً.

وتابع لؤي وقد تنفسَ ارتياحاً:

_ لقد أثنى العم عادل على شهامتكَ وشجاعتكَ التي لم ير نظيراً لها، لكن أيّ منكما لم يخبرنا عن تفاصيل ذلك اليوم، حينما حررتما ريم.

احتقنَ وجه عزام، ولم يستطع الإجابة عن هذا السؤال الذي خشي منه طويلاً، لاحظ لؤي تردد عزام وقد جمد مبهور الأنفاس، فنهض طالباً منه أن يتكلما لوحدهما في الغرفة.

وما إنْ صارا لوحدهما في الغرفة، حتى عانقه لؤي ليخفف عنه فرط التوتر الذي أحدثه الكلام الأخير، وقال بعد أن أجلسه على طرف سريره وجلس بجانبه يحيطه بذراعه:

_ أتدري يا عزام بأنني لا أملك لولدي وليم أكثر مما أملك لكَ من محبة وليس من مخلوق تقهرني خسارته أكثر منكَ، فهلا قلتَ لي بصدقٍ ما الذي يجعلكَ أسير الهم والحزن هكذا؟

استدار عزام شطره وأخذ ينظر إليه وقد وجد مشقة في البوح، لكن لؤي فاجئه بقوله:

_ الذي منعكَ من الإبلاغ عن مختطفي ريم هو أنكَ لا تريد توريط والدتكَ أليس كذلك؟

هزّ عزام رأسه بالإيجاب وهو مطرقٌ كطفلٍ أجبروه على الاعتراف دامعاً، فتابع لؤي:

_ وأنا مثلكَ لا أريد لابنة عمي أن تقضي حياتها في السجن، فقد عاشتْ منذ يفاعتها في بيتنا، تنام مع أختي هبة في فراش واحد، ونقتسم الرغيف فيما بيننا، فكم يعزّ عليّ أن تؤول إلى مصير أسود.

ارتفع حاجبي عزام دهشة مما قال، فأردف لؤي:

_ كفاها عقاباً أن تخسر احترامكَ، غداً سنذهب إلى مركز الشرطة ونبلغ عن ظهور ريم، وسوف أتدبر الأمر مع ريم لنجعلَ اختفائها بملء إرادتها أمام السلطات.

سأل عزام:

_ وهل توافق ريم ووالديها على ذلك؟

_ لا عليكَ أنتَ من هذا، سأعمل على إقناعهم.

قال عزام بحزن:

لقد هجرها أبي وسكن معي في شقتي، وإنه في حالة تشبه الاحتضار.

قال لؤي وقد ارتسم على محياه ابتسامة تلوح بين الحزن والسخرية:

_ أتصدق يا عزام، أنني لطالما أحببتُ أباكَ حباً لا يقل مقداره عن حبي لكَ، ويسوؤني كثيراً ما آلتْ إليه حياته، ولكنه أيضاً جنى على نفسه مثل علياء.

سأله عزام متأرجحاً ما بين الشك واليقين:

_ هل تعرف عن أبي أمراً لا أعرفه أنا؟

صمتَ لؤي، وقد ارتأى ألا يزيد من لوعته وحزنه، ولكن عزام تابع وقد أكدَ له صمت لؤي أنّه مطلعٌ على ما كان من ماضي أبيه:

_ لقد اعترفَ والدي اليوم بحقيقةٍ هزّتْ مشاعري وقصمتْ ظهري، إنه ليس بأفضل من أمي يا لؤي.

وهنا عاد لؤي إلى لحظة دخول عزام البيت، واحتضانه لريم ومناداتها بـ "أختي" فعلم بأنه واقف على الحقيقة:

_ لقد سمعتُ خفية ما دار بين أبيكَ والسيدة ماريا من حديث عن ماضيهما، لكنني أرى أنه ليس من الجيد إفشاء هذه الحقيقة لأنها ستؤذي ريم والعم عادل الذي يتنفس وجودها، والسيدة ماريا لا تبغي أن تعرف ابنتها حقيقة نسبها، لذا فضلتُ أن أبدو جاهلاً بتلك الحقيقة.

قاطعه عزام:

_ وأنا قلتُ لأبي ألا يفصحَ عن هذا الأمر، فهي سترفضه بشدة، ولن تقبل بأبٍ تخلى عنها كل هذه السنين، وتتصدم بمعرفة أن عادل ليس

والدها الحقيقي، فهو أعطاها اسمه وكل سنوات عمره، وعارك الموت مراراً لأجلها، لكن لي رجاء عندكَ يا لؤي لا أظنكَ تخذلني فيه.

_ قل ما شئتَ يا حبيبي، ولا تتردد وإن كان مطلبكَ روحي فلن أتأخر.

_ سأعطي ريم من ميراث أبي ما يفوق حصتي من الميراث، وذلك من خلالك أنتَ، سأنقلُ لكَ حصتها وبدوركَ ستعطيها إياها حتى لا ترتاب وتأخذها الظنون.

قاطعه لؤي:

_ ولم ستعطيها ما يفوق حصتكَ؟

هز عزام رأسه بأسف وأجاب:

_ إنها قضتْ طفولتها وشبابها وهي في وعوز وخصاصة، بينما أنا وأختي تنعمنا ما شاء لنا من نعيم، فيحق لها أن تأخذ أضعافنا، وهذه رغبة والدي أيضاً.

قال لؤي وقد استعظمَ سمو أخلاقه ونبل نفسه:

_ لكن ريماً ليستْ بحاجة الآن، فأنا وكل ما أملكه بين يديها.

_ وليكنْ يا لؤي، فهذا حقها، وكل أموال الدنيا لن تعوضها عما عانته مذ ولادتها من شقاء.

_ باركَ الله بكَ يا حبيبي، وأدامكَ لي ابناً وصديقاً وأخاً.

واقتربَ ليلثمه على جبينه، وقد نهض يدعوه إلى الصالون حيث تجتمع العائلة.

لقد عانى لؤي جاهداً – بعد مغادرة عزام – ليعترف أمام عادل وماريا وزوجته بالحقيقة، وكان عسيراً عليه أن يخبرهم أنّ علياء هي التي دبرتْ خطف ريم، لقد جعلتْ كلمات لؤي عادل يفور ويغلي حنقاً وبدتْ ريم ذاهلة لا تستوعب ما تسمعه، بينما ماريا كانت الوحيدة التي لم تتفاجىء لأنها كانت تتوقع أن تلك المرأة الحاقدة وراء كل ما حدث مع ابنتها.

وختمَ لؤي حديثه بالقول:

_ كل ما أرجوه أن نطوي هذه الصفحة ليس إكراماً لها، ولا لزوجها، إنما رأفةً بعزام، فهو قطعة من روحي.

بعد صمتٍ دامَ طويلاً، قال عادل بمرارة:

_ لا أدري كم سنتحمل أذىً يفوق قدرتنا من وراء هذه العائلة، لكن إكراماً لعزام الذي خاطر مخاطرة كبيرة لإنقاذ ابنتي، وإكراماً لكَ أنت يا لؤي، لن أفعل شيئاً يلحق الضرر بهم.

-5-

بعد مرور سنة على ذلك اليوم، وتفاقم الأوضاع سوءاً على الأجواء السورية، واعتياد ما لم يعتادوه من أحزانٍ تستوطن كل شخص من كل الأعمار وكل المستويات، وبدا الشغل الشاغل هو استعادة أراضيهم وتطهيرها من رجس الإرهاب الذي عاث فساداً في كل مكان ولا يزال يضرمُ نيران الفتنة.

كان لؤي قد رُزقَ بطفلٍ من ريم وقد أسماه عزام حباً وولاءً لعزام توفيق، وماريا كانت تنعم بدفء عادل الذي يزيد يوماً بعد يوم، وولتْ أيام الحزن من نفسيهما بلا رجعة، فقد كانا يزورا منزل لؤي كل مساء ويقضيا ساعات برفقة ابنتهما وطفلها الصغير، وبدورها ريم أفعمتْ بسعادةٍ لا يخلو صباح من تضرعاتها لإدامتها.

أما علياء فلا تزال رهينة منزلها لا تنفكُ تعيد في مخيلتها ذكرى سعادتها الزائلة، وقد أبقاها على قيد الحياة خيط رفيع من شعاع أملٍ ألا وهو عودة أحمد وابنها عزام إلى البيت، لكن أحمد لمْ يبنْ له أثر، وحتى عزام كان يزورها كل أسبوع يطمأن عليها وعلى عفراء، ويحضر لهما احتياجاتهما، ويتفقد شؤونهما، ومن ثم يعود إلى شقته ليلازم والده الذي أهرمه المرض والحزن، ويمكث مع ولده الذي أصبح متعلقاً به إلى حدّ الجنون.

ولم يتخلى عزام عن عادته في زيارة منزل لؤي كل مساء ليقضي سهرته مع لؤي وأخته ريم التي تتفتح ورود قلبها كلما رأته، وقد نضج تفكيرها نضوجاً تاماً، فاقتنعتْ بأنها تحب عزاماً حباً عظيماً، لكنه ليس ذلك الحب الذي أقلق مضجعها فيما مضى، إنما اتصال روحي يجعلها تفيض حباً وحناناً تجاهه دون أن تدري أنّ هذا الحب المبهم الملامح ما هو إلا رابط الأخوة الغير مرئي الذي يشدّ المرء إلى المرء بغير إرادة.

وكان يوم من أيام الصيف حيث ارتفعتْ حرارة الجو والتهبتْ الشوارع والأرصفة بوهج الشمس، جاء عزام ظهراً إلى منزل لؤي ولم يكن في المنزل إلا ريم التي ترضع ولدها الصغير عزام، والجدة العجوز، بينما لؤي كان في معرض السيارات مع عمه عادل.

فتح وليم الباب بأمرٍ من ريم، فاندفع عزام متلهفاً ليقول لريم:

_ جهزّي نفسكِ وتعالي معي يا ريم.

هبتْ ريم واقفةً مشدوهة وسألته:

_ إلى أين يا عزام؟ ما الخطب؟

_ إلى والدي إنه متعب جداً وهو يطلبُ رؤيتكِ في هذيانه.

قالتْ ريم مترددة حائرة:

_ لكن يجب أن أخبر لؤي...

سارع عزام بالقول:

_ لقد اتصلتُ بلؤي، ربما سبقنا إلى هناك، هيا لا وقت أمامنا.

أعطتْ ريم ولدها لجدته العجوز وقالت لها:

_ سأتركُ عزاماً عندكِ يا أمي ريثما أعود، لن أتأخر.

وصل عزام وريم وكان هناك في الشقة عادل يبدو متأثراً، ولؤي كانت قسماته توشي بحزنٍ داخلي، وعفراء ساهمةً دامعة العينين.

كان عزام ممسكاً بيد ريم بإحكام، وقد أخافها هذا الموقف، فانتزعتْ يدها من يد عزام، لتركض إلى أحضان لؤي الذي ضمها بشدة مهدأً من روعها، فسألته بخوف:

_ حبيبي ما الذي يجري هنا؟

أجاب لؤي وقد خنقت العبرات صوته ، ورمق عادل الذي أغمض عينيه بأسىً:

_ سندخلُ ونطمأن على أحمد لا تخافي.

دخلتْ ريم وهي لا تزال تحتمي بأحضان زوجها يتبعها عادل وعزام وعفراء، كان أحمد ينضح بالعرق، وقد استغرق في شبه غيبوبة، وعيناه تجاهدان ألا تنغلق، فرأى ريم فوقه وعلى سحنتها علامات الخوف، فقال لها بصوتٍ مرتجٍ:

_ سأفارق هذه الحياة يا بنيتي، ولستُ آسفاً عليها، ولكني تائق أشد التوق لدعائكِ أنتِ وأمكِ لي بالرحمة والغفران.

ارتجفتْ ريم جاهلة ما يعنيه، فقالتْ له بصوتٍ خافت:

_ ليحفظكَ الله ويرعاك يا عمي، وأرجو من الله أن يمدكَ برداء العافية.

انبثق الدمع حاراً من عينيه المتعبتين، وقال لها:

_ أشد ما يحزنني أن أُحرم من مناداتكِ لي يا أبي، فهلا قلتِ لي هذه الكلمة مرةِ واحدة قبل فنائي.

أدارتْ ريم وجهها إلى الجميع في الخلف وقد وقفوا باكيين، وهي حيرى لا تعلم لماذا يطلب منها هذا الرجل أن تناديه أبي، فوجمتْ وابتلعتْ ريقها بصعوبة، فسارع عادل إليها ووقف بمحاذاتها وقد رأى في عينيها نورٌ يخبو بريقه وقال لها:

_ أنا أطلبُ منكِ يا صغيرتي أن تغفري لنا جميعاً، لأننا أخفينا عنكِ حقيقةَ أن السيّد أحمد هو والدكِ الحقيقي، فقد تزوج من أمكِ قبل زواجي بها و....

ندتْ شهقة من الخلف من صدر عفراء ، لكن ريم قاطعتْ كلامه بصرخة ذعر:

_ لا تقلْ هذا يا أبي أرجوكِ أنا ابنتكَ أنتَ ولا أرضى إلا بهذه الحقيقة، لماذا تريد أن تحرمني من أبوتكَ؟

احتضنها عادل وقال:

_ هل من السيئ أن يكون لكِ والدين يا ريم؟ إنّ هذه الحقيقة لا تسلبني شرف أن أبقى أباكِ الذي رباكِ ورعاكِ.

قال أحمد وهو يغالب تعبه:

_ إنني أعترفُ يا بنتي بأنّ عادلاً هو أبوكِ وأحق مني بأبوتكِ، ولكني أخاف أن أحمل ذنوبي معي إلى قبري، فتزيد من عذاباتي، وتحرق عظامي، ولستُ أبغي إلا غفرانكِ.

نظرتْ ريم إلى لؤي ومن ثم إلى عزام الذي ربت على كتفها، وقد فاجأها أنّ الجميع يعرفون هذه الحقيقة التي شلّتْ أعضائها وتفكيرها، فجال الدمع في عينيها وتذكرتْ الماضي عندما حضرتْ مع والدها زفاف عزام كيف اضطربَ والدها حينها والوجوم الذي لازمه ، ونفوره وغضبه لسماع اسم عائلة أحمد توفيق، كان شريط ذكرياتها يمرّ بسرعة وقد وقفتْ حائرة مضطربة لا تقوَ على التفوه بحرف، وقطع سلسلة ذكرياتها صوت أحمد المتقطع وهو يقول:

_ معكِ حق ألا تسامحيني، وألا ترأفي لضعفي وقلة حيلتي.

وبدون سابق إنذار تصدعَ كل ما بداخلها، وانعكسَ على وجهها هذا التصدع لتغدو تقاسيمها مكدرة بشكل مفزع، وأغلقتْ أذنيها بكلتا راحتيها كي لا تسمع المزيد وصاحتْ باستغاثة:

_ أين أنتِ يا أماه أنقذيني من هذه الترهات التي أسمعها.

وأخذتْ تعدو بأقدامٍ تكاد لا تحملها، وبأنفاسٍ مقطوعة، وغادرتْ من هذا الكابوس متجهة إلى منزل أمها، والدموع تهطلُ على وجهها دون أن تبذل أي جهدٍ لتمسحها، غدتْ لا تبصر شيئاً ولا تسمع إلا رنين كلمات تدبّ

في أرجائها خوف كبير، ولم تلتفتْ لذعر زوجها الذي همّ اللحاق بها لكن عادل منعه، وركض يعدو وراءها مذعوراً من أثر الصدمة التي زعزعتها.

استقلتْ سيارة أجرة وأعطته عنوان البيت، وقد زاد من هياجها وبكائها ولم تستطع كبت نحيبها، وكان عادل يتبعها بسيارته تكاد عيناه تقفز من محاجرها، لقد كان يعلم مقدار الحزن الذي سيكتسي ماريا وهي ترى ابنتها بهذا الوضع المخزي، ويلوم نفسه لأنه انساقَ بعواطفه تجاه عزام، وأيده بفكرة أن يخفف من عذاب والده التي تشكل عثرة في حنجرته وتزيد من ألم احتضاره، لقد كان عليه أن يستشير زوجته قبلاً ويتفقا على خطة يطلعا فيها ريم على الحقيقة قبل أن يصبّوا عليها هذا الوابل من المفاجآت التي لم تتحملها.

وصلتْ ريم إلى مدخل العمارة التي يقطنها والداها، لقد تفاقمتْ كآبتها إلى درجة أنه تبدّدَ أمام ناظريها كل قبس نور للحياة، وقفتْ قبل أن تدخل من باب العمارة وشخصتْ قليلاً كالمحقونة بحقنٍ مخدرةٍ، أحقاً هي حيّة أم أنها تموت ببطء؟ لقد كانت عاجزة أن تخطو أو تلتفتْ لصوت أبيها الذي صار قريباً منها يناديها بهلعٍ، لم ينتظر عادل التفاتها بل حملها كما يحمل طفلة في الثانية من عمرها، وصار يصعد السلالم تطفر دموعه من عينيه وهو يرى ابنته تتلاشى قواها.

وأخذ يركل باب الشقة بقدميه صارخاً:

_ افتحي الباب ماريا، أسرعي، أرجوكِ.

انفرجتْ أسارير الباب لتطلّ عليهما ماريا مفزوعة وهي ترى زوجها يحمل ابنتها المنهارة، وقد أغمضتْ عينيها ووجهها مبتلّ بدموعها، تنتحب كأنها فُجعتْ بغالٍ.

تعالى صياح ماريا وهي تمسك بريم وتسأله:

_ ما الذي أصاب ابنتي يا عادل؟

لم تكن ريم فاقدة للوعي، إنما أصابها تشنج عصبي أعاق حركاتها.

أجلسها عادل على مقعد جلدي، فمضتْ ماريا تحتضنها وهي تجهش بالبكاء، فقال عادل ببؤس لا نظير له:

_ لقد حدث ما كنا نخشاه يا حبيبتي، لقد اطّلعتْ ريم على حقيقةٍ جاهدنا كل حياتنا كي ندفنها، لكن القدر ساقَ إلينا كل ما كنا لا نتمناه ولا نتصوره.

أفلتت ماريا ابنتها وصوبتْ إليه نظرة رعب، أصابته بقشعريرة من رأسه إلى أصابع قدميه، فاستأنف قائلاً.

_ أحمد توفيق يحتضرُ، وهو مَنْ طلبَ أن تأتي إليه ريم كي تصفح عنه قبل أن يموت، فليس له مطلب الآن إلا غفرانكِ أنتِ وابنتكِ، لم يكن بوسعي أن أرفض، وأنا أعترفُ الآن أنني اقترفتُ خطأً فادحاً، لكنني...

كانت ريم تنصتْ دون أن تتفوه بحرف، فاكتفتْ ببكائها الصامت، الذي أسال دموعها على جانبي صدغيها.

اقتربتْ منها ماريا وجثتْ على ركبتيها قائلة:

_ سامحيني يا ابنتي، أعلم أني السبب بكل ما تعانيه الآن، لقد عشتُ دهراً وأنا أدفعُ ثمن خطيئتي ولا زلتُ أدفع الثمن، وأظنّ بأنني سأموت دون أن تحلَّ هذه اللعنة عني، أمكِ أثمتْ فيما مضى، واستسلمتْ بإرادتها لرجلٍ عاث في شبابها فساداً.

صرخ عادل كالمجنون بصوت مخيف:

_ لا توصمي نفسكِ بالعار أحذرّكِ، لقد كان قدركِ أن تقعي في الحب، وليس لنا سلطان على الحب، فهو يديرنا كيفما شاء.

رفعتْ ريم رأسها وقالتْ لأمها بصوتٍ مبحوح:

_ أخبروني بما سلف، أريد كل الحقيقة دون أن تخفيا عني شيئاً، من حقي الآن أن أعلم كل شيء، لستُ طفلة ولا مراهقة.

نهضتْ ماريا وأمسكتْ بكرسي خشبي لتضعها مقابلةً لابنتها وكأنها في قاعة محكمة لتعترف أمام قاضيها.

أخذتْ تُحدثُ ابنتها عن ماضيها بكل حذافيره، وعندما وصلتْ إلى المرحلة التي هامتْ بها عشقاً وغراماً بأحمد غصّتْ بدموعها، لكنها تجبّرتْ على نفسها وتابعتْ قصتها، كان عادل قد عاد ليطأطئ رأسه ويسنده بكلتا راحتيه، وقد غزاه شعور بالاختناق، بينما ريم تصيخ بسمعها لتستوعبَ كل تفاصيل الماضي.

لقد باحتْ ماريا بكل شيء، ولم تخفِ أي حدثٍ مهما صغُرتْ أهميته.

وعندما انتهتْ خفق قلبها بشدة، وهي تنتظر الحكم عليها من بين شفتي ابنتها، زفرتْ ريم وقد هدأ روعها، وأسندتْ رأسها على حافة المقعد تفكر بكل كلمة سمعتها من أمها.

لقد أوجعها ما مرتْ به أمها، وآلمها غدر أحمد بها، ودُهشتْ من نفسها لأنها بعد كل ما علمته من هذا الماضي الذاخر لم ينتابها كره تجاه أي طرفٍ، لقد شعرتْ بالشفقة على أمها، وتعاظمَ حبها واحترامها لأبيها عادل، وبالمقابل خالجها شعور بالرأفة على والدها الثاني أحمد توفيق، وأعلنتْ ضمنياً بأن الجميع ضحايا للحب، فحبّ أحمد لعلياء أرغمه على الفرار، وحب ماريا لأحمد أعماها فتورطتْ بتلك الورطة، وغرام عادل الذي يفوق كل حبٍّ أرغمه أيضاً أن يقدّم كل هذه التضحيات، ويحمل على عاتقه أمر حماية حبيبته وابنة ليست من صلبه.

خيّم صمتٌ ثقيلٌ كان من الصعب أن يحطمه شيء إلا رنين جوال عادل.

لقد كان لؤي يتصل به ليطمأن على زوجته، أجابه عادل بصوت كئيب متمتماً بكلمات لم تفهمها ريم ولا ماريا وهبّ واقفاً ليقول:

_ ها أنتِ يا ابنتي قد علمتِ كل شيء، فهل هناك مكان في قلبكِ للغفران؟

رمقته ريم بحبٍ أعظم من ذي قبل وأجابته:

_ لستُ أنا مَنْ يجب أن يغفر، فأنا لم أُحرمْ من أي شيء، لي أمٌّ عظيمة ورائعة، وأبٌ مثلكَ لا يتكرر في العمر إلا مرة واحدة، الذي يجب أن يغفرَ هي أمي التي ذاقتْ كل هذا القهر في عمرها.

ونهضتْ ريم لتدنو من ماريا التي رفعتْ رأسها لتتأكد من أنّ ابنتها قد صفحتْ عنها بالفعل أم أنها تتوهم، فسارعتْ ريم تعانق أمها وتقبلها على وجنتيها بحرارة.

انشرحَ صدر ماريا لأنّ ما حدث كان عكس توقعاتها، لكن ريم فاجأتها بطلبها:

_ هل بإمكاني أن أبقَ بجانب أحمد توفيق وهو يحتضر؟

هزّتْ ماريا رأسها بالإيجاب وقد رسمتْ ابتسامتها الجميلة على وجهها، وهمستْ بالطبع يا حبيبتي بإمكانكِ البقاء عنده.

التفتتْ ريم إلى أبيها وقالتْ له:

_ أبي هيا بنا لنذهب إلى هناك.

امتثل عادل لطلبها وقبل أن يغادر وقف بجانب زوجته التي أدامتْ النظر في عينيه الحنونتين وقالت له:

_ أبلغْ أحمداً أنّ ماريا لطفي قد غفرتْ له أيضاً خطيئته معها.

أمسكَ يدها ليرفعها ويقبلها قائلاً؛

_ أحبكِ ما دمتُ حيّاً، لن أتأخر في العودة إليكِ يا حبيبتي.

***

وقفتْ ريم قرب سرير أحمد توفيق الذي تجاهد عيناه ألا تُغمضُ إلى الأبد، واستجمعتْ شجاعتها لتقول:

_ أنا أسامحكَ وأغفرُ لكَ من كل قلبي، لأنكَ لو لم تفعلْ ذلك لما كان عادل عبد الحق أبي الآن، فأنا مدينة لكَ بالكثير لأنك السبب بوجود أبي الذي افتخر به في حياتي، نعم لقد غفرتُ لكَ يا أبي.

لاحَ في عمق عينيه خيال فرحٍ لأنها نادته أبي، فتنهدَ بارتياح ورمق عادل وقال له:

_ هل سامحتني أنتَ يا عادل، وهل تراها سامحتني ماريا؟

هزّ عادل رأسه بالإيجاب، وقال له بلهجة مؤثرة:

_ أتمنى لكَ الشفاء العاجل يا أبا عزام، إنّ لعزام منزلة في قلبي لم يبلغها أحد بعد ريم، لقد غفرتُ لكَ وأيضاً ماريا تبلغكَ أنها سامحتكَ وغفرتْ لكَ خطيئتكَ معها، فلا تبتئسْ.

مشتْ عفراء باتجاه ريم ، فابتدرتها ريم وعانقتها بحرارة، وأخذتْ الفتاتان تتشهقان بنحيبٍ أبكى كل من حولهما.

قالتْ ريم بصوتٍ تخنقه العبرات:

_ الآن علمتُ سبب حبي العميق لكِ ولعزام الذي لم أكنْ أعلم كنهه، ومبعث ذلك الوهج في صدري عند رؤيتكما، إنّ الدم يحنّ للدم يا أختي، ويا لسعادتي وأنا أجد نفسي محاطة بأخٍ وأختٍ وقد قضيتُ عمري وحيدة طالما تمنيتُ أن يكون لي أخوة كباقي الفتيات.

فرّق عزام بينهما وتوسطهما يضع على كل منهما ذراع، فيقبل هذه ومن ثم تلك، وما لبث أن انثنى وحمل ريم بين يديه وهو يقول ضاحكاً:

_ هل مسموح أيتها الآنسة أن أحملكِ الآن دون أن تعترضي وتنعتيني بلسانكِ السليط بأقبح الأوصاف كما فعلتِ سابقاً عندما حاولتُ حملكِ إلى السيارة.

أحاطته ريم بذراعيها وقربتْ شفتيها لتطبع على خده قبلة فقبلها عزام بدوره وأنزلها قائلاً لها ولعفراء بلهجته الساخرة المضحكة:

_ ستعملان على إطاعتي من اليوم فصاعداً دون أن تنبسا بحرفٍ، لأنني أخوكما الأكبر، والأجمل، ونظر إلى ريم وقد غمزَ لها بعينه قال لها:

_ سيكون لي معكِ حديثاً خاصاً نوعاً ما.

همستْ ريم بابتسامة عذبة:

_ قلْ لي الآن فكل من حولنا أحباب لنا.

رفع عزام إحدى حاجبيه وقال لها:

_ لقد أعجبتني صديقتكِ نهال فهل لكِ أن تعطيني رقم هاتفها.

نظرتْ ريم وعفراء إلى بعضهما وانفجرتا ضحكاً، فضمهما عزام إلى صدره وهو يقول:

_ من الآن فصاعداً أنتما أغلى ما أملك أيتها الفتاتان الجميلتان، دعونا نهتم بوالدنا الآن كي يشفى مما ألمّ به، لتكتمل فرحتنا.

وانضمَ لؤي وعادل إليهم وقد أزهرتْ قلوبهما بمرأى الفرح في عيون الأخوة الثلاثة.

وبعد قليل طلب عزام من الجميع الجلوس في الصالة كي يتيح لوالده أن ينام قليلاً، بعد أن اطمأنتْ نفسه وهدأ ضجيج روحه، وبعد خروجهم جثا عزام على ركبتيه ليداني وجهه وجه أبيه وسأله بحزنٍ:

_ أبي هل ما زلتَ تحب علياء الحسيني؟

قال أحمد وقد هاجَ في قلبه الوجد:

_ نعم أحبها وسأظل أحبها ما دمتُ حياً، لهذا آثرتُ الموت على الحياة، فكيف أعيش وفي عروقي يجري دمٌّ أدمنَ خائنة، وفي صدري فؤادٌ لا ينبض إلا لها، لقد حلّتْ لعنة الأقدار عليّ وأدمنتُ خائنة، فاتركوني أموتُ علّها ترحل من أوردتي وشراييني.

قال له عزام:

_ أليس في قلبكَ متسعٌ للغفران، وقد شهدتَ اليوم غفران عادل عبد الحق لك وقد أذقته فيما مضى صنوف الشقاء، وغفران ماريا وريم اللتان عصفتْ بهما الدنيا طويلاً بسببكَ، فكيف لكَ ألّا تغفر لأمي أليس الحب خير شفيع؟

وفجأةً جاء صوت لؤي من خلف عزام قائلاً:

_ أرجوك يا صديقي أن توقفَ نزيفكَ، فليس فينا من هو منزهٌ عن الخطأ، وطوبى لقلبٍ من شيمه الغفران بقدر ما يحمل بين طياته الحب والحنان بهذا الكم الهائل.

ردّ أحمد بقهر لا يُوصف:

_ إنني أطارد فلول أيامٍ امتلأ بها قلبي حباً لها، وأبكي مصرع روحٍ داستها دون رحمة بكعبِ حذائها، ولم تأبه لاستغاثة قلبٍ كل ذنبٍ أنه أحاطها حباً وحناناً وتقديساً، إني لا أنكرُ بأني ظلمتُ ماريا وغدرتُ بها، ولكنني كنت حينها أمشي متجرداً من الروح، والإحساس، لقد اقترفتُ الخطأ وأنا ضعيف، متهالك، وعشتُ عمري بعدها مترقباً لسوط عذاب الله على ما جنيته، أما هي فلم يؤنبها ضميرها يوماً على غدري، أكثر من عشرين سنة وعيناها تخونني، وكنتُ أحسبها تمطرني حباً وولهاً، وأماناً، ولطالما تناثر من رمشيها تباشير آمالٍ فتيات داعبتْ مشاعري طويلاً، فما أبعد المسافة بين أن نغدرَ في لحظات ضعفٍ ويأكلنا بقية عمرنا الندم على ما فعلناه، وما بين أن نواظب على الغدر سنيناً طويلة دون أن يرفّ لنا جفن متوارين خلف قناع الوفاء والإخلاص!!.

واستغرقَ بدون سابق إنذار في سبات عميق وصدره يعلو وينخفض جراء قلبه الثائر الحانق على فراق من أدمنها، على من طعنته طعنةً لا براء منها حتى يزول ويضمحل.

وفي ساعات الفجر تراود لمسامع لؤي وعزام صوت خافت يصدر من غرفة أحمد فهرع الاثنان، ليجدا أحمد يهذي متصبباً بالعرق ويكرر في هذيانه:

_ أدمنتُ خائنة، أنا أدمنتُ خائنة، لقد أدمنتُ خـــ ....

ولفظ أنفاسه الأخيرة مودعاً حياةً لم يستطع الغفران لمَنْ خانته، ولم يستطع الحياة بدونها.

-انتهتْ-

****

رواية

انشطار مغفرة

مجد حبيب

الطبعة الأولى
1444 هـ 2022 م
دار ديوان العرب للنشر والتوزيع
مصر – بورسعيد

جوال: 00201211132879
00201030502390
E-mail: mohamedhamdy217217@gmail.com

حقوق الطبع والنشر لهذا المصنف محفوظة للمؤلف، ولا يجوز بأي صورة إعادة النشر الكلي أو الجزئي، أو نسخه أو تصويره أو ترجمته أو الاقتباس منه، أو تحويله رقمياً وإتاحته عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من المؤلف أو الناشر .